فصـــول فـــى
ثقافة العرب قبـل الإسلام

فصـــول فـــى

ثقافة العرب قبـل الإسلام

د. إبراهيم عوض

القاهرة

1928هـ- 2006م

كلمة الافتتاح

يتناول الكتاب الذى بين يَدَىِ القارئ بالبحث بعضًا من جوانب الثقافة العربية قبل الإسلام. ولكى تتحدد المفاهيم أودّ أن أوضح بادِئَ ذى بَدْءٍ أننى أستعمل مصطلح "الثقافة" بمعنى النشاط الإنسانى المعنوى وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغةٍ ودينٍ وفكرٍ وأدبٍ وفنٍّ وقِيَمٍ وسلوكٍ وعاداتٍ وتقاليدَ وقوانينَ ونظمٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وتربويةٍ...إلخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندى "المدنية" و"الثقافة" جميعا، أى النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنوى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسّم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعلها

ترادف "الحضارة" كما آخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرت تشارلت سيمور سميث فى معجمها: "Dictionary of Anthropology" (ضمن ما كتبته تحت عنوان "Culture") أن اثنين من الباحثين فى هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام 1952م، أى قبل أكثر من نصف قرن، نحوًا من 300 تعريف لذلك المصطلح، إلا أن لكل دارسٍ مع ذلك الحقَّ فى أن يأخذ بالمعنى الذى يقتنع به ويرتاح عقله إليه. والمهم أن يحدد مصطلحاته حتى لا تفترق بينه وبين قرّائه السُّبُل.

ويطلق الباحثون على تاريخ العرب قبل الإسلام كلمة "الجاهلية"، وهذا المصطلح يحتاج هو أيضا إلى تحديد. وقد تناول مثلا د. شوقى ضيف فى أول الفصل الثانى من كتابه: "العصر الجاهلى" هذا الاسم قائلا إن "الجاهلية" ليست مشتقة من "الجهل" الذى هو ضد "العلم"، بل من "الجهل" الذى هو ضد "الحِلْم". أى أن الجاهلية عنده لا تعنى عدم المعرفة، بل تعنى السفه والغضب والنزق. ثم راح يستشهد على تفسيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحديث والشعر الجاهلى وَرَدَتْ فيها كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى. وكل هذا جميل وعلى العين والرأس، إلا أنا نستطيع أيضا أن نجد فى القرآن والحديث والشعر الجاهلى شواهد أخرى ورد فيها "الجهل" بمعنى عدم

العلم، كقوله سبحانه عن الفقراء المتعففين الذين لا يمدون أيديهم بالسؤال فيظنهم من يجهل أحوالهم أنهم أغنياء: "يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفُّف. تعرفهم بسيماهم"، وقوله جل شأنه: "يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، وقوله عليه السلام: "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويُرْفَع فيها العلم ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل"، "ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني"، "إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون"، "إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"، وكذلك الأبيات التالية للنابغة الذبيانى وعَبِيد بن الأبرص وعَدِيّ بن زيد وعنترة والسَّمَوْأَل وتأبَّطَ شَرًّا على الترتيب:

يُنْبِئْكِ ذو عِرْضِهِم عَنّي وَعالمهم وَلَيسَ جاهِلُ شَيْءٍ مِثلَ مَن عَلِما

***

يا أَيُّها السائِلُ عَن مَجْدِنا إِنَّكَ عَن مَسعاتِنا جاهِلُ

***

أَم لَدَيكَ العَهدُ الوَثيقُ مِنَ الأيـ ـامِ؟ بَل أَنتَ جاهِلٌ مَغرورُ

***

هَلاّ سَأَلتِ الخَيْلَ يا ابنةَ مالِكٍ   إن كُنْتِ جاهِلةً بِما لم تَعلَمي

***

سَلِي، إن جَهِلْتِ، الناسَ عَنّا وعنهمو   فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهُولُ

***

بِها الرَكبُ أَيما يَمَّمَ الرَّكْبُ يَمَّموا   وَإن لَم تَلُحْ فَالقَومُ بِالسَّيْرِ جُهَّلُ

... إلخ. لكن ذلك لن يحل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح "الجاهلية" إنما ظهر بعد مجيء الإسلام، وكان القرآن الكريم والرسول أول من استعمله. والمفهوم أن الجاهلية تُناقِض الإسلام فى كل شيء تقريبا بما فى ذلك الحِلْم والعِلْم. أى أن المسألة لا تقف عند مخالفة الجاهلية للدين الجديد فى قيمتى الحِلْم والعلم، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل أيا كان معناه، بل تعنى كل ما أتى الإسلام لمحوه، سواء كان جهلا أو طيشا أو كسلا أو سُكْرا أو زنى أو ظلما أو تجبرا أو ذلة أو نفاقا أو خيانة أو احتكارا أو اغتصابا أو إسرافا أو يأسا أو حسدا أو قذارة أو فوضى أو قبحا أو كفرا أو شركا أو عصبية قبلية أو قومية... إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوى لأية كلمة لا يتطابق مع معناها الاصطلاحى، بل يكون أوسع منه أو أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافا كبيرا. وربما أراد د. شوقى ضيف أن ينفى الجهل عن العرب قبل الإسلام ردًّا على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن

الواقع التاريخى يؤكد فعلا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهج، كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشربا عمليا، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذى حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها فى غضون سنواتٍ قلائلَ سادةً وقادةً للعالم فى كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى.

ويشتمل هذا الكتاب على فصول سبعة فى ثقافة العرب أيام جاهليتهم: أولها عن الشعر الجاهلى، الذى وضعتُه فى صدارة الكتاب نزولا على ما هو معروف من أن فن الشعر كان يحتل لدى عرب الجاهلية، بل فى التراث العربى عموما، المقام الأعلى بين مفردات الثقافة المختلفة. وقد بحثت فى هذا الفصل عددا من القضايا الهامة المتصلة بذلك الموضوع كأولية الشعر العربى وما قيل عن النحل والانتحال وبناء القصيدة فى شعر الجاهليين، وأعدت النظر فى كل ذلك من جديد. وفى الفصل الثانى تناولت موضوع القَصَص المنسوب إلى العصر الجاهلى وتساءلت كما تساءل من سبقونى إلى طَرْق هذا الأمر: إلى أى مدى يمكن أن نَعُدّ ذلك القَصَص نثرا جاهليا؟ كما وقفت أمام بعض نصوصه وحللتها تحليلا مضمونيا وأدبيا مبرزا

ما فيها من لمحات المتعة والإبداع. أما الفصل الثالث فخاصٌّ بالأمثال الجاهلية، وقد عالجتها فيه معالجة لغوية واجتماعية، مع التعرض هنا أيضا لبحث المدى الذى يمكن أن نثق فيه بتلك الأمثال، وهل قيلت فعلا فى ذلك العصر أَوْ لا؟ كما يتناول الفصل الرابع ما يسمَّى فى تاريخ الأدب العربى بـ"سجع الكُهّان"، أى الأقوال التى كان الكهّان العرب قبل الإسلام يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارتهم فى رُؤْيَا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومةٍ يبغى وَضْع حَدٍّ لها، أو منافسةٍ بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبلية يراد حسمها... إلخ. وهى أقوال كان أولئك الكهان يتعمَّدون أن تكون مسجوعة تستهوى الأذن وتشغلها بما فيها من توقيع موسيقى، وأن تكون كذلك غامضة تقبل أكثر من معنى، وإن كنتُ قد شكَكْتُ فى كثير منها لأسبابٍ ارتأيتها حسبما سيرى القراء فى حينه. وخامس تلك الفصول قد خُصِّص لموضوع الخطابة الجاهلية ونصوص الخُطَب التى وصلتنا منسوبة إلى عصر ما قبل الإسلام والمقاييس التى يمكن التعويل عليها فى فرز صحيحها من زائفها. أما فى الفصل السادس فقد حاولت أن أرسم صورة للأوضاع المختلفة لحياة العرب فى الجاهلية كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم مع الاستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله. ولا ريب أن القرآن هو المصدر الذى لا

يمكن أن يتطرق إليه الشك فى الكلام عن الجاهليين وحياتهم.
ويبقى الفصل السابع والأخير، وهو يضم عددا من الموضوعات تتعلق بأنساب العرب وقبائلهم وأحلافهم وديانتهم ونيرانهم وأيامهم وأسواقهم ومعارفهم وعلومهم، وقد استقيت خلاصتها من بعض المؤلفات التى تتعرض لتلك المسائل كـ"الإكليل" للهمدانى، و"الأغانى" للأصفهانى، و"تاريخ مكة" للأزرقى، و"نهاية الأَرَب" للنويرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"التصوير عند العرب" لأحمد باشا تيمور، و"تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجى زيدان، و"المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد على... إلخ. وهو فصل شديد الأهمية نظرًا لما يشتمل عليه من معلوماتٍ جِدِّ شائقةٍ ومفيدة.

وغنىٌّ عن القول أننى قد رجعت فى هذا الكتاب إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من المؤلفات التى سبقنى أصحابها إلى معالجة ما تناولتُه هنا من قضايا، وناقشتُ ما جاء فيها وقلّبته على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه. وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئا جديدا حتى لو كان هذا الجديد هو الزاويةَ التى أنظر منها إلى القضية رَهْن المعالجة، أو النكهةَ التى أعرضها بها. ويسرنى الآن أن أضع هذه الفصول بين يَدَىِ القارئ الكريم راجيًا من الله تعالى أن تكون ذات نفع

للباحثين فى ثقافة العرب قبل الإسلام من عــرب ومــستعربين وأن تسد ثُغْرة فى دراسة تلك الثقافة وما تتفرع إليه مــن فنــون قوليــة وأوضاع اجتماعيــة وقــيم أخلاقيــة وطقــوس دينيــة وأنــشطة اقتصادية. وقد عملتُ على ضبط أكبر عدد ممكــن مــن الألفــاظ فى تلك الفصول على عادتى فيما أؤلف من كتــب وأبحــاث منــذ فترة طويلة حرصًا منى على تقــديم نــصّ يــسهل علــى القــارئ مطالعته بأقل قدر من الأخطاء النطقية، وهــو مــا أرهقــنى جــدا كما يعرف كل من يعــالج الــرَّقْم علــى الكَــاتُوب. وأحــب أن أَلْفِت نظر القراء الكرام إلى أن الياء النهائيــة فى كلمــات الكتــاب الذى بين يَدَىِ القارئ لم تَجْرِ على وتــيرة واحــدة، بــل كُتِبَــتْ بطريقتين مختلفتين: فما كتبتُه بنفــسى مــن كــلام لم أضــع تحــت ياءاته المتطرفة نقطتين اتباعًا للنهج المصرى فى هــذا الــسبيل، أمــا ما كان موضوعًا تحت هذا الــضَّرْب مــن ياءاتــه نقطتــان فهــو منسوخ من النصوص الموجــودة علــى المــشباك، ولــيس الأمــر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعــل مــا سيُكْتَــشَف من أخطاء فى هذا الكتاب لا يكون من الكثــرة ولا مــن الخطــورة بحيث يُزْرِى بى وبما أكتــب لــدى القــراء والدارســين، والله ولى التوفيق!

الشعـــر

يقف الشعر على رأس قائمة الثقافة الجاهليـــة كمـــا هـــو معروف، ولهذا نذكره أول شـــيء مـــن تلـــك الثقافـــة. وفى هـــذا الفصل نناقش بعض القضايا المتصلة بـــه تمحيـــصا لمـــا تَعِـــجّ بـــه الساحة الأدبية من آراء فى ذلك الموضوع، وأُولَـــى تلـــك القـــضايا عُمْر هذا الشعر الجاهلى. يقول الجـــاحظ فى كتابـــه: "الحيـــوان": "وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغيرُ الـــسِّن، أوّلُ مـــن نَهَـــجَ ســـبيلَه وسهَّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْـــر ومُهَلْهِـــل بـــنُ ربيعـــة، وكُتُـــبُ أرِســـطاطاليسَ ومعلِّمِـــه أفلاطـــون، ثم بَطْلَيمـــوس وديمقراطس وفلان وفلان قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبـــلَ الـــدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب. ويدلّ على حداثةِ الـــشعر قـــولُ امـــرئ القيس بن حُجْر:

إنَّ بني عـــوفٍ ابتَنَـــوا حسنـــًا ضيّعـــه الدُّخْلُلُـــون إذ غَـــدَرُوا

أدَّوْا إلى جارهـــم خِفَارتـــــه ولم يَضِـــعْ بالمَغيب مَنْ نَصَــــرُوا

لا حِمْيَريٌّ وَفَى ولا عُـــــدَسٌ   ولا استُ عَيْـــرٍ يحكّها الـــثَّـفَرُ
لكنْ عُوَيْـــرٌ وَفَـــى بذمَّتِــه   لا قِصَـــرٌ عابَـــهُ ولا عَـــــوَرُ

فانظُرْ كم كان عمرُ زُرارةَ، وكم كـــان بـــين مـــوت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا استظهرنا الـــشعرَ وجـــدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمـــسين ومائـــةَ عـــام، وإذا اســـتظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام".

وقد ترددت هذه المقولة فى خطهـــا العـــام لَـــدُنْ مـــؤرخى الشعر الجاهلى ودارســـيه، إذ يَـــرَوْن أن الـــشعر الجـــاهلى الـــذى يمكن الاطمئنان له إنما يبـــدأ مـــن ذلـــك التـــاريخ الـــذى ذكـــره الجاحظ (انظر مثلا نيلدكه/ من تاريخ ونقد الـــشعر القـــديم/ مـــن ترجمة د. عبد الرحمن بـــدوى فى كتابـــه: "دراســـات المستـــشرقين حـــول صـــحة الـــشعر الجـــاهلى"/ ط2/ دار العلـــم للملايـــين/ 1986م/ 19، وكارل بروكلمـــان/ تـــاريخ الأدب العـــربى/ 1/ ترجمة د. عبـــد الحلـــيم النجـــار/ ط4/ دار المعـــارف/ 1977م/ 55، وأحمد الإســـكندرى ومـــصطفى عنـــانى/ الوســـيط فى الأدب العربى وتاريخه/ ط4/ مطبعة المعـــارف ومكتبتـــها/ 1342هـــــ- 1924م/ 44- 45، وريجـــى بلاشـــــير/ التـــأثيرات الوراثيـــة والمشاكل التى تضعها رواية الشعر العتيـــق/ مـــن ترجمـــة د. عبـــد الرحمن بدوى فى كتابـــه: "دراســـات المستـــشرقين حـــول صـــحة الشعر الجاهلى"/ 283، ود. شـــوقى ضـــيف/ العـــصر الجـــاهلى/ ط7/ دار المعـــارف/ 1976م/ 38- 39، ود. عبـــد العزيـــز

نبـــوى/ دراســـات فى الأدب الجـــاهلى/ ط3/ مكتبـــة الأنجلـــو المـــصرية/ 1999م/ 12- 13)، وإن كـــان أرنولـــد نيكلـــسون المستشرق البريطانى المعروف يتزل بهـــذا التـــاريخ إلى مـــدى قـــرن واحد فقـــط أو أكثـــر قلـــيلا بـــدءا مـــن عـــام 500م تقريبـــا (Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1969, P.71). والواقع أن الجاحظ، مـــع احترامـــى الـــشديد له وإعجابى البالغ به وبفكره وأسلوبه وشخـــصيته كلـــها، لم يقـــدم دليلا على هذا الذى قال، إذ كيف يمكـــن الاقتنـــا ع بـــأن الـــذى مهد السبيل للشعر هو امرؤ القيس والمهلهل بمـــا يعـــنى أنهمـــا أول من قال الشعر من العرب وأن شعرهما من ثم يتسم بمـــا يتـــسم بـــه أول كل شىء من البدائية وقلة الفن والسذاجة بالنـــسبة لمـــا جـــاء بعده، على حين أن ما خلّفه لنا المَلِك الضِّلّيل مـــن شـــعرٍ، ســـواء من ناحية المقدار أو من ناحية القيمـــة الفنيـــة حـــتى لقـــد جعلـــوه أميرا للشعراء الجاهليين، يكذّب ذلك تكذيبا شديدا؟

ولقد لفتت هذه المسألة أنظار البـــاحثين فأَبْـــدَوُا اســـتغرابهم أن يكون الشعر الجاهلى بما فيه من فن متقـــدم وليـــد تلـــك المـــدة القصيرة التى يحددها الجاحظ بمائة وخمسين عامـــا أو مـــائتين فقـــط قبل الإسلام. يقول مثلا أحمد حسن الزيـــات: "ولـــيس يـــسوغ فى العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الـــصورة الناصـــعة الرائعـــة فى شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القـــيس، وإنمـــا اختلفـــت عليـــه

العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذَّب أسلوبه وتشعبت مناحيه" (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ط24/ دار نهضة مصر/ 28). ويقول أيضا حنا الفاخورى: "وأقدم شعرٍ وصل إلينا كان ما قيل فى حرب البسوس أو قبل ذلك قليلا، وكان قصائد كاملة تدل على محاولات كثيرة سبقتها وهيأت طريقها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من استقامة الوزن واللغة والبيان" (حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى/ دون دار نشر أو تاريخ/ 52). ومثلهما فى ذلك د. عبد العزيز نبوى، الذى يقرر أن "الشعر الجاهلى، منذ أقدم نصوصه التى وصلت إلينا، قد اكتملت له أو كادت مقوماته الفنية بدءا من طرائق التعبير، وانتهاء بالموسيقى من وزن وتقفية. وهذا يعنى أنه مرت حِقَبٌ طويلة قبل أن يستقر للشعر الجاهلى سماته وخصائصه" (د. عبد العزيز نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى/ 12) ...إلخ. ويؤكد تشارلز ليال أن "تعدد البحور التى كان يستعملها الشعراء الجاهليون وتعقدها، وكذلك القواعد الراسخة التى تتعلق بالوزن والقافية، فضلا عن الأسلوب الواحد الذى كانوا ينتهجونه فى بناء قصائدهم رغم المسافات التى تفصل كلا منهم عن الآخر، كل ذلك يشير إلى دراسةٍ وممارسةٍ طويلةٍ سابقةٍ لفن الشعر وإمكانات اللسان العربى، وإن لم يكن بين يدينا سجل لشىء

من هذا" (C. J. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885, P.xvi)، وهو ما يوافقه عليه رينولد نيكلسون (A Literary History of the Arabs, P.75-76). وبالمثل يقرر إجناطيوس جويدى فى كتابه: "L'Arabie Antéislamique" أن القصائد الجاهلية الرائعة التى وصلتنا عن القرن السادس الميلادى تشير إلى أن وراءها صنعة طويلة (I. Guidi, L'Arabie Antéislamique, Paris, 1921, P.21). ويعلل كليمان هوار اختفاء الشعر السابق على ذلك التاريخ بأن الذكريات البشرية، ما لم يتم حفظها كتابة على الجدران أو الحجارة أو الأوراق، فإنها حَرِيّةٌ أن تضيع مع الأيام. ومن ثم يضيف قائلا إن الشعر العربى الذى وصلنا لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس الميلادى عندما استُعْمِلت الألفباء النبطية فى تسجيل ذلك الشعر (Clément Huart, A History of Arabic Literature, William Heinmann, London, 1903, P.7). ثم إن كلام الجاحظ عن زرارة والمسافة الزمنية التى تفصله عن الرسول عليه السلام لا علاقة له بهذا الذى نحن فيه، فضلا عن أن الأبيات التى استشهد بها عميد الكتاب العرب القدماء لا تتضمن شيئا مما يشير إليه.

وفوق ذلك فلست أستطيع أن أجد مناسبة بين كلامه فى هذا السياق عن امرئ القيس والمهلهل من جهة وكلامه عن فلاسفة اليونان من جهة أخرى، وإن كان عبد الفتاح كيليطو قد تصور أن الجاحظ إنما يوازن بين الشعر والفلسفة مُعْلِيًا من شأن الأخيرة، جاعلاً إياها كالشيخ المجرب الطويل العمر، أما الشعر فصَبِىٌّ نَزِقٌ لم تَعْرُكه الحياة بعدُ لأن عمره لا يزال قصيرا. وهذه هى عبارته: "لا جدال أن هذا المتكلم يقدم الفلسفة على الشعر، ليس في الزمن فحسب، وإنما في القيمة أيضا. فكأن الأسبقية الزمنية تمنح الفلسفة جدارة ومزيّة واستحقاقا، بينما تأخُّر ظهور الشعر علامةٌ على طفولته وسذاجته وعدم نضجه. الفلسفة كالشيخ الذي جرب الأمور واستفاد من عمره الطويل، بينما الشعر كالصبي الطائش النَّزِق الذي لا يُؤْبَه لكلامه ولا يُعْتَمَد عليه ولا يُعْتَدّ به" (عبد الفتاح كيليطو/ بين الفلسفة والشعر/ موقع "lycos"). لكن التركيب النحوى فى كلام الجاحظ لا يساعد على تفسير العبارة على هذا النحو، وإلا لجاء هكذا مثلا: "أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة. وأما كُتُب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس وديموقراطس وفلان وفلان، فموجودة قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور،

والأحقاب قبل الأحقاب"، وبــذلك تكــون هنــاك مقارنــة بــين الشعر والفلسفة، علاوة على أن تركيب جملة الجــاحظ، فيمــا لــو أبقيناها رغم ذلك كما هى، ينقــصه خــبر المبتــدإ، وهــو كلمــة "موجودة" أو ما يشبهها، اللهم إلا إذا كان الجــاحظ قــد قــصد أنه قبل الشعر كانت هنــاك كتــب فى فلــسفة الــشعر مهــدت الطريق إليه. لكن لا بد أن نفترض فى هذه الحالــة أنــه قــد ســها فاستطرد قافزًا من الكلام عن الــشعر الجــاهلى إلى الكــلام عــن الشعر عموما، لأنه لا صلة، كما نعــرف، بــين شــعر الجــاهليين وفلسفة الإغريــق. وعندئــذ يكــون قــول الجــاحظ: "وكتــب أرسطاطاليس..." معطوفا على قوله: "امــرؤ القــيس بــن حُجْــر والمهلهل بن ربيعة"، وهــو مــا قــد يرشــح لــه ورودُ "كتــب أرسطوطاليس" بعد فاصلة، لا بعد نقطة كما كتبها كيليطو.

وعلى أية حال فهناك أشعار تُرْوَى عن أزمــان أبعــد كــثيرا من تلك المدة التى حددها الجــاحظ كتلــك الــتى تنــسب لعــاد وثمود مثلا. صحيح أن ابن سلام قد نفــى أن تكــون مثــل تلــك الأشعار حقيقية، إلا أن الحجة التى اســتند إليهــا فى ذلــك النفــى ليست بالحاسمة. ذلك أنه اعتمد فيها علــى مــا جــاء فى القــرآن الكريم عن أولئك القوم من أنهم لم تبق منهم باقيــة، وهــو مــا أدى به إلى التساؤل قائلا إنه إذا كانــت عــاد وثمــود قــد استؤصــلتا كما جاء فى القرآن، فمن الذى أدى لنا تلك الأشــعار يــا تــرى؟

لكن فاته أنْ ليس شرطا أن يــؤدى لنــا أشــعارَهم أحــدٌ منــهم بالذات، إذ من الممكن جدا أن يكون غيرهــم مــن العــرب ممــن كان يحفظ تلك الأشعار هو الذى أداهــا لنــا، أو أن تكــون قــد كُتِبَتْ ثم وصلتنا عَبْرَ من وقعت فى أيــديهم تلــك الكتابــات، ثم ضاعت هذه الكتابات فيما بعد. ولست أقــصد بــذلك أن هــذه الأشعار وأشباهها صحيحة بالــضرورة، بــل كــل مــا أريــد أن أوضحه هو أن الحجة التى ساقها ابن سلام، علــى جلالــة قــدره، لا تستطيع أن تحسم المسألة، وبخاصة أنه ليس هنــاك مــا يمنــع أن يكون الثموديون قد قالوا شعرا ولا أن يكون ذلــك الــشعر قــد بقى تلك المدة التى تفصل بينهم وبــين الإســلام، إذ هــى ليــست بالمدة الطويلة، فها نحن أولاء ما زلنا نهتم بأشــعار الجاهليــة الــتى يُقِرّ بها الباحثون، ونقرؤها وندرسها ونحفظ كــثيرا مــن نــصوصها رغم انصرام كل هاتيك القرون التى تبلغ الألــف والــستمائة مــن السنين. ومثلهم فى ذلك تلك الأممُ الــتى اختفــت مــن مــسرح التاريخ واختفت معها لغاتها فلــم يعــد يعرفهــا إلا المتخصــصون القليلون، والتى نعرف مع ذلك عــن تراثهــا وآدابهــا وأفكارهــا وعقائدها الشىء الكثير، كما هو الحال مع الأكــاديين مــثلا مــن التاريخ القديم، والهنود الحمر من تاريخنا الحــديث. وعلــى الوجــه الآخر قد يكون تراث أمة من الأمم مَــصُونًا مُتَاحًــا بــين أيــدى أخلافها، لكنهم لا يعرفون عنه شيئا كما كــان وضــع الحــضارة

المصرية الفرعونية مثلا بالنسبة لنا نحن المصريين قبل الحملة الفرنسية وقبل فك حجر رشيد، الذى كان بمثابة كلمة "افتح يا سمسم" لكنوز على بابا.

ولقد كانت اللهجة الثمودية تجرى على القواعد التى نعرفها فى الفصحى فى اشتقاقاتها وأزمنة أفعالها ووجود صِيَغ التثنية وأسماء الإشارة والضمائر وحروف الجر والعطف فيها، وإن كانت أداة التعريف عندهم هى "الهاء" بدلا من "أل" (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 112) مما يمكن أن يفسَّر على أنه مظهرٌ لَهْجِىٌّ يختفى عند نظم الشعر مثلا، فلماذا نُحِيل إذن أن يكون الثموديون قد قالوا شعرا، أو أن يكون شعرهم قد بقى حتى وصل بعض منه أهل الجاهلية القريبين من الإسلام؟ أما قول د. جواد على، تحت عنوان "العربية الفصحى" فى الفصل التاسع والثلاثين بعد المائة من كتابه: "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، إن النصوص التى وصلتنا عن الثموديين تختلف عن العربية التى نعرفها، فمن الممكن، لو صحّ هذا الكلام وكان شيئا مطّرِدا فى اللغة كلها، الرد عليه بأن هذه النصوص ليست نصوصا أدبية وأنه كان من عادهم تخصيص اللغةِ التى نسميها الآن بـ"الفصحى" للإبداع الأدبى فقط، وتخصيص اللهجاتِ القبلية لما عدا ذلك حتى لو كان شيئا مكتوبا. الواقع أنه لا يوجد عقلا ولا نقلا ما يُحِيل هذا. وأما

اعتراض الدكتور طه حسين مثلا على الرائية التى ينسبها صاحب "الأغانى" لأحد أصهار إسماعيل من العرب بحجة أنها مكتوبة بلغة لينة مفهومة الألفاظ مستقيمة القواعد النحوية والصرفية والعروضية كلغة العرب أيام النبى عليه السلام بما يفيد أن اللغة العربية قد ظلت كل ذلك الزمن الطويل دون تطوير (فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ 1964م/ 182-183، وبالمناسبة فعبارة "عليه السلام" هذه فمن عندى، إذ لم يحدث مرة أن صلى الدكتور طه على النبى فى ذلك الكتاب!)، فيمكن الجواب عليه بأننا لا نزال حتى الآن، ورغم مرور زمن أكبر من الزمن الذى يفصل بين إسماعيل والجاهلية القريبة من الإسلام، نفهم كثيرا من الشعر الجاهلى مع اختلاف حياتنا الآن عن الحياة آنذاك أكثر مما كانت مختلفة بين العصرين المذكورين، وبخاصة أن موضوع القصيدة المشار إليها موضوع إنسانى بسيط لا يتعلق بوصف الحصان ولا الناقة وما إلى ذلك مما يكثر فيه الغريب بالنسبة لنا لأن حياتنا الآن تخلو من الناقة والحصان ولا نعرف أسماء أعضائهما ولا وجوه الحسن والسوء فيها كما كان يعرفها الجاهليون، بل يتعلق بحِدْثان الدهر وتقلبات الأيام وحتمية الموت وعجز البشر عن الوقوف فى وجه تصاريف القدر مما يخلو عادة من حُوشِىّ الألفاظ ولا يجد القارئ صعوبة فى فهمه. كما أن قواعد النحو والصرف

والعروض ما زالت باقية كما تركها لنا الجاهليون رغم اختلاف ظروف حياتنا تماما عن حياتهم. ومع هذا فلا بد أن أسارع إلى التوضيح بأنى لا أقول بالضرورة إن تلك القصيدة صحيحة فعلا، إذ يحتاج الأمر إلى دراسة أوسع وأعمق وأكثر أناة مما فعل طه حسين المتسرع دون سبب وجيه إلى الرفض والإنكار، لا لشيء إلا لأن المستشرق البريطانى مرجليوث (كما سنوضح لاحقا) قد شاءت له حماقته وعصبيته على العرب والإسلام من قبله أن يحمل على الشعر الجاهلى كله لينسفه نسفا فجاء طه حسين فنسج على منواله وأنكر الشعر الجاهلى بدوره: كُلّه أو جُلّه! وقد ننتهى بعد هذا إلى قبول القصيدة كلها أو بعضها أو إلى رفضها جملةً أو إلى التوقف بشأنها.

وعلى أية حال فهذا نص ما قاله ابن سلام فى كتابه: "طبقات فحول الشعراء" فى سياق هجومه على ابن إسحاق صاحب سيرة النبى عليه السلام: "وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مَخْرَمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهري: لا يزال في الناس عِلْمٌ ما بَقِيَ مَوْلَى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسِّيَر وغير ذلك فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي

بالشعر. أُتِينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقوافٍ. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا" (سورة الأنعام/ **45**) أي لا بقية لهم، وقال أيضا: "وأنه أهلك عادا الأولى* وثمودَ فما أبقى" (سورة النجم/ **50- 51**)، وقال في عاد "فهل ترى لهم مِنْ باقية؟" (سورة الحاقة/ **8**)، وقال: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله؟" (سورة إبراهيم/ **9**)؟ وقال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. أخبرني مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يقول: قال أبو عبد الله بن سلام، لا أدري أرفعه أم لا، وأظنه قد رفعه: أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه: إسماعيلُ ابن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء، قال: العرب كلها وَلَدُ إسماعيل إلا حِمْيَر وبقايا جُرْهُم. وكذلك يُرْوَى أن إسماعيل بن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم. ولكن العربية التي عَنَى محمدُ بن عليٍّ اللسانُ الذي نزل به

القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناءُ نزار في أنسابهم وأشعارهم عدنانَ، اقتصروا على مَعَدّ. ولم يذكر عدنانَ جاهليٌّ قط غير لبيد بن ربيعة الكلابي في بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجد من دون عدنان والدًا ودون مَعَدٍّ فلْتَزَعْكَ العواذلُ

وقد رُوِيَ لعباس بن مِرْداس السُّلَميّ بيتٌ في عدنان قال:

وعَكّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا بمَذْحِجَ حتى طُرِّدوا كل مَطْرَدِ

والبيت مُرِيب عند أبي عبد الله، فما فوق عدنان أسماء لم تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها، لم يذكرها عربي قط. وإنما كان مَعَدٌّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلا، وبين موسى وعاد وثمود الدهر الطويل والأمد البعيد. فنحن لا نُقِيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا، فكيف بعاد وثمود؟".

وواضح أن ابن سلام يظن أن عادا وثمود كانتا قبل زمنه بآلاف السنين وأنه لم يبق منهما شيء. لكن ثمود لم يكن يفصل بينها وبين الإسلام فى الواقع أكثر من ألف سنة أو أقل، إذ يعود تاريخ الثموديين إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا بعده فترة، وكانوا يسكنون مدائن صالح وما حولها، وجاء فى القرآن الكريم أنهم قد أخذتهم الرجفة، إلا أنهم رغم هذا قد خلّفوا لنا كثيرا من النقوش فى بلادهم وخارج بلادهم (د.

شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 33، 111)، مما يدل على أن فهم ابن سلام للآية الكريمة الخاصة باستئصالهم لم يكن فهما سليما. كذلك فاللغة التى كتبوا بها نقوشهم لا تختلف عن العربية الفصحى كما نعرفها، اللهم إلا فيما لا يقدم أو يؤخر حسبما رأينا. كما أن ثمود على الأقل تتلو تاريخيا إسماعيل بن إبراهيم ولا تتقدمه كما سبق إلى وهم عالمنا الجليل، إذ إن إبراهيم وإسماعيل إنما سبقا ميلاد السيد المسيح بأزمان طوال، وليس بقرون قليلة كما هو الحال مع ثمود حسبما عرفنا قبل قليل، فضلا عن أنه لا يوجد فارق زمنى يُذْكَر بين ثمود وموسى عليه السلام حسبما يقول ابن سلام، فقد قرأنا آنفًا أن ثمود سبقت عيسى عليه السلام بعدة قرون، وهو ما يصدق على سيدنا موسى أيضا. كذلك فإسماعيل لا يمكن أن يكون هو أول من تكلم العربية طبقا لما يقوله ابن سلام، الذى يضيف مع ذلك أنه عليه السلام قد نسى لغته الأولى لصالح لغة الضاد، إذ السؤال هو: وكيف ينسى ذلك النبى الكريم لغته ويتخذ لغة أخرى إلا إذا كانت هذه اللغة الأخرى لها وجود آنذاك، وهو ما يعنى أنها سابقة على نسيانه للغته؟ وهذه اللغة هى لغة زوجته العربية. أى أن اللسان العربى كان موجودا فى ذلك الحين، ولم يكن إسماعيل أول من تكلم به كما قال ابن سلام، فالفرد (أىّ فرد) لا يمكنه استحداث لغة لم تكن، لأن اللغة تحتاج إلى أزمان

وأزمان، وهى تنمو وتتطور وتتسع وتتعقد بالتدريج لا دفعة واحدة كما يوحى كلام ابن سلام رحمه الله.

وعلاوة على ذلك فقد ورد اسم عدنان عند شعراءَ آخرين غير الشاعرين اللذيْن ذكرهما عالمنا الجليل واللذيْن تابعه فيما قاله عنهما د. جواد على فى أول الفصل الأربعين بعد المائة (بعنوان "اللسان العربى") من كتابه: "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام". ومن هؤلاء الشعراء المهلهل بن ربيعة وليلى العفيفة وأميّة بن أبي الصلت، الذين يقولون على التوالى:

يَومٌ لَنا كانَت رِئاسَةُ أَهلِهِ　　　دونَ القَبائِلِ مِن بَني عَدنانِ

***

يا بَني الأَعماصِ إِمّا تَقْطَعوا　　　لِبَني عَدنانَ أَسبابَ الرَّجا

....

قُل لِعَدنان: فُدِيتُم! شَمِّروا　　　لِبَني الأَعجامِ تَشميرَ الوَحَى

***

نَفَوْا عن أرْضِهِمْ عدْنانَ طُرًّا　　　وكانوا للقبائل قاهِرِينا

وفى "مجمع الأمثال" للميدانى بيتٌ شعرىٌّ آخرُ ورد فيه اسم "عدنان"، نسبه المؤلف لعبد الله بن همام أحد بني عبد الله بن غطفان، مضيفا أنه يُنْسَب للنابغة أيضا، وهو ما عَزَاه البغدادى فى "خزانة الأدب" لهذا الأخير فقط، وإن كان قد عاد فذكر أنه يُنْسَب فى "الفاخر" (للمفضل بن سلمة) إلى

الاثنين جميعا، مع تحديد الغطفانى بأنه عبد الله بن هُمَارِق، ونصه:

بما انتهكوا من رب عدنانَ جهرةً وعوفٌ يناجيهم، وذلكمُ جَلَلْ

وفى "الإيناس بعلم الأنساب" يورد الوزير المغربى هذين البيتين لسلمة بن قيس العُكْلِيّ:

سَيبلغُ قَذْفي نَهْشَلاَ أَنّ مَجْدها قصير وقولي شَتْمُه وقَصائدهْ

ويأَتِي على الفَوْرَين دون مَحَجَّر ويَصْعَد في عكّ بن عَدنان ناشدُهْ

وبالإضافة إلى ذلك فقد مر بنا ما قاله عدد من الباحثين من أن الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون أول ما نظمته العرب من أشعار، بل لا بد أن تكون قد سبقته أشعار أخرى على مدى زمنى طويل حتى استوى الفن الشعرى على سُوقِه. أما إلى أى مدى يمتد هذا الزمن فى الماضى بالضبط فعلمه عند الله، إذ لم يستطع حتى الآن أىُّ باحثٍ الإتيانَ بما يَشْفِى ويكفِى فى هذا السبيل.

وهذا كله من شأنه التخفيف من مخاوف ابن سلام والتهدئة من شكوكه التى نحترمها رغم كل شىء، إذ لم يكن الرجل فى تلك المخاوف ولا فى هذه الشكوك صاحب هوى أو مأرب، بل كان يبغى البحث عن بَرْد اليقين فى مجال من مجالات العلم، ولم يكن يقصد إحداث ضجيج مقعقع يلفت إليه الأنظار ولا أن يحارب العرب والمسلمين بتشكيكهم فى كل شىء من تراثهم وحضارتهم كما يفعل بعض المستشرقين ومن يعدو لاهثا

خلفهم مقلدا لهم فى كل ما يفعلون. على أننى، كما سبق التنبيه، لا أقول إن الأشعار التى بلغتنا عن عاد وثمود وأشباههما لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة، بل كل ما أبغى قوله هو أننا ينبغى أن نعيد النظر فيما قيل بخصوص الشك فى الشعر الجاهلى.

وهذه هى النقطة التى أريد أن أتناولها الآن. وقد كان ابن سلام هو أول من فصل القول من القدماء فى هذه القضية، وإليك بعض ما قاله فى هذا الصدد مما أصبح منطلَقا لمن جاء بعده (وبخاصة من الـمُحْدَثين عربا ومستشرقين) للشك فى شعر ما قبل الإسلام: بعضه أو كثير منه أو جُلّه أو كُلّه. قال: "وفى الشعر مصنوع مفتعَل موضوع كثير، لا خير فيه ولا حجة فى عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يُستَخْرَج ولا مثل يُضْرَب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر مُعْجِب ولا نسيب مستطرَف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شئ منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى. وقد اختلف العلماء بَعْدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه".

ثم مضى مؤكدا أن "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تَثْقَفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودهما بلونٍ ولا مسٍّ ولا طرازٍ ولا وَسْمٍ ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بَهْرَجها وزائفها وسَتّوقها ومُفْرَغها. ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسّه وذَرْعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة الشعر، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتى دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ولا يجد واصفها مَزِيدًا على هذه الصفة. وتوصف الدابة فيقال: خفيف العِنان لين الظهر شديد الحافر فَتِيُّ السن نقيٌّ من العيوب فيكون بخمسين دينارا أو نحوها، وتكون أخرى بمئتى دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها. ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء: إنه لنَدِيّ الحَلْق طَلّ الصوت طويل النَّفَس مصيب للَّحْن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بَوْن بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة

والاستماع له بلا صفة ينتهى إليها ولا علم يُوقَف عليه. وإنّ كثرة المدارسة لتُعْدِي علي العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".

ثم يضرب على ذلك بعض الأمثلة من واقع الحياة الأدبية: "قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان أبي محرز، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله: بأى شئ تردّ هذه الأشعار التي تُرْوَى؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت. وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت أنت فيه وأصحابك! قال: إذا أخذتَ درهما فاستحسنتَه فقال لك الصراف إنه ردئ، فهل ينفعك استحسانك إياه؟".

ويبدو أن ابن سلام يتصور أن الشعر الصحيح لا بد أن يكون شعرا جيدا من الناحية الفنية والمضمونية بالضرورة، وهذا ما يوحى به قوله عما لا يطمئن له من شعر إنه "لا خير فيه ولا حجة فى عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف"، مع أنه لا تلازم البتة بين الشعر الصحيح من جهة والجودة الفنية والفائدة الخلقية والاجتماعية

من جهة أخرى، ولا بين الشعر المزيف وتفاهة الفن والمضمون كذلك، وهذا مما يعرفه كل أحد. أما قوله، عن بعض ما كان يُتَداوَل على أيامه من شعر لا ترتاح نفسه له ولا يرى صحته، إنه "قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء" فقد يمكن التعقيب عليه بأن الشعر المرويّ عن أهل البادية لا بد أن ينتهى هو أيضا بعد ذلك إلى التقييد فى الورق، فليست الكتابة إذن عارا على النصوص الشعرية ولا على من يأخذ بها، ولا ينبغى من ثم أن تُتَّخَذ تُكَأَةً لرفض شيء من تلك النصوص إلا إذا قام دليل قاطع على أنه زائف مصنوع. كما أن رواية الأعراب لشيء من الشعر ليست فى حد ذاتها برهانا على صحته، إذ البدو بشر من البشر فى نهاية المطاف، يجوز عليهم الكذب والصدق جميعا، ويقع منهم التزييف كما يقع منهم التحقيق، وفيهم الأمين الذى يُطْمَأَنّ له والخائن الذى يُجْفَل منه ولا يوثق به. ثم هل كان العرب كلهم أبناء بادية؟ ألم يكن فيهم من يسكن المدن؟ ألم يكن بين سكان المدن هؤلاء شعراء؟ بلى كان بينهم شعراء، وابن سلام نفسه قد أفرد لشعراء مكة ويثرب والطائف والبحرين قسما خاصا من كتابه الذى نحن بصدده، علاوة على من كان يعيش منهم فى بلاطَىِ الحيرة والغساسنة، فكيف نسى عالمنا الجليل هذا حين اشترط أن يكون الشعر الصحيح من

رواية البدو، والبدو وحدهم؟ وهـــذا أكـــبر دليـــل علـــى أن مـــا زعمه كليمان هوار من أن المدن العربيـــة فى ذلـــك الحـــين كانـــت من شدة الاشتغال بالتجارة بحيـــث لم تكـــن هنـــاك أيـــة فرصـــة لترعرع الإبـــداع الأدبى فيهـــا هـــو كـــلام لا يؤبـــه بـــه البتـــة (Clément Huart, A History of Arabic Literature, P.6). وفوق هذا ألم يكـــن بـــين العـــرب مـــن يعتمد على الكتابة فى رواية الـــشعر الجـــاهلى؟ ثم لمـــاذا ننـــسى أن كثيرا جدا من البدو العرب قـــد انتقلـــوا إلى العـــيش فى أمـــصار البلاد المفتوحة وأصبحوا بهذا من ســـكان المـــدن؟ أفـــإن تغـــيرت مساكنهم ينبغى أن يتغير الحكـــم علـــيهم ولا يُوثَـــق عندئـــذ بمـــا يروونه من شعر الجاهليين؟

أما حديث ابن سلام عن قدرة العلماء المطلقـــة علـــى فـــرز صحيح الشعر الجاهلى من زائفه بمجرد النظـــر فيـــه ففيـــه مبالغـــة كبيرة رغم معرفتنا بقيمـــة التخـــصص وضـــرورته، إذ إن أحكـــام العلماء التى تكلم عنها ابن ســـلام هنـــا لا تزيـــد عـــن أن تكـــون أحكاما انطباعيـــة، ومعـــروف مـــا يمكـــن أن يعتـــرى الأحكـــام الانطباعية من فـــساد مهمـــا علـــت درجـــة صـــاحبها فى العلـــم والخبرة. ومن هنا كان لا بد للعـــالم مـــن الرجـــوع إلى القواعـــد المرعيّة عند أهل كـــل صـــناعة، وتعريـــف القـــارئ عـــن طريـــق التطبيق العملى كيف اعتمد عليها فى الحكـــم علـــى هـــذا الـــنص

الشعرى أو ذاك، وسَوْق البراهين التى تدل على مـــا يقـــول حـــتى تكون أمام الباحث الفرصة لتمحيص ما يقـــرأ، ومـــن ثم قبولـــه أو رفضه عن بيّنة، وهو ما لم يفعله ابن سلام للأســـف فى كـــثير مـــن الحالات كما فى النص الذى نناقشه الآن والـــذى ينـــسب للعلمـــاء قدرات خارقـــة لا تعـــرف الفـــشل، أو لم يوفَّـــق فيـــه فى بعـــض الحالات الأخرى كما رأينا فى حديثه عما ينسب لعاد وثمـــود مـــن أشعار. إن كلام ابن سلام هنا ليشبه قول مـــن يـــرى أن الطبيـــب ليس فى حاجـــة إلى تحلـــيلات ولا أشـــعة ولا إلى الكـــشف علـــى المريض، بل يكفيه أن يلقى نظرة عليه فيعرف لِلتَّوّ ما يعـــانى منـــه. وهو ما يتسبب فى وقوع كوارث كان من الممكـــن تـــدارك كـــثير منها وتجنُّب نسبة غير قليلة من حالات الوفـــاة أو تفـــاقم المـــرض لدرجة خارجة عن السيطرة مـــثلا لـــو أن الطبيـــب طـــامن مـــن غُلَوَائه فى الثقة بعلمه وخبرته بعض الـــشىء. وكـــم كـــان يـــونس صادقا فى قوله التالى الذى استشهد به ابن سلام: "لـــو كـــان أحـــد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شئ واحـــد كـــان ينبغـــى لقـــول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله. ولكـــن لـــيس أحـــد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". كما أنـــه هـــو نفـــسه يحكـــم علـــى خَلَفٍ الأحمر قائلا: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس النـــاس ببيـــت شعر وأصدقه لسانا. كنا لا نبالى إذا أخذْنا عنـــه خـــبرا أو أنـــشدَنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه"، مـــع أن خَلَفًـــا هـــذا مـــتَّهَم لـــدى

بعض العلماء الآخرين بأنه وضّاع كبير للشعر. فما القول فى هذا؟ أليس هذا دليلا آخر على أن مسألة معرفة العلماء بالشعر الجاهلى ومقدرتهم على تمييز صحيحه من ملفَّقه مسألة نسبية؟ وإلا فلماذا اختلفوا فى الحكم على خَلَفٍ الأحمر إذن إذا كانت أحكامهم لا يخرّ منها الماء كما يريدنا ابن سلام أن نصدّق؟

ليس ذلك فقط، بل ها هو ذا ابن سلام نفسه يخبرنا بأن الاختلاف بين المختصين برواية الشعر الجاهلى كان شديدا، وأن هذا الاختلاف قد دفعه إلى الاقتصار على بعض ذلك الشعر وأصحابه دون البعض الآخر: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والنفاذ فى كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلفت الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها. ولا يُقْنِع الناسَ مع ذلك إلا الروايةُ عمن تقدم، فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا فألّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات، أربعةُ رهطٍ كلُّ طبقة متكافئين معتدلين". أما قوله عن ابن إسحاق: "وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهرى: لا يزال فى الناس عِلْمٌ ما بقى مولى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه

بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر. أُتِينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ" فأرى أن فيه تجنيا عليه، إذ كيف السبيل إلى معرفة أن الرجال والنساء المذكورين هنا لم يقولوا شعرا قط؟ الحق أن ذلك أمر يحتاج إلى دليل، وبخاصة أن أمامنا أشعارا تُنْسَب لهم، ونفيها عنهم هو الذى يحتاج إلى برهان، وأين هذا البرهان؟ ثم إن عالمنا الجليل يؤكد أنه قد ضاع من الشعر العربى الكثير والكثير، وهو ما كان ينبغى أن يحجزه عن التسرع فى إطلاق مثل تلك الأحكام! على أننى لا أقصد أن كل ما أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية من أشعار صحيح لا ريب فيه، بل قُصَارَى ما أقول إن الأمر لا ينبغى أن يُقْطَع فيه بتلك السهولة التى ينتحيها ابن سلام. ثم إننى لا أفهم على أى أساس حَكَم على الأشعار المنسوبة فى السيرة لعاد وثمود بأنها مجرد كلام معقود بقواف وليست شعرا. ألم يكن أحرى به أن يورد لنا الحيثيات التى نفى بها عن هذا الشعر الجودة الفنية، بل أنكر بناءً عليها مجرد دخوله ميدان هذا الفن؟ ومرة

أخرى هل لا بد أن يكون كل شعرٍ صــحيحٍ جيــدا مــن الناحيــة الفنية؟

وهو يقول إن الشعر الجاهلى كان غزيــرا شــديد الغــزارة، لكن "جاء الإسلام فتشاغلت عنــه العــرب وتــشاغلوا بالجهــاد وغزو فارس والروم ولَهَتْ عــن الــشعر وروايتــه. فلمــا كثــر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنــت العــرب بالأمــصار راجعــوا رواية الشعر فلم يَؤُولُوا إلى ديوانٍ مــدوَّنٍ ولا كتــابٍ مكتــوب، وأَلْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب مــن هلــك بــالموت والقتــل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كــثير. وقــد كــان عنــد النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحــول ومــا مُــدِح هــو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بــنى مــروان أو صــار منــه. قــال يونس: فلما راجعت العربُ روايةَ الشعر وذِكْــرَ أيامهــا ومآثرهــا استقلّ بعض العشائر شــعر شــعرائهم ومــا ذهــب مــن ذكــر وقائعهم، وكان قــوم قَلَّــتْ وقــائعهم وأشــعارهم فــأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا علــى ألــسنة شــعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار التى قيلــت. ولــيس يُــشْكِل على أهل العلم زيــادة الــرواة ولا مــا وضــعوا ولا مــا وضــع المولَّدون، وإنما عَضَّل بهم أن يقول الرجل مــن أهــل الباديــة مــن ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولــدهم فيُــشْكِل ذلــك بعــض الإشكال. قال ابن سلام: أخبرنى أبــو عبيــدة أن ابــن داوود بــن

متمّم بن نُوَيْرَة قَدِمِ البصرةَ فى بعض ما يَقْدَم له البدوى من الجَلَب والمِيرَة فنزل النحيت، فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته. فلما نَفِدَ شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. وكان أوّلَ من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمادُ الراوية، وكان غير موثوق به. وكان يَنْحَل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار. قال ابن سلام: أخبرنى أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة وهو عليها فقال: ما أطرفتنى شيئا. فعاد إليه فأنشده القصيدة التى في شعر الحطيئة، مديح أبى موسى. قال: ويحك! يمدح الحطيئةُ أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس. قال ابن سلام: أخبرنى أبو عبيدة عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفى، قال: كان حماد لى صديقًا مُلْطِفًا فعرض علىّ ما قبله يوما، فقلت له: أَمْلِ علىَّ قصيدة لأخوالى بنى سعد بن مالك لطَرَفة. فأَمْلَى علىّ:

إن الخليط أَجَدّ منتقَلُهْ ولذاك زُمَّتْ غُدْوَةً إبلُهْ
عهدى بهم فى النَّقْب قد سندوا تَهْدِى صِعَابَ مَطِيِّهم ذُلُلُهْ

وهي لأعشى همدان. وسمعت يونس يقول: العجب ممن يأخذ عن حماد. وكان يَكْذِب ويَلْحَن ويَكْسِر".

وكلام ابن سلام عن تشاغل العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد والفتوح معناه أولا أن العرب كانوا جميعا مجاهدين لا يستقر منهم فى بلده ولا بيته أحد، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح. إنما كان بعضهم يجاهد، وبعضهم يتاجر، وبعضهم يزرع، وبعضهم يصنع، وبعضهم يرعى، وبعضهم يعلّم أو يتعلم... إلخ كما هو الحال فى أى مجتمع آخر. ومعناه ثانيا أنهم عادوا لا يقولون الشعر ما داموا لا يروونه، إذ الرواية أسهل وأقل بَعْثًا على الحرج من النَّظْم. لكننا ننظر فنجد أنهم ظلوا يقولون الشعر حتى على أيام النبى عليه السلام، وفى أثناء الفتوح ذاتها. وهناك شعرٌ جِدٌّ كثيرٍ قيل فيها كما نعرف جميعا. بل إن الرسول عليه السلام كان يقرّب إليه بعض شعراء المسلمين ويحثهم على قول الشعر فى الذَّبّ عن الدين الجديد ويشجعهم، فكان يقول لحسان: اُهْجُهم (أى القرشيين)، وروح القدس معك. فكيف يقال إذن إن الإسلام قد شغل العرب عن رواية الشعر، حتى إذا انتهَوْا من الفتوح (والكلام هنا بالمناسبة مضطرب، وكأن الجهاد شىء آخر غير الفتوح!) ورجعوا إلى أنفسهم وما كانوا يحفظونه من الأشعار وجدوا أنهم قد نَسُوا نصيبا كبيرا جدا منها؟ وبالنسبة لابن متمم بن نويرة هل يعقل

أن يأخذ فى ارتجال تلك الأشعار الكثيرة المتتابعة التى تشبه شعر جده بهذه السهولة كما يُفْهَم من الرواية الخاصة بذلك؟ ثم لماذا يصنع ذلك يا ترى؟ وهل شرط أن يكون شعر متمم على مستوى واحد من المتانة والرُّوَاء؟ أليس من الطبيعى أن يتفاوت شعر الشاعر فيكون بعضه قويا متينا، والآخر دون ذلك، كما هو الحال حتى فى شعر شاعر عبقرى مثل المتنبى، إذ نجد فى ديوانه مقطوعات وقصائد لا ترتفع إلى مستوى شعره الآخر الرائع فى سيف الدولة وكافور وفى التغنى بمفاخره وأحزانه الذاتية؟ وقل مثل ذلك فى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى. وهذان مجرد مثالين اثنين لا غير، وإلا فمعروف عند المشتغلين بالأدب والنقد أن ذلك ينطبق على سائر الشعراء.

أما بالنسبة لحماد وما اشتهر به من كذب ونحل فإنى أتساءل بدورى: إذا كان حماد على هذه الشاكلة من الاشتهار بالنحل والتلفيق، وكذلك باللحن والكسر فوق البيعة بما يعنى أنه من الشعر لا فى العير ولا فى النفير، فما الذى كان يضطرهم إلى اللجوء إليه دائما وسؤاله عما فى جَعْبته من جديد؟ ثم هل من الحتم اللازب أن يعرف بلال بن أبى بردة كل شعر الحطيئة، أو كانت ذاكرته قرصا مدمجا سُجِّل عليه كل شعر الشاعر الهجّاء فلا يندّ عنها شاردة ولا واردة من ذلك الشعر؟ كذلك أليس من حقنا أن نسمع رد المتهم على

التهمة الموجَّهة إليه؟ لكن للأسف تسكت الرواية عند هذا الحد فلا تعطى المسكين الفرصة لإبداء وجهة نظره! ثم من يا ترى أنبأ الناس بما دار بين بلال وحماد من حوار واتفاقهما فى نهاية الأمر على ترك القصيدة المزيفة تذيع فى الناس؟ إن أيا منهما لا يمكن أن يكون هو من روى القصة، وإلا لكان كمن يحفر قبره بيده. كما أنه لم يكن هناك إلا هما وحدهما كيلا يقول قائل إن شخصا ثالثا هو الذى فضح الأمر. أما لو افترضنا بعد ذلك كله أنْ قد كان هناك شخص ثالث، فإنهما لم يكونا ليجرؤا على قول هذا الكلام بمسمع منه حتى لا يشوها صورتهما فى عينه. وفى "الأغانى" أن المدائنى كان ينسب القصيدة المذكورة للحطيئة فعلا! فما الذى يمكن أن نقوله هنا؟ وهذا هو نص "الأغانى": "وذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة. قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو فأنشده: "جمعْتَ من عامرٍ فيه ومن أسدٍ"، وذكر البيتين وبينهما هذا البيت وهو:

فما رَضِيتَهم حتى رَفَدْتَهمو بوائلٍ رَهْطِ ذي الجَدَّيْن بسطامِ"

ثم هل يقدح خطأ حماد فى نسبة قصيدة أعشى همدان لطَرَفة فى أمانته بالضرورة؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة مشكلة ذاكرة لا مشكلة ضمير؟ وهل هذا هو النص الشعرى الوحيد الذى أحاط به الخلاف حول نسبته لصاحبه حتى نذهب فنعلق

المشنقة لحماد؟ ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام وجهة النظر الخاصة بأحد الطرفين دون الآخر، وكأن حمادا خَرِس فلم يُحِرْ جوابا وسلّم بما قيل فى حقه. وأين هذا؟ وعجيب أن يقال فى حماد إنه كان ينحل شعر الرجل غيره: هكذا دون إبداء الأسباب. ترى لماذا كان يفعل ذلك؟ أكان مصابا بلُوثَةٍ فى عقله تجعله يتبرع من تلقاء نفسه بخداع الناس وإنفاق وقته وجهده فى ذلك "لله فى لله"؟ وأعجب من هذا أن يقال إنه كان يزيد فى الأشعار رغم ما اتُّهِم به فى ذات الوقت من أنه كان يلحن ويكسر الشعر. يا له من أحمق! لكن ما القول فى الذين كانوا يصرون بعد هذا كله على البحث عنده دائما عن الجديد فى الشعر؟ أليسوا مثله حمقى بل أَعْرَق منه فى الحماقة وأَوْغَل؟ وأعجب من هذا وذاك أن يلقَّب هذا الكذاب الوضاع الخالى من الموهبة الشعرية بـ"الراوية"؟ إن مثل هذا اللقب ليس له فى الواقع من معنى إلا أنهم كانوا يحترمون روايته ويقدرونها حتى إنهم لم يَرَوْا فيه إلا أنه "راوية"! وفى "الأغانى" أن المفضَّل الضَّبِّىّ قد وصفه بأنه "رجل عارف بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشْبِه به مذهب رجل ويُدْخِله فى شعره ويُحْمَل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء". أى أنه كان عالما بالشعر ذا بصيرة نقدية عجيبة فيه وصاحب موهبة وبراعة فى التقليد ومقدرة

على خلط الأمور حتى لتتداخل الأشعار الصحيحة والزائفة على يديه فلا يميز بينها إلا عالمٌ خِرِّيت. فمن نصدق يا ترى؟ أنصدق من يرميه بالجهل الفاحش بالشعر وباللحن والكسر فيه، أم نصدق من يصوره بصورة العبقرى الجهبذ الذى لا يعجزه فى هذا الميدان شىء؟

وهناك خبران آخران غريبان عنه فى "الأغانى" مُفَادهما أنه بقى يكذب على الناس ويضع لهم الشعر الجاهلى المنحول على مدى عشرات السنين، على الأقل من أيام الخليفة الأموى الوليد بن يزيد (الذى نجح فى امتحانٍ عقده له كى يتثبت أنه يحفظ فعلا لمن لا يعرفهم من الشعراء مائة قصيدة على كل حرف من حروف الألفباء) حتى عصر المهدى ثانى خلفاء بنى العباس حين اكتشف تلاعبه فنادى فى الناس ألا يقبلوا روايته، وكأن الدولة الإسلامية كان من مهامّها نقد الأدب والكشف عن الشعر المنحول! فهل يقبل العقل أن يظل الرجل يضحك على ذقون العرب كل هاتيك العشرات من السنين دون أن يكشفه أحد قبل المهدى العباسى، وكأنه يتعامل مع أمة من الأفدام الأغتام البائسين؟ وأخيرا وليس آخرا نجد ابن سلام يبدأ كلامه قائلا إن الشعر العربى لم يعرف غير الرواية الشفوية، ليعود فيضيف بعد قليل أنه كان هناك قسط كبير منه مقيد فى ديوان عند النعمان بن المنذر وانتهى مطافه إلى أيدى بنى

مروان. وذلك القسط، حسب كلامه، هو أفضل الشعر الجاهلى من الناحية الفنية لأنه شعر الفحول ومن مدحوا النعمان وأسرته. وهذا تناقض واضح!

كذلك نقرأ فى "تاريخ بغداد" لأبى بكر بن الخطيب أن أبا عمرو الشيبانى، وهو أيضا راويةٌ كوفىٌّ كحماد، كان يجمع شعر القبائل حتى إذا انتهى من شعر إحداها كتب مصحفا بخطه ووضعه فى مسجد الكوفة. ومع هذا فقد كان خصومه يتهمونه بالسَّرَف فى شرب الخمر رغم إقرارهم بأنه ثقة فى روايته. ويعلق طه حسين قائلا: "وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها" (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ **171**)، وهو ما يعنى أن من البشر من يظل يقول: "عنزة" ولو طارت، ومنهم طه حسين، فها هو ذا الشيبانى قد اجتمع خصومه وأنصاره على توثيقه، بيد أن طه حسين لا يعجبه العجب، فيتهم الرجل بأنه كان يؤلف الشعر وينسبه إلى شعراء القبائل التى تدفع له. أما من أين أتى طه حسين بهذا الكلام، فينبغى أيها القارئ أن تخرّ على ما يقوله ساجدا موافقا ولا تسأل مثل هذا السؤال. وعجيب أن يسرف طه حسين فى الشك فى الشعر الجاهلى حتى ليزعم أنه كله تقريبا مصنوع صنعا، حاطبا هكذا فى حبل مرجليوث المستشرق البريطانى الخبيث مع بعض التلاوين التى لا تقدم ولا

تؤخر، ثم يصدّق دون أدنى تفكير أو محاولة فى التثبت أية رواية تشكك فى علماء المسلمين، بل يخترع لبعضهم الاتهامات اختراعا كما رأينا فى حالة الشيبانى المسكين!

أيا ما يكن الأمر فإن ما قاله ابن سلام، وهو أكثر المؤلفين العرب القدماء شمولا وتفصيلا فى الحديث عن النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى، لا يُعَدّ شيئا إلى جانب ما كتبه المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث فى بحثه الذى نشره فى عدد يوليه **1925**م من المجلة الآسيوية الملكية بعنوان "**The Origins of Arabic Poetry**"، والذى انقض فيه على الشعر الجاهلى ينفيه كله نفيا باتا لا يقبل نقضا ولا إبراما، ويتهم العلماء العرب فى العصر العباسى بأنهم قد صنعوا ذلك الشعر صناعة ولفقوا له أسماء شعراء فوق البيعة. وجاء على إثره طه حسين فردد مقولته تلك العجيبة حَذْوَك النعل بالنعل، اللهم إلا بعض الخيوط الرفيعة التى لا تُذْكَر، إذ كل ما هنالك أنه، فى الوقت الذى يزعم فيه مرجليوث أن "كل" الشعر الجاهلى منحول زائف، فإن طه حسين يحاول أن يبدو مستقلا عن متبوعه فيقول: "جُلّه، إن لم يكن كله". أما فيما عدا ذلك فقد أخذ طه حسين من المستشرق البريطانى الموتور أدلته واتجاه بحثه. وعبثا يحاول أنصار طه حسين تبرئته والادعاء بأنه لم يأخذ شيئا من مرجليوث، رغم أن الدلائل

والشواهد جميعها تنطق بأقوى لسان بأنه إنما أغار على بحث مرجليوث إغارة شاملة، وإن وشّاه ببعض التزاويق والحذلقات التى ظن أنها يمكن أن تغطى على سرقته. بل إن مرجليوث نفسه قد اشترك فى اللعبة مدافعا عن ناهب فكرته زاعما أن البحثين قد صدرا تقريبا فى وقت واحد، بينما يفصل بينهما عشرة أشهر كاملة، كما أن طه حسين فى كل ما كتب قبل ذلك التاريخ من مقالاتٍ وكُتُبٍ كان يتحدث عن شعر الجاهلية حديث المطمئن له تمام الاطمئنان. بل إنه فى آخر ما كتب فى هذا الموضوع قبل مرجليوث، وكان ذلك فى الفصل الأول من كتابه: "قادة الفكر"، الذى سبق صدوره صدور بحث مرجليوث بشهرين تقريبا (فى إبريل **1925**م على وجه التحديد)، قد جعل من الجاهلية وأشعارها أساسًا لحضارة الإسلام، مؤكدا أنه لولا هذه الأشعار وأصحابها ما كان الخلفاء والعلماء والقواد المسلمون. وقد ألحَّ على هذه الفكرة إلحاحًا كبيرًا، فى الوقت الذى ذكر معها شكَّ بعض الباحثين الأوربيين المحدَثين فى وجود هوميروس. وهذا نص عبارته: "عَلاَمَ تقوم الحياة العربية فى بداوة العرب وأول عهدهم بالإسلام؟ على الشعر!... هل كانت توجَد الحضارة الإسلامية التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توجَد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى

وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟" (قادة الفكر/ ط9/ دار المعارف بمصر/ 10- 11).
لكنه ما إن ظهر بحث مرجليوث ووصل إلى أيدى الباحثين والعلماء فى مصر حتى رأيناه ينتكس على رأسه وينقلب مائة وثمانين درجة مرددا عكس ما كان يردده طوال تلك السنين التى أربت على الخمس عشرة سنة منذ أول مقال وجدتُه يتناول فيه الكلام عن الشعر الجاهلى كما وضّحتُ فى بحث لى كتبتُه منذ أكثر من سبع عشرة سنة ونشرته على المشباك منذ عدة سنوات بعنوان "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وقد عقدتُ لبَحْثَىْ طه حسين ومرجليوث دراسة مستفيضة قارنت فيها بينهما وانتهيت إلى أن الدكتور طه لم يأت بشىء أساسى غير ما قاله المستشرق البريطانى، وهذه الدراسة متاحة لمن يريدها فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين": فكلاهما ينفى الشعر الجاهلى كله، وإن تظاهر طه حسين بأن من الممكن أن يكون بعض ذلك الشعر صحيحا. لكنها صحة نظرية لأنه فى ذات الوقت يحرص على إثارة الريبة فى ذلك الشعر جميعه متحججا بأنه يجرى فى ذلك على الشك المنهجى الذى يُنْسَب للفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، وهو ما بينت أنه لا أساس له من الصحة، إذ إن طه

حسين لم يفهم تلك الفلسفة ولا نجح فى تطبيقها على موضوعه، فقد دخل الساحة وفى ذهنه التشكيك فى الشعر الجاهلى لا لشىء إلا لأن مرجليوث قد شكك فيه، فكان لا بد له بدوره من الشك والتشكيك فى كل ما يتعلق بذلك الشعر كأنه صدى صوت المستشرق البريطانى أو بُوقُ فَمِه، مع الاطمئنان فى نفس الوقت إلى كل نص آخر ما دام يمكن الالتواء به لخدمة فكرته التى سرقها من مرجليوث بمباركة صاحبها كما رأينا. ولو كان يفهم فعلا ذلك الشك المنهجى، أو على الأقل: لو كان مخلصًا وجادًّا فى تطبيقه على بحثه، لوقف من كل النصوص التى بين يديه موقف الاحتراز والارتياب إلى أن يظهر له أنها تستحق الاطمئنان حقا.

كما أن كليهما يهاجم الرواة الشفويين الذين يقول مؤرخو الأدب العربى بوجه عام إنهم هم الذين حفظوا للأجيال التالية أشعار الجاهلية، ويشكك فى مقدرتهم على أداء تلك المهمة. وفى الوقت ذاته ينفى كلاهما أن يكون العرب فى ذلك الوقت على معرفة بالكتابة بحيث يستطيعون أن يسجلوا ذلك الشعر لو كان له فعلا وجود، كى يحفظوه من الضياع. وبالمثل فكل منهما يعتمد فى نفيه لذلك الشعر على اختفاء اللهجات القبلية من قصائده ومجيئه كله فى قالب فصيح مما يشير إلى أن العرب كانوا ينظمون شعرهم قبل الإسلام بلغة واحدة هى

اللغة الفصحى، وهذا ما يرفضه كلاهما ويرى أن الفصحى قبل الإسلام لم يكن لها وجود. كما يعتمد كل منهما على خلوّ ذلك الشعر من الموضوعات الدينية، اللهم إلا ما فيه من بعض العقائد والشعائر الإسلامية، وهو ما يدل على أنه إنما صُنِع بعد الإسلام صُنْعًا (انظر د. إبراهيم عوض/ معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين/ مطبعة الفجر الجديد/ القاهرة/ 1987م/ 56- 77).

ومع هذا كله يأتى أحمد عبد المعطى حجازى فيفسر شك طه حسين فى الشعر الجاهلى على النحو التالى الذى لا أفهم كيف توصل إليه: "وإذا كان الرواة العرب ينسبون القصائد المعلقات لشعراءَ أفرادٍ كامرئ القيس وطَرَفة بن العبد وعنترة فقد ذهب عميد الأدب إلي أن الشعر الجاهلي منحول، أو هو بعبارة أدق نتاج جماعي يصور حياة الجماعة العربية البدوية ويجسد أخلاقها ويعبر عن نظرتها الخاصة للوجود بلغة طقسية قريبة من لغة الشعائر الدينية التي تصبح فيها الجماعة كيانا واحدا يتوحد فيه الأفراد وتتصل الأجيال"، وهو كلام لم يَدُرْ فى خاطر طه حسين ولا حتى فى الأحلام! إنما هو من أوهام حجازى المضحكة! (انظر مقاله فى "أهرام" الأربعاء 11 جمادى الأولى 1427هـ- 7 يونيه 2006م بعنوان "الشعر في حياتنا – الشعر ليس امتيازا خاصا").

ويجد القارئ ردا مفصلا وتفنيدا تاما لكل ما هَرَف به مرجليوث فى الدراسة المطولة التى ألحقتها بترجمتى لبحث ذلك المستشرق (ديفيد صمويل مرجليوث/ أصول الشعر العربى/ ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض/ ط2/ دار الفكر العربى/ **1421**هـ- **2000**م/ **115- 162**). وفى تلك الدراسة بينت أن دعوى مرجليوث القائلة بأن الشعر الجاهلى لم يكن له وجود وأن العرب لم يعرفوا نظم الشعر قبل العصر الأموى هى دعوى متهافتة، ويكفى أن نقرأ فى ذلك الشعر الأموى نفسه الذى لا يشك فيه مرجليوث لحيظةً إشاراتٍ متكررةً إلى شعراء الجاهلية بوصفهم المثل الأعلى لشعراء العصر الأموى، علاوة على حديث القرآن الكريم المتكرر عن الشعر والشعراء، وهو الحديث الذى لا يمكن أن يكون معناه الكهانة والكهان كما يزعم مرجليوث على غير أساس كى ينفى معرفة العرب للشعر فى ذلك الوقت، إذ تحديت أى إنسان أن يأتينا بأى نص قديم يقول إن كلمة "الشعراء" فى ذلك الوقت كانت تعنى "الكهان". علاوة على أن وقائع التاريخ ورواياته تقول إن الشعراء كانوا موجودين بكل يقين قبل الإسلام وفى عصر الرسول عليه السلام على عكس ما يريد مرجليوث منا أن نقتنع. وبالمناسبة فقد سبقه كليمان هوار فربط على نحوٍ ما بين الشاعر من جهة والكاهن والساحر من

جهـــة أخـــرى (انظـــر: A History of Arabic Literature, PP.7-8). ثم يزيد الطينَ بِلّةً أن يـــردد أحمـــد حسن الزيات هذا السخف، وأن يكون ترديـــده لـــه فـــوق ذلـــك ترديد الواثق المطمئن الذى لا يرى فى الأمـــر أيـــة غرابـــة. بـــل إن الطريقة التى ردده بها لَتُوهِم من لا يعرف خبيئـــة الأمـــر أن هـــذا الكلام هو رأيه هو، توصَّل إليه من تلقـــاء نفـــسه. وفـــضلا عـــن هذا فإنه لم يقدم لنا ما يدل على صحة مـــا يقـــول (انظـــر كتابـــه: "تـــاريخ الأدب العـــربى"/ 28- 29). وعـــودةً إلى مرجليـــوث نقول إنه لمن العجيب أن يأتى باحث فى الـــشعر الجـــاهلى هـــو د. كريم الوائلى فيـــزعم أن المستـــشرق البريطـــانى لا ينكـــر وجـــود ذلك الشعر، بل يؤكد أنه كان موجودا، وكـــل مـــا هنالـــك أنـــه يشك فى الطريقة التى وصل بها إلينـــا، وهـــو مـــا يقلـــب كـــلام مرجليوث رأسا على عقـــب (انظـــر الفـــصل المـــسمى: "توثيـــق الشعر الجاهلى" من كتابه: "الشعر الجـــاهلي- قـــضاياه وظـــواهره الفنية" المنشور على المـــشباك). ولا أدرى مـــن أيـــن لـــه بـــذلك الفهم الغريب! أما مسألة اللهجات الـــتى يطـــنطن بهـــا كـــل مـــن مرجليوث وتابعه المصرى المتفـــانى فى تعقـــب خطواتـــه الطائـــشة الهائشة الفائشة فيكفى هنـــا فى إدحـــاض مـــا زعمـــاه بـــشأنها أن نقول إن القرآن قد ذكر فى أكثر من آية أنه نـــزل بلـــسان عـــربى، لا بلهجة قريش أو الحجاز مثلا، مما يبرهن أصـــلب برهـــان علـــى

أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب جميعا بخلاف ما ادعاه الاثنان بهتانًا ومَيْنًا من أن اللغة العربية لم تصبح لسانا لمن نسميهم بـ"العرب" إلا بعد قيام الدولة الإسلامية بدءا من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أننا لم نسمع بتاتا أن العرب فى الجاهلية أو قبل قيام الدولة الجديدة بعد ذلك فى عصر المبعث كانوا يحتاجون إلى تراجمة بين بعضهم وبعض أو قامت عقبة تحول دون تفاهمهم. ثم إننا ما زلنا حتى الآن نستعمل فى حياتنا اليومية لهجات متعددة تختلف عن الفصحى فى أشياء ليست بالهينة، لكننا حين نكتب أو نبدع نترك عادةً هذه اللهجات وراء ظهورنا ونلجأ إلى المستوى الفصيح، فما المشكلة فى هذا؟ بل إنى لأذهب إلى عكس ما يقول به كثير من الباحثين من أن العرب قبل الإسلام بقليل من الوقت نسبيا قد انتهوْا إلى اصطناع لهجة قريش فى إبداعاتهم واتخاذها من ثم لغة أدبية لهم جميعا، إذ أرى أن الفصحى كانت موجودة منذ زمن طويل ينحو الخطباء والشعراء منهم نحوها تاركين عندئذ لهجاتهم المختلفة التى كانوا يخصصونها لموضوعات الحياة العادية كما هو الحال فى كل اللغات، وإلا فلو أخذنا بنظرية ارتقاء لهجة قريش عشية بزوغ الإسلام إلى احتلال موقع اللغة القومية للعرب كلهم لكان معنى هذا أن العرب قبل ذلك كانوا يصطنعون لغات مختلفة بعدد قبائلهم، وهو ما يقتضى أن كل

قبيلة منهم كانت تمثل دولة مستقلة لها حدودها وقوميتها بحيث لا تتداخل مع أية قبيلة أخرى. وأين ذلك، وكيف، وهم لم يكونوا يستقرون فى موضع واحد قط، بل كانوا دائمى السعى وراء العشب والماء طول العام، والاختلاط من ثم فى كل أرجاء البادية؟ أو أنهم كانت لهم لغة أخرى غير العربية يستعملون فى أمورهم المعيشية لهجاتها المختلفة، تلك اللهجات التى أخذت لهجةُ قريشٍ منها موقعَ الصدارة قرب مجىء الإسلام وأضحت بذلك لغتهم القومية بدلا من لغتهم الأولى. فهل كان للعرب لغة أخرى غير هذه التى بين أيدينا؟ فما هى تلك اللغة يا ترى؟ وما اسمها؟ وما الدليل على وجودها؟ وفوق هذا فإن أيا من مؤرخيهم أو خطبائهم أو شعرائهم لم يتحدث فى هذا الموضوع بتاتا، بل لم يشر إليه أى باحث مجرد إشارة.

وتبقى مسألة الدين، وفى الشعر الجاهلى إشارات متكررة إلى عدد من مظاهره وشعائره وقتذاك. وأقصى ما قد يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن الشعر الجاهلى يخلو من القول المفصل فى أمور الدين، وهو ما يمكن أن يفسَّر بأن كثيرا من ذلك الشعر قد ضاع وأن المسلمين لم يجدوا فى أنفسهم ميلا إلى حفظه وترديده. وينبغى ألا ننسى أيضا أن خطب العرب وأمثالهم تخلو مثل الشعر، وربما أكثر من الشعر، من الحديث فى أمور الدين. أما القول بأن ذلك دليل على أنه مصنوع فى

الإسلام فنتيجة غير لازمة ولا مسلَّمة، فضلا عن أن القول بها يستلزم أن تكون أمة العرب والمسلمين كلها على بكرة أبيها أمة من المزيِّفين والمتواطئين معهم، أو أمة من الكذابين الوضّاعين من جهة، ومن الأغبياء المغفلين من جهة أخرى حتى ليجوز أن يخترع المخترعون منها شعر عصر كامل وشعراءه فجأة، وكأن الأمة نامت ذات ليلة دون أن يكون هناك شعر جاهلى ولا شعراء جاهليون ثم استيقظت من مرقدها فإذا بين يديها ذلك الشعر وشعراؤه، ورغم هذا لا يجد هؤلاء المخترعون المزيِّفون من يعقِّب على صنيعهم. ثم إن العرب قبل ذلك كله كانوا يعتمدون على ذاكرتهم اعتمادا أساسيا حتى أضحت الذاكرة العربية من كثرة الاستعمال والثقة بها حادة الرهافة. أما الاتهامات التى وُجِّهت إلى بعض الرواة فمن الممكن أن تكون كلاما مرسلا، بل لقد وجدنا بعضها لا يقوم على أساس، أو لا يقوم على الأقل على أساس متين. كما أن قول القرآن الكريم فى خطابه للكافرين: "أم لكم كتاب فيه تدرسون* إن لكم فيه لَمَا تَخَيَّرون؟" (القلم/ 37) ليس معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئا عن القراءة والكتابة حسبما زعم مرجليوث بجهله وبهلوانيته، بل الكلام فيه موجه إلى القرشيين وحدهم لا إلى العرب كلهم، إذ كان أهل مكة يسخرون من الجنة ومن المؤمنين بها قائلين إنه إن كان ثمة جنة

ونعيم فلسوف يتمتعون رغم ذلك بما فيها من خيرات ولذائذ، فأنكر عليهم القرآن قولهم ذلك متسائلا: أَوَفِى أيديهم كتاب سماوى يقول بأنهم يوم القيامة سيتمتعون كما يزعمون بنعيم الجنة كالمؤمنين المتقين؟ ولقد أثبت الباحثون من عرب ومستشرقين معرفة العرب للكتابة والقراءة ولجوءهم إليها فى عملية تسجيل الشعر فى غير قليل من الأحيان (انظر فى ذلك مقال كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ **292- 304**، والفصل المطول المستفيض الذى عقده لذلك الموضوع ودعَمه بالشواهد الكثيرة والأدلة القوية د. ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم: "مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية"/ دار المعارف/ **1956**م)... إلخ.

وقد انتهى الأمر بدراستَىْ مرجليوث وطه حسين عند الباحثين المحترمين إلى الانزواء فى دائرة النبذ والإهمال حتى فى نطاق المستشرقين أنفسهم الذين انقض بعضهم على بحث مرجليوث المتهافت السخيف فمزقوا أوصاله وأبرزوا ما فيه من تفكك ومجافاة للمنطق وأصول البحث العلمى، وهو نفس المصير الذى لاقاه كتاب طه حسين رغم القعقعات التى يحاول بعض من يُحْسَبون على الثقافة العربية أن يُحْدِثوها بين الحين

والحين تلميعا له جاهلين أن ذلك الكتاب قد مات وشبع موتا منذ ثمانين عاما إثر تتالى الضربات القاضية عليه من أقلام العلماء الأثبات التى كشفت عواره وفضحت ما فيه من خَوَرٍ فكرىّ وركاكةٍ علمية وتسرعٍ أهوجَ إلى نتائج مقررة سلفا لا تؤدى إليها المقدمات التى ساقها صاحبه، وأن ما مات لا يعود للحياة إلا يوم الدين. وبالمناسبة فكثير من النصوص الشعرية التى شكك فيها طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى" ثم فى خَلَفِه: "فى الأدب الجاهلى" ليست نصوصا جاهلية بل إسلامية، وهذا من أعجب العجب! على أن قولنا إن المستشرقين الآخرين قد هاجموا نظرية مرجليوث الرعناء فى نفى الشعر الجاهلى كله لا يعنى أنهم لا يشكون أى شك فى ذلك الشعر. إنهم يشكون، بَيْدَ أن شكهم لا ينسحب على ذلك الشعر كله، بل على أشياء فيه لا تجعلهم يطمئنون تمام الاطمئنان إلى ما وصل إلينا منه رغم غربلة علمائنا القدامى لنصوصه، بل رغم تنطُّس هؤلاء العلماء فى تلك الغربلة أحيانا أكثر مما ينبغى كما أشرت إلى بعض ذلك فيما مضى. ويستطيع القارئ أن يقرأ عددا من أبحاث هؤلاء المستشرقين فى هذا المجال فى الكتاب الذى صدر للدكتور عبد الرحمن بدوى للمرة الأولى عام **1979**م عن دار العلم للملايين ببيروت بعنوان "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" والذى يضم ترجمة

عشرة من أبحاث كبارهم فى ذلك الموضوع مثل نيلدكه وشبرنجر وبلاشير، وقد مرت الإشارة إليه قبل قليل.

ولعل أهم ما تناولوه ووقفوا عنده مليًّا الطريقةُ التى كان يُرْوَى بها الشعر الجاهلى عادة، وهى الطريقة الشفوية، إذ فسروا فى ضوئها ما لوحظ على نصوص ذلك الشعر من اختلاف فى روايتها تقديما وتأخيرا وتغييرا لكلمة أو عبارة بكلمة أو عبارة أخرى، أو اختلافٍ فى نسبة نص معين إلى أكثر من شاعر، أو تداخُل نَصٍّ لشاعرٍ ما مع نص لشاعر آخر يشترك معه فى الوزن والقافية ويقترب منه فى الموضوع الذى يعالجه... على أساس أن الذاكرة البشرية مهما كانت قوتها لا بد أن يصيبها الوهن والنسيان من حين لآخر، وهو ما يوافق ما قاله هاملتون جيب فى هذا الصدد فى كتابه: "Arabic Literature" (Oxford University Press, 1974, P.20). ولا شك أن فى بعض ما قالوه فى هذا السبيل شيئا من الوجاهة، إلا أنه لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن اختلاف روايات الشعر الجاهلى لا يرجع كله إلى خيانة الذاكرة بالضرورة، بل ربما وردت أكثر من رواية لكثير من نصوصه عن الشاعر نفسه تبعا لاختلاف الأزمنة والظروف التى كان الشاعر يلقى فيها على الجمهور قصائده، إذ من المعروف أن المبدع لا يكف عن معاودة النظر فى إبداعاته

والعمل على صقلها كلما واتته الفرصة. وأية فرصة أعظم من أن أشعاره لم يكن يتم تثبيتها كتابة إلا فى أحيان قليلة؟ وإذن فالفرصة مفتوحة له على مصراعيها كى يُدْخِل أى تغيير يريده فى الوقت الذى يشاء. وأنا أفعل ذلك فى مقالاتى ودراساتى المنشورة على المشباك ولم تُثَبَّت بَعْدُ على الورق، إذ بإمكانى كلما أعدت نشر ما كنت قد نشرته فى موقع آخر غير الموقع الأول أن أُدْخِل فيه من التغييرات والتصحيحات ما أشاء وبمنتهى السهولة. بل إننا، حتى بعد أن يتم تثبيت نص أى كتاب لنا على الأوراق، نستطيع أن نعيد النظر فيه عند التفكير فى طبعه مرة أخرى. فإذا كان هذا يحدث فى أعمالنا المكتوبة، فما بالنا بإبداعات الشعراء الجاهليين التى لم تكن تُكْتَب فى العادة كما قلنا؟ (انظر فى هذا الصدد دراسة هـ. آلفرت: "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه المذكور/ 41- 86، ودراسة ف. كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى نفس الكتاب/ 292- 304، وبحث جيمس مونرو (James Monroe): "Oral Composition in Pre-Islamic Poetry" المنشور فى "Journal of Arabic Literature"/ 3/ 1972م/ 1- 7، وترجمته

العربية لفضل بن عمار العمارى بعنوان "النظم الشفوى فى الشعر الجاهلى"/ دار الأصالة/ الرياض/ 1407هـ-1987م).

وبطبيعة الحال فإن ضعف الذاكرة وألاعيبها ليست وحدها السبب فيما اعترى الشعر الجاهلى من تغييرات، فلست أحسب أن كل الرواة الذين أدَّوْا إلينا ذلك الشعر كانوا مخلصين أو حريصين على أن يقوموا بواجبهم على النحو المطلوب، لأنهم فى نهاية المطاف بشر من البشر. وعلى دارس الشعر الجاهلى أن ينظر فى كل قصيدة على حدة وألا يرفضها إلا إذا قام فى نفسه من بواعث الشك ما لا يستطيع الرد عليه، كأن تكون القصيدة إسلامية حقا بحيث لا يمكن توجيهها بأى حال، أو أن يكون فيها من اضطراب التاريخ ما لا يستقيم معه أمرها البتّة. ومن يُرِدْ أن يرى كيف طَبَّقْتُ هذا الاختبار فى دراساتى فباستطاعته مراجعة الفصلين الخاصين بذلك من كتابيَّ: "عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية"، و"النابغة الجعدى وشعره". كذلك على الدارس أن يحصر شكه فيما يقبل الشك منها فلا يعمم ذلك الشك دون مسوّغ. وهناك قصائد منسوبة إلى آدم مثلا، ولا أظن عاقلا يصدق أن آدم كان يتكلم فى ذلك الزمن الموغل فى القدم بلسان العرب. صحيح أننا لا نعرف متى بدأ ظهور اللغة العربية ولا متى

أضحت لغة لنظم الشعر، إلا أن هذا لا يعنى أن نصدق الشعر المنسوب لأبى البشر بتلك اللغة، فاللغات لا تظهر كاملة مرة واحدة، وآدم إنما يمثل أول فرد فى أول جيل من أجيال البشر على الأرض، فلا يعقل إذن أن تظهر العربية على يديه كاملة الفن وطرائق التعبير وكأنها نزلت من السماء لا ينقصها شىء. إن هذا ضد طبيعة الحياة كما نعرفها، وذلك إن صدّقنا أن ذلك الجد البعيد كان يتحدث لغة من اللغات التى نعرفها أصلا!

أعود فأُبَلْوِر موقفى من قضية النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى فأقول إن هناك بلا شك شعرا جاهليا منحولا، إلا أننى لا أتوسع فى ذلك ولا حتى توسع ابن سلام، الذى يبدو (بالقياس لبعض الباحثين المحدثين) من المعتدلين إلى حد بعيد. ذلك أن الأسباب التى استند إليها الباحثون فى الشك فى الشعر الجاهلى ليست دائما بالأسباب القوية التى تجعلنى أتشكك فى هذا الشعر على ذلك النطاق الواسع الذى يريده طه حسين مثلا، أو حتى على النطاق الذى كان يتحرك فيه ابن سلام حسبما وضحتُ فيما سبق من هذا الفصل. ومن هنا فإنى أميل إلى القول بأن باحثا كبيرا كالدكتور شوقى ضيف لم يقدم دائما المسوغات الكافية فى رفض عدد من قصائد الشعر الجاهلى، وأن السبب فى ذلك هو امتلاء نفسه بهاجس النحل

والانتحال رغم وقوفه فى ذات الوقت فى وجه من يريــدون إثــارة عواصف الارتياب وأعاصيره فى ذلك الشعر: فمــثلا نــراه، رحمــه الله، يشك شكا شديدا فى قصيدة النابغة الــذبيانى: "بانــت ســعاد وأمسى حبلها انجذما" لأنها، كما يقــول، "نــسيب خــالص ولأن بها روحا إسلامية تتصح فى قوله مخاطبا صاحبته:

حيّاكِ ربى، فإنا لا يحل لنــــا لهو النساء، وإن الدين قد عَزَما
مشمِّريــن على خُوصٍ مزنَّمةٍ نرجو الإله ونرجو البر والطَّعَما

رغم أنها من رواية الأصمعى كما ذكر هــو نفــسه (العــصر الجاهلى/ **278**). ولست أشاطر الأستاذ الدكتور شــكه الــشديد فى القصيدة، فإن مجيئها نــسيبا خالــصا لا يُعَــدّ مــسوِّغا لــرفض نسبتها إلى الشاعر ضربة لازب، وإلا فهل عنــده دليــل علــى أن النابغة لا يمكن أن يقــول شــعرا خالــصا فى النــسيب؟ كمــا أن البيتين اللذين يــصفهما بأنهمــا ذوا روح إســلامية لا يتّــسمان فى حقيقة الأمر بشىء إسلامى حَصْرًا، إذ الكلام فيهمــا عــن الإلــه والدين بعامة، وهو كلام يصدق على كثير مــن الأديــان. وحــتى لو كانا إسلاميين حقا وصدقا، فإن ذلك لــيس بالــسبب الكــافى لرفض القصيدة كلها، بل لرفض البيتين فحــسب. وهــو نفــسه لم يردّ بيتين لزهير بــن أبى ســلمى يــؤمن فيهمــا بــاليوم الآخــر والحساب ويؤكد معرفــة الله تعــالى بغيــب النفــوس واطلاعــه المطلق على كل شىء (المرجع السابق/ **303**)، فهــذا مــن هــذا. ولا ننس أن النابغة كان يتردد علــى بــلاط الحــيرة والغــساسنة،

وكان ملوكهما نصارى. بل إن فى شعره، كما نعرف، كلاما عن بعض الأعياد والاحتفالات النصرانية.

وبالمثل نجد الأستاذ الدكتور ينكر صحة قصيدة الأعشى الدالية التى تقول كتب الأدب إنه كان قد أعدها لمدح الرسول عليه السلام قبل أن تلقاه قريش وتصده عن الذهاب إليه وإعلان الإيمان به، والتى تتضمن بعض التعاليم الإسلامية والعبارات القرآنية، بحجة أنها "لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى"، وأنه لا يمكن أن "يؤمن بتعاليم القرآن على هذا النحو ثم ينصرف عن الرسول وهديه" حسب تعبيره (السابق/ 342). يشير الاستاذ الدكتور إلى ما تحكيه كتب الأدب من أن الأعشى أعد العدة للوفادة على النبى عليه السلام وهو لا يزال فى مكة وجهّز فى مدحه قصيدة يقولها عند لقائه، إلا أن قريشا ما إن علمت بهذا الذى كان ينتويه حتى سارعت بمقابلته وعملت على تنفيره من الدين الجديد وصاحبه، فرجع من طريقه دون أن يفد عليه صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت الحوادث حتى مات ولم يدخل فى الإسلام. لكنْ من قال إن الأعشى كان فى خاطره الانصراف عن الرسول انصرافا نهائيا؟ ربما انصاع لكلام القرشيين ريثما تتاح له فرصة أخرى، أو ربما ضعف أمام ما أعطَوْه من مال فأخذه وانصرف مؤقتا انتظارا لظروف أفضل يستطيع أن يعلن فيها إسلامه دون خوف من

ضغط أو إحراج. والناس ليسوا سواء فى قوة التمسك بما يؤمنون به، ولا كُلّهم على استعداد للبذل والتضحية العنيفة، ولا من طبيعتهم جميعا المسارعة إلى تنفيذ ما ينوون عمله. وعندى أن تفسير موقف الأعشى بذلك أقوى فى الإقناع من إنكار نسبة القصيدة له والقول بأنها منحولة. وثمة أمثلة أخرى كثيرة يسارع فيها الدكتور شوقى إلى إعلان شكه فى هذه القصيدة أو تلك دون أن تكون التسويغات التى يسوقها مُرْضِيةً للعقل، ولكنى أكتفى بهذين المثلين دليلا على أنه، ككثير من الباحثين العرب، قد امتلأ قلبه بهاجس النحل والانتحال أكثر مما يصح رغم أنه قد رد هجوم مرجليوث وطه حسين وبلاشير على الشعر الجاهلى وبيّن ما فى ذلك الهجوم من مغالاة لا تستقيم ومنطق الأشياء (السابق/ **166- 175**)، وإن لم يَعْنِ هذا بطبيعة الحال أن كل القصائد التى ردها أو أبدى شكه فيها لا تستحق هذا الشك أو ذلك الرد. خلاصة القول إن فى الشعر الجاهلى شعرًا صحيحًا، وهو الأغلبية الكبيرة، وفيه إلى جانب هذا شعر منحول أيضا، إلا أن المنحول ليس بالكثرة ولا الاتساع الذى توحى به عادةً كتاباتُ من كتبوا فى ذلك الموضوع.

هذا، ويلفت النظر فى الشعر الجاهلى أن عدد شعرائه كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهرة كامرئ القيس وعنترة

والأعشى وزُهَيْر بن أبى سُــلْمَى والنابغــة الــذُّبْيَانى وعمــرو بــن كلثوم وطَرَفة بن العبد وزرقاء اليمامــة، ومنــهم مــن لا يحظَــوْن بشىء من الشهرة كأبى حذيفة وأعصر بن ســعد وأوس الهجيمــى وجناب بن منقذ وســبيع التميمــى وأرطــأة الفــزارى وابنــة أبى الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمــل الــسلمية وزهــراء الكلابيــة وسُعْدَى الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قَوَامًا مثــل عَبِيــد بــن الأبرص والمهلهِل بن ربيعــة وعلقمــة الفحــل والمــرقش الأكــبر ولَقِيط بن يَعْمُر وعروة بن الورد وتأبَّطَ شــرًّا والــشَّنْفَرَى وعمــرو بن قميئة وسلامة بن جندل وعبد يَغُــوث الحــارثى وكعــب بــن الأشرف النَّضَرِىّ وجليلة بنــت مُــرَّة وليلــى العفيفــة. ومنــهم أصحاب المطوَّلات، ومنهم من لم يــصلنا عنــهم إلا مقطوعــاتٌ أو نُتَفٌ أو أبياتٌ مفــردة. ومنــهم كــذلك أصــحاب الــدواوين، ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعــات، ومنــهم مــن ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل مــن ذلــك. ومنــهم مــن كــان يَنْظِم فى أناةٍ ورَيْثٍ ويعيد النظر فى مــا ينظمــه قبــل أن يذيعــه فى الناس حتى ليقول ابن قتيبة فى "الشعر والشعراء" إن زهــيرا كــان ينفق فى إبداع القصيدة الواحدة وقتا طــويلا، وإن الحُطَيْئَــة (مــن الشعراء المخضرمين)، وسُوَيْد بن كُرَاع وعَدِىّ بــن الرقــاع (مــن شعراء بنى أمية) كــانوا يتخذونــه مــثلا لهــم يحتــذون طريقتــه وينقّحون شعرهم قبل أن يــذيعوه تنقيحــا شــديدا كمــا كــان

يصنع. ومنهم فى المقابل من لم يكن يعكف كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يميلون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسَمَّوْن: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"... وهكذا. ومن أولئك الشعراء من كان ملكا أو أميرا أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهلهل والأفوه الأودى وأبى قيس بن الأسلت وحاتم الطائى، ومن كان فارسا كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأُحَيْحَة بن الجلاح، ومن كان حكيما كأميّة بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكا كتأبَّطَ شَرًّا والسُّلَيْك بن السُّلَكة، ومن كان عبدا كعنترة بن شداد وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس (وهو جاهلى إسلامى)، ومن كان يتخذ من المديح مرتزَقا كالنابغة والأعشى والمنخَّل اليشكرى وأبى زبيد الطائى...

ولم يترك شعراء الجاهلية موضوعا من الموضوعات إلا ونظموا فيه، فشَعَروا فى المدح والفخر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف والخمر والنسيب والغزل والأطلال والرحلة والقصة والتمرد على أعراف القبيلة والتجارب الشخصية والحكمة ومفارقات الحياة. أى أنهم قد نظموا أشعارهم فى الأمور الاجتماعية والشخصية على السواء، وذلك

على عكس ما يردده بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلى كان شعرا غَيْرِيًّا لا يعدو الشاعر فيه أن يكون ناطقا بلسان الجماعة، وكأن شخصيته قد أُلْغِيَتْ إلغاءً (ممن تناول هذه المسألة وقال بذلك القول المستشرق البريطانى جب فى كتابه: "Arabic Literature", P.28، إذ زعم أن غالبية شعراء الجاهلية كانوا يعبرون عن الأفكار والمشاعر الجماعية أكثر مما يعبرون عن شخصياتهم الفردية. وقد ردد كذلك هذا القول د. عبده بدوى فى كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى"/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ 1988م/ 39). وعلى هذا فقد صور لنا شعراء الجاهلية فى قصائدهم ومقطوعاتهم المجتمع العربى فى زمنهم، فذكروا الأماكن التى كانوا يترددون بينها أو يُلِمّون بها من مدن أو عيون ماء أو جبال وتلال أو بوادٍ، كما أوردوا أسماء قبائلهم ومشاهير الرجال بينهم، سواء كانت شهرتهم بسبب فروسيتهم وشجاعتهم فى الحروب أو بسبب كرمهم وأَرْيَحِيَّتهم أو بسبب بخلهم أو بسبب استبدادهم أو بسبب حكمتهم أو بسبب ما اشتهروا به من شعر أو خُطَب... وبالمثل تحدثوا عن كثير من الأحداث المهمة فى تاريخهم القريب والبعيد، وتناولوا بالذكر أنسابهم، وأوردوا بعض طقوس دينهم وأسماء أصنامهم، ورسموا كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومثلهم العليا، وتحدثوا

عن مناخ بلادهم من حَرّ وبَرْد وبَرَد ومطر وسيول وريح وغمام، ووصفوا أشجارها ونباتاتها وينابيع مياهها وحيواناتها وطيورها الوحشية والإنسية، وقدموا لنا كثيرا من التفاصيل عن الأوهام التى كانوا يتوهمونها والمهن التى كانوا يمتهنونها والهوايات التى كانوا يمارسونها ويقضون بها وقت فراغهم من حجامة وكهانة وزراعة ورعى وصيد وحدادة وتجارة ولعب ولهو، كما تتضمن أشعارهم كثيرا جدا من أسماء الأعلام لديهم ذكرانا وإناثا.

وهذا يجرّنا إلى ما ادعاه د. طه حسين تسرعًا ودون تثبُّت فى كتابه: "فى الأدب الجاهلى" من أن الشعر العربى المنسوب إلى الجاهلية لا يصور الحياة العربية قبل الإسلام، وأننا إذا أردنا التماس تلك الحياة فعلينا بالقرآن، أما الشعر الجاهلى فهو شعر مزيف موضوع بعد الإسلام وَضْعًا، ومن ثم فإنه لا يفيدنا بشىء فى هذا المجال (فى الأدب الجاهلى/ **70- 80**، وفى مواضع أخرى متناثرة من الكتاب). إنه يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يخلو من الحديث عن النصرانية، مع أن هناك كلاما متكررا عن الرهبان والصلبان وبعض المناسبات النصرانية مما ينقض كلامه نقضا. كذلك يزعم الدكتور طه أن شعراء الجاهلية سكتوا فلم يذكروا الروم والفرس بشىء، بينما هناك مثلا قصيدة امرئ القيس الرائية التى يتحدث فيها عن

رحلته إلى القسطنطينية وبعض المواطن التى مر بها هو ورفيقه، وكذلك قصيدة لقيط بن يعمر التى يحذر فيها قومه والعرب كلهم مما يدبره لهم كسرى من جيش يجهزه لغزو بلادهم واستذلالهم، وقصيدة الأعشى التى يتغنى فيها بانتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار. وعلى نفس الشاكلة يمضى طه حسين فيقول إن ما نظن أنه شعر جاهلى لم يتناول المشكلة الطبقية، فى الوقت الذى يتضمن هذا الشعر فعلا صفحات كثيرة سطرها الشعراء الصعاليك، وهم الشعراء الذين خرجوا على قبائلهم وكونوا فى منقطعات البادية عصابات تغير على القوافل والأغنياء ثم يوزعون ما يحرزونه بهذه الطريقة على أنفسهم بالسويّة. كما أن تمدُّح الشعراء الأغنياء آنذاك بما كانوا يُسْدُونه إلى الفقراء والبائسين من حولهم هو لون آخر من تصوير هذا الجانب الذى يزعم طه حسين أننا نفتقده فى شعر الجاهلية. أما أن ذلك الشعر لا يُفِيض فى القول إلا حين يتناول البادية، بخلاف حياة المدن التى لم يمسها إلا مَسًّا رفيقا كما يقول، فهذا أمر طبيعى. ذلك أن بلاد العرب أوانذاك كانت تغلب عليها البداوة غلبة عنيفة، إذ إن معظم أرضها، كما هو معروف، صحراء قاحلة. وثمة دراسات كثيرة يتناول كل منها هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الجاهلية بما يكذّب مقالة طه حسين، الذى كان لا يزال حديث عهد

بالعودة من فرنسا حين كتب ما كتــب فى هــذه القــضية، فكــان يظن أنه جمع العلم من كــل أطرافــه رغــم أنــه لم يتخــصص فى فرنسا فى الأدب العربى، بل فى تاريخ الإغريق والرومــان، عــلاوة على أن الدكتوريّة التى أحرزها هناك إنما هــى دكتوريــة الــسلك الثالث لا دكتورية الدولة التى تُعَدّ دكتوريّة حقيقية كاملة.

ومن هذه الدراسات تلك الأبحاث الرصــينة الــتى رد بهــا العلماء الكبار على طه حسين لدى صــدور كتابــه الخــديج: "فى الشعر الجاهلى" من أمثال مصطفى صادق الرافعى ومحمــد لطفــى جمعة ومحمد فريد وجدى ومحمــد الخــضر حــسين ومحمــد أحمــد الغمراوى، وكذلك سلسلة المقالات الــتى كتبــها د. أحمــد أمــين فى مجلة "الثقافة" تحــت عنــوان "جنايــة الأدب الجــاهلى علــى الأدب العربى" وأكــد فيهــا أن الأدب الجــاهلى هــو فى الواقــع صورة صادقة لحياة العرب فى الجاهليــة. ومنــها أيــضا الفــصول التى خصصها كل من الــسباعى بيــومى ود. شــوقى ضــيف ود. على الجندى، وعبد الله عبــد الجبــار مــع محمــد عبــد المــنعم خفاجى، لهذا الموضوع فيما وضــعوه مــن كتــب عــن العــصر الجاهلى، وكتابا د. أحمد الحــوفى عــن الحيــاة والمــرأة فى شــعر الجاهلية، وكتاب د. يوسف خليــف عــن شــعراء الــصعاليك فى العصر الجاهلى، وكتاب د. سيد حنفــى حــسنين عــن الفروســية فى ذلك العصر أيضا، فضلا عن الكتب والفــصول الأخــرى الــتى

خصصها أصحابها للحديث عن الحكمة أو الحرب أو النسيب أو الحيوان أو النجوم أو الأنواء أو الخمر أو السُّود فى الشعر الجاهلى... إلخ. وقبل ذلك لدينا كتاب "الأصنام" لابن الكلبى، وهو يضم عددا غير قليل من الشواهد الشعرية المتعلقة بالأصنام وبيوتها وعبادة العرب لها، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، الذى يتضمن كثيرا جدا من أخبار العرب فى الجاهلية ووقائعهم وحكاياتهم مرفقةً بما يرتبط بها ويصورها من أشعار. وفى "معجم البلدان" وأشباهه من المعاجم ثروة شعرية هائلة تفوق الحصر فى وصف المواطن المختلفة فى جزيرة العرب من وديان وجبال وشعاب ومياه وقرى وذِكْر أسمائها وتحديد مواقعها. وصدق جرجى زيدان إذ يقول إن عرب الجاهلية قد صوروا "عاداتهم وحيواناتهم وأدواتهم فى أشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم. وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الأمم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث فى شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحوالهم. ولذلك قال ابن خلدون إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلٌ يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم. ونزيد على ذلك أنه مستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصنائعهم" (جرجى

زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ دار الهلال/ 1/ 81). وهذا هو نيكلسون يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يفيض بالدراسات الدقيقة التى تتعلق بعالم الحيوان، ومن الممكن وصفه بأنه عبارة عن نقد للحياة والفكر عند العرب قبل الإسلام (انظر كتابه: **A History of Arabic Literature, PP.78- 79**).

ومن القضايا المهمة التى تتعلق بالشعر الجاهلى أيضا بناء القصيدة. ولعل أول من افتتح الكتابة فى هذا الموضوع من مؤرخى الأدب ونقاده هو ابن قتيبة، الذى قال فى كتابه: "الشعر والشعراء": "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الرَّبْع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلةُ العَمَد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَر لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليُمِيل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس لائطٌ بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسببٍ،

وضاربًا فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرامٍ. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النَّصَب والسهر وسُرَى الليل وحَرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكأفاة وهزّه للسَّمَاح وفضّله على الأشباه وصغّر في قدره الجزيل. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعَدَل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِل فيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على مترلٍ عامرٍ أو يبكي عند مَشِيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المترل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يَرِد على المياه العِذَاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جَرَوْا على قطع منابت الشيح والحَنْوة والعَرَارة".

وأول ما ينبغى التنبيه إليه هو أن الملاحظة السابقة ليست من بُنَيّات عقل ابن قتيبة على عكس ما هو شائع، إذ هو مجرد حاكٍ لها كما جاء فى بداية كلامه، وإن كان يُفْهَم من نهاية

النص أن الرأى الذى يقول بأنه لا يحق للمتـــأخر مـــن الـــشعراء أن يخرج على ما قرره السابقون منهم هو رأيه هو. فــإن كـــان الأمـــر كذلك فمعناه أنه قد وقع دون أن يدرى فى شـــىء مـــن التنـــاقض، فقد قال فى مقدمة كتابه ذاك فى ســـياق الحـــديث عـــن الـــشعراء الذين ترجم لهم فيه والأساس الذى اســـتند إليـــه فى الحكـــم علـــى مرتبة كل منهم: "ولم أسلك، فيما ذكرته مـــن شـــعر كـــل شـــاعر مختارًا له، سبيل من قلـــد أو استحـــسن باستحـــسان غـــيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدُّمـــه، وإلى المتـــأخر منـــهم بعين الاحتقار لتأخُّره. بل نظرت بعـــين العـــدل علـــى الفـــريقين، وأعطيت كُلاًّ حظه، ووفّرتُ عليه حقه. فإني رأيـــت مـــن علمائنـــا من يستجيد الشعر السخيف لتقـــدم قائلـــه ويـــضعه في متخيَّـــره، ويرذّل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنـــه قيـــل في زمانـــه أو أنه رأَى قائله! ولم يَقْصِرِ الله العلـــم والـــشعر والبلاغـــة علـــى زمن دون زمن ولا خصّ به قومًـــا دون قـــومٍ، بـــل جعـــل ذلـــك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قـــديم حـــديثًا في عصره، وكل شريفٍ خارجيـــةً في أولـــه. فقـــد كـــان جريـــرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدّون مُحْدَثين، وكـــان أبـــو عمـــرو بن العلاء يقول: لقد كثر هـــذا المـــُحْدَث وحَـــسُن حـــتى لقـــد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عنـــدنا ببعـــد العهـــد منـــهم، وكذلك يكون مَـــنْ بعـــدهم لِمَـــنْ بعـــدنا كـــالخُرَيْمِيّ والعتّـــابي

والحسن بن هانئٍ وأشباههم. فكل من أتى بحـــسَنٍ مـــن قـــول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يَـــضَعْه عنـــدنا تـــأخُّر قائلـــه أو فاعله ولا حداثة سنه. كما أن الـــردىء إذا ورد علينـــا للمتقـــدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شـــرف صـــاحبه ولا تقدمـــه". ومعـــنى هذا أنه لا فضل للمتقدمين من الشعراء على التـــالين لهـــم، فلمـــاذا يحرّم ابن قتيبة على هؤلاء إذن أن يخرجوا على مـــا قـــرره أولئـــك ونهجوا سبيله إذا كان الفريقان موهـــوبين كلاهمـــا ولا يتفاضـــلان بهذا الاعتبار؟ كما أن الحياة لا تعترف بهذا التـــضييق الـــذى يريـــد بعض الناس أن يلزموا أنفسهم وغيرهـــم أيـــضا بـــه، بـــل تتـــسع لألوان كثيرة مختلفة مـــن الأذواق والمعـــايير، وبخاصـــة فى ميـــدان الفنون والآداب. وما دام الله ســـبحانه لم يجعـــل العقـــل والـــذوق والوجدان والإبداع قصرا على قـــوم دون قـــوم ولا علـــى جيـــل دون جيل ولا على أمة دون أمة، فلماذا اشترط ابـــن قتيبـــة علـــى اللاحقين من الشعراء أن يلغـــوا شخـــصياتهم الفنيـــة ويحطبـــوا فى حبل من تقدمهم من نظرائهم؟

على أن الذى يهمنا من هذا النص حقا هـــو مـــا جـــاء فيـــه من أن تلك هى السبيل الـــتى كـــان ينتـــهجها دائمـــا أصـــحاب القصائد، وهو ما لا يوافقـــه الواقـــع، إذ هنـــاك قـــصائد جاهليـــة كثيرة جدا لم يجر فيها ناظموها علـــى هـــذه الخطـــة، بـــل تـــراهم يدخلون فى موضوعهم مباشـــرة، أو يـــستهلون شـــعرهم بـــشىء

آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلا كما فى قول المسيّب بن عَلَس:

كَلِفْتُ بِلَيْلَى خَدِينِ الشبا ب وَعالَجْتُ مِنها زَمانًا خَبَالا

أو الحديث عن فراق الحبيبة لانتقالها مع قبيلتها إلى مترل آخر كما فى قصيدة بشامة بن الغدير التى مطلعها:

إن الخليط أَجَدّ البَيْن فابتكروا لنيّةٍ ثم ما عاجوا وما انتظروا

(وهو ما يمكن تسميته بـ"مقدمة الفراق" أو "المقدمة الفراقية")، أو بالحديث عن السهاد ومراعاة النجوم ومقاساة الأرق والقلق (وهو ما أُطْلِق عليه: "المقدمة السُّهْدِيّة")، ومنه قصيدة النابغة المشهورة: "كِلِينى لهمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصب" وقصيدة عروة بن الورد: "أَرِقْتُ وصُحْبَتي بمَضِيقِ عمقٍ" وقصيدة الممزق العبدى:

أَرِقْتُ فَلَم تَخْدَع بِعَينَيَّ وَسْنَةٌ وَمَن يَلقَ ما لاقَيْتُ لا بُدَّ يَأرَقِ

أو بالرد على عتاب زوجته له على ما يهينه من مال على الفقراء والمساكين مما ترى أن البيت أولى به كما هو الحال فى بعض قصائد حاتم الطائى، أو على تركه بيته وأسرته والانطلاق فى الأرض كما فى بعض أشعار عروة بن الورد، أو على احتفاظه بفرسه رغم حاجة البيت إلى ثمنه كما فى قصيدة ابن المضلّل:

باتَت تَلومُ عَلى ثادِقٍ لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصيانُها

(وهو ما نستطيع أن نَسِمه مثلا بـــ"المقدمـــة العتابيـــة")، أو بوصف الخمر مثلما هو الأمر فى معلقة عمرو بـــن كلثـــوم الـــتى يبدؤها بالحديث عن الخمـــر ثم يخـــرج منـــه إلى الفخـــر بنفـــسه وبقومه والتحدى للملك الحِيرىّ الذى ظن أن بمكنتـــه النيـــل مـــن كرامة الشاعر وأمه فكان فى ذلك حتفـــه الـــوَحِىّ، ثم لا شـــىء فى القصيدة بعد ذلـــك، أو بالتحـــسر علـــى أيـــام الـــشباب الـــتى انصرمت ولم يعد لها من رجوع كما فى قصيدة علقمـــة بـــن عبـــدة التميمى: "طَحَا بكَ قلبٌ فى الحِسَان طَرُوبُ"... وغير ذلـــك مـــن الابتداءات، وإن كان افتتاح القـــصيدة بـــالوقوف علـــى الطلـــل أشهر من غيره من الافتتاحات.

وحتى إذا وقف الشعراء على الأطلال فـــإن كـــثيرا منـــهم لا يعقبون ذلك بالرحلة لا للممـــدوح ولا لأى شـــخص آخـــر، بـــل كثيرا ما لا يكون هناك ممدوح البتة، كما هـــو الوضـــع فى معلقـــة عنترة والملك الضِّلِّيل مثلا. كذلك فكـــثير مـــن هـــذا الـــشعر لا يزيد على أن يكون تصويرا لتجربة ذاتيـــة حقيقيـــة أو متوهَّمـــة لا صلة بينها بتاتا وبين الأغراض الشعرية التقليديـــة ولا البنـــاء الفـــنى الذى تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال، ومـــن ذلـــك بعـــض أشـــعار الشَّنْفَرى التى يصف فيها لقاءه بـــالغول وعراكـــه معهـــا. واضـــحٌ إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المـــديح، بـــل يقـــع فى شعر المديح وفى غيره. وحتى فى شعر المـــديح فإنـــه لا يقـــع عليـــه

كله بل على بعضه فقط. أى أن ما يحسبه كثير من الباحثين نظاما صارما يتبعه الجاهليون والقدماء عموما فى بناء القصيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعَى فى بعض قصائد المديح وحَسْب، لكنه لا يقتصر عليها بل يَشْرَكها فى ذلك كثير من القصائد غير المَدْحِيّة أيضا كمعلقة امرئ القيس التى يتناول فيها مغامراته اللاهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسيل، وكمعلقة طرفة التى يستهلها بالوقوف على أطلال خَوْلة رغم أنها ليست فى المديح ولا حتى فى الهجاء أو الرثاء أو أى موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل فى التعبير عن التمرد على التقاليد والحيرة فى فهم الحياة، وكمعلّقة عنترة بن شداد التى يفخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبته ويرسم صورة حانية لأَدْهَمه الذى اشتكى له حَرّ القتال وود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر لولا عجزه عن التعبير اللغوى المقصور على أولئك البشر...

وقد كان د. شوقى ضيف أكثر دقة وحذرا فى حديثه فى هذا السياق عن أسلوب الشعراء الجاهليين فى نظم قصائدهم، إذ قرر أنهم "كانوا يحرصون فى كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلى على أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبتدئ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدِّمَن ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر فى الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التى تملأ حسه ونفسه

وصفا دقيقا فيه حذق ومهارة، ثم يخرج مـــن ذلـــك إلى الموضـــوع المعين من مدح وهجـــاء أو غيرهـــا. واســـتقرت تلـــك "الطريقـــة التقليدية" وثبتت أصولها فى مطولاته الكبرى علـــى مـــر العـــصور" (د. شوقى ضيف/ الفـــن ومذاهبـــه فى الـــشعر العـــربى/ ط8/ دار المعارف/ 18). فهو، كما نرى، يقول إنهم كـــانوا يفعلـــون ذلـــك فى كثير من مطوّلاتهم لا فيها كلها ولا فى المدائح منـــها فحـــسب. وهذا أقرب إلى الواقع (كما أشرنا قبل قليـــل) ممـــا جـــاء فى نـــص ابن قتيبة آنفا، هذا النص الذى فهمـــه نيكلـــسون علـــى حرفيتـــه فأساء الفهم والتقدير، إذ كتـــب زاعمـــا أن الـــشاعر الجـــاهلى لم يكن أمامه أى اختيار فيمـــا يخـــص النظـــام الموســـيقى للقـــصيدة العربية أو فى اختيار موضـــوعاته وأســـلوب معالجتـــها، ولم يكـــن يجرؤ من ثم على الخروج على شىء من ذلـــك، وإن عـــاد فاســـتثنى بعض الحالات من هذه "التقاليد الجامدة" على حـــد تعـــبيره (انظـــر كتابـــه: **A History of Arabic Literature, PP.77-78**).

ومن القضايا المتعلقة بالشعر الجاهلى كذلك مـــا قيـــل عـــن مكانة الشاعر فى ذلك العصر، فقد ذكـــر ابـــن رشـــيق فى "بـــاب احتماء القبائل بشعرائها" من كتابه: "العمـــدة فى محاســـن الـــشعر وآدابه": "كانت القبيلة من العـــرب إذا نبـــغ فيهـــا شـــاعر أتـــت القبائلُ فهنأتها، وصُنِعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعـــبن بـــالمزاهر

كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولـــدان لأنـــه حمايـــةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عـــن أحـــسابهم، وتخليـــدٌ لمـــآثرهم، وإشـــادةٌ بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلامٍ يولَد أو شـــاعرٍ ينبـــغ فـــيهم أو فرس تُنْتَج". وقد أخـــذ مؤرخـــو الأدب العـــربى يستـــشهدون بهذه العبارة على أنها أمر مفروغ منه وأن ما ورد فيهـــا إنمـــا كـــان يقع حرفيا. ومن هؤلاء جلال الدين الـــسيوطى (المُزْهِـــر فى علـــوم اللغـــة والأدب/ القـــاهرة/ **1335**هـــــ/ **2**/ **293**)، وجرجـــى زيـــدان (تـــاريخ آداب اللغـــة العربيـــة/ **83**)، والـــشيخ أحمـــد الإسكندرى والشيخ أحمـــد العنـــانى (الوســـيط فى الأدب العـــربى وتاريخـــه/ **59**)، ورينولـــد نيكلـــسون (**A History of Arabic Literature, P. 71**)، وأحمـــد حـــسن الزيـــات (تاريخ الأدب العربى/ **44**)، والـــسباعى بيـــومى (تـــاريخ الأدب العربى- فى العصر الجـــاهلى/ مكتبـــة الأنجلـــو المـــصرية/ **142**)، ود. على الجنـــدى (فى تـــاريخ الـــشعر الجـــاهلى/ دار المعـــارف/ **274**)، وك. أ. فـــارق (**K. A. Fariq, History of Arabic Literature,Vikas Publications, Delhi- Bombay- Bangalore- Kanpur- London, P.43**)... إلخ. علـــى أنى، رغـــم ذلـــك كلـــه، لا أحسب أن هذا كان يقع حرفيا كما جاء فى كـــلام ابـــن رشـــيق، بل المقصود أن العرب كانوا يتفاخرون بـــشعرائهم كمـــا يتفـــاخر أى منا بما تمتاز به أسرته أو قريته أو مدينتـــه أو جامعتـــه أو وطنـــه

أو أمته، لا أن الحفلات كانت تقام فعلا ويلعب النساء بالآلات الموسيقية وما إلى ذلك، إذ لم يقابلنا خبر واحد عن قبيلة معينة احتفلت بأحد شعرائها على هذا النحو، إنما هو كلام عام مرسل، علاوة على أن أحدا لم يقل هذا القول قبل ابن رشيق، وهو متأخر، إذ هو من أهل القرن الرابع الهجرى، فأين كان ذلك الكلام قبله؟ لقد كانت مكانة الشاعر الجاهلى بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شك، وهذا كل ما أفهمه من نص ابن رشيق لا أكثر، إذ كان هو المحامى عن أعراضها والمذيع لمفاخرها والمالئ وقت فراغها بما ينشدها من شعر معجب يسليها ويمتعها والمحرك لمشاعرها والعازف على أوتار قلبها والمعزّى لها فى أوقات الملمات والمثير لحماستها عند الحروب والمُشْعِل نار الانتقام فى نفوسها... وهكذا، وإن لم يعن هذا أن الشعراء جميعا كانوا يفعلون كل ذلك، وفى كل الظروف والأوقات، بل كان هناك شعراء لا يتغنَّوْن إلا بما يجدونه فى قلوبهم بوصفهم أفرادا فى دنيا البشر لا أعضاء فى قبيلة معينة، كما كان هناك أيضا شعراء متمردون يشذون عن قبيلتهم فتخلعهم كما هو الشأن مثلا فى شعراء الصعاليك. هذا ما أفهمه من كلام ابن رشيق، أما الاحتفال بنبوغ الشعراء فى العصر الجاهلى فلا أدرى كيف يمكن تحديد الوقت الذى ينبغ فيه شاعر ما: أبأول شعر يقوله؟ لكن هذا ليس ما يُفْهَم من كلمة "نبوغ"! أم يكون

بانتشار شهرته؟ لكن أمن الممكن تحديد وقت معين لذلك؟ أم يرجع الأمر إلى لجنة تعلن أنه بلغ النبوغ الشعرى؟ لكن متى كان الجاهليون يعرفون نظاما كهذا؟ الواقع أننا كيفما قلبنا تلك العبارة فلن نصل منها إلى شىء محدد يريح البال. ولهذا كله أرى أن المقصود بها هو معناها الرمزى الذى أشرت إليه آنفا، وهو أن الشاعر الجاهلى كان بوجه عام ذا مكانة عالية بين قومه للأسباب التى ذكرناها.

أما قول نيلدكه إن الشاعر الجاهلى كان "نبى قبيلته وزعيمها فى السلم وبطلها فى الحرب، تَطْلُب الرأى عنده فى البحث عن مَرَاعٍ جديدة، وبكلمته وحدها تُضْرَب الخيام وتُحَلّ، كما كان يحدو الرحالة العطاش فى التنقيب عن الماء" (انظر حنا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربى/ **59**) فكلام غير صحيح، إذ ها هم أولاء شعراء الجاهلية بين أيدينا، وقد قرأنا أشعارهم وتراجمهم فلم نجد شيئا مما يزعمه نيلدكه. إنما كانت قيادة القبيلة لشيخها، فإن تصادف أن كان شاعرا فبِها ونِعْمَتْ كما هو الوضع فى حال كُلَيْب بن رَبِيعة والفِنْد الزِّمّانى وعمرو بن كلثوم وأُحَيْحَة بن الجَلاّح ودُرَيْد بن الصِّمّة، وإلا فالشاعر فرد من أفراد القبيلة يسمع ما انتهى إليه قرارها ويلتزم به كما يلتزم غيره، مع رعاية مكانته المتميزة كما قلنا. وإلا فقد كان عنترة شاعرا، وشاعرا كبيرا، فهل كان قبيلته تتبع خطاه وترى ما يراه؟ كما كان طرفة أيضا شاعرا، ولم تكن قبيلته تعيره أدنى اهتمام من جهة الرياسة

والرأى، إذ كان شابا لاهيا عابثا يصطدم بها ولا ينسجم مع أوضاعها حتى لِيمَ على تمرده لوما شديدا سجله هو نفسه فى معلقته. ولدينا الأعشى وزهير والنابغة وحسان، وغيرهم كثيرون من شعراء الجاهلية، ولم نقرأ أن أيا منهم كان سيد قبيلته يوما. ثم لقد كان هناك شعراء رحالة ينتجعون الممدوحين، فهل كان على قبائلهم إذا ما ألمت بها مُلِمّةٌ أن تنتظرهم حتى يؤوبوا من أسفارهم فيشيروا عليها بما ينبغى أن تصنعه؟ كما أن القبيلة الواحدة كثيرا ما كان لها أكثر من شاعر، فمن منهم يا ترى كان هو السيد المطاع الذى تأخذ برأيه وتنصاع لمشورته؟ أم هل كان لكل قبيلة شيوخٌ عِدّة؟ وما القول فى الشعراء المتمردين على قبائلهم؟ أكانت تلك القبائل تتخذ منهم شيوخا لها رغم ذلك؟ وأخيرا متى كانت الموهبة الشعرية والشخصية الحكيمة المهيبة التى تعنو لها رقاب الآخرين صِنْوَيْن متلازمين حتى يكون كل شاعر جاهلى سيدا لقبيلته بالضرورة؟ ألا ما أكثر ما يشيع فى دنيا الأدب العربى من مقولات (وبخاصة ما كان منها صادرا عن المستشرقين) إذا ما تحراها الدارس أو وقف إزاءها وقفة المتسائل فسرعان ما ينكشف زيفها وما فيها من مجافاة للمنطق ووقائع الحياة!

القَصَص

ينقل د. أحمد أمين فى كتابه: "فجر الإسلام" (ط12/ مكتبة النهضة المصرية/ 1978م/ 36) عن المستشرق البريطانى ديلاسى أوليرى (De Lacy O'Leary) فى كتابه: "Arabia Before Muhammad" أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر فى شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصى أو التمثيلى أو الملاحم الطويلة التى تُشِيد بذِكْر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس و"شاهنامة" الفردوسى، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربى فى فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذِكْره للأيام والحوادث، ووَصْفه لشعوره ووجدانه، وتصويره لالتياعه وهيامه، كل ذلك دليل على تمتعه بالعواطف الحية. ويردد أحمد حسن الزيات شيئا قريبا مما نقله أحمد أمين عن أوليرى، وإن اختلفت مسوِّغاته، إذ من رأيه أن مزاولة هذا

الفن تقتضى الرويّة والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإلمام بطبائع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا في البحث، مع قلة تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطار الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النثر، والنثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر، وفكّر في تدوين شيء من القصص (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ 31، 393).

بَيْدَ أن عددا من كبار النقاد ومؤرخى الأدب عندنا تولَّى تفنيد هذه التهمة المتسرعة: ومن هؤلاء الدكاترة زكى مبارك، الذى أكد أن العرب "كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون" (د. زكى مبارك/ النثر الفنى فى القرن الرابع/ دار الكتب المصرية/ 1934م/ 1/ 197). كما رد عمر الدسوقى باستفاضة فى كتابه: "فى الأدب العربى الحديث" (مطبعة الرسالة/ 1948م/ 331- 347) على هذه الفِرْية العنصرية وأدحضها على أساسٍ علميّ وفلسفيّ مبينا أن ما كتبه العرب

وما ترجموه من قصص فى القديم والحديث ينبئ بجلاء عما يتمتعون به من خيال ومهارة فنية فى هذا السبيل. بل يذهب أحمد أمين أيضا إلى أنه كانت هناك صلة بين عرب الجاهلية وآداب غيرهم من الأمم كالإغريق والفرس تمثلت فى أنهم أخذوا بعض القَصَص فاحتفظوا به يروونه ويتسامرون به على الحال التى نقلوه عليها دون تبديل، أو صاغوه فى قالب يتفق وذوقهم، علاوة على قصصهم الأصيل الذى لم يأخذوه عن غيرهم مما نجده فى "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين/ فجر الإسلام/ **66- 68**).

ويقول محمود تيمور فى كتابه: "محاضرات فى القصص فى أدب العرب: ماضيه وحاضره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ **1958**م/ **26**): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربى أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نُصْبَ أعيننا القصةَ الغربيةَ فى صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى فإذا هو خِلْوٌ منها أو يكاد. وشَدَّ ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس، فللأدب العربى قَصَصٌ ذو صِبْغةٍ خاصةٍ به وإطارٍ مرسومٍ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربى وخلاله فلا يقصّر فى التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضّاحة، وكأننا لم نفقد فى مجتمعنا العربى حتى اليوم ما

يكشف عنه ذلك القَصَص من ملامحَ وسماتٍ على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد. وهو فى جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التى هى جوهر القَصَص الفنى، وإنْ تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى عكس هذا الرأى قبلا زاعما أن البيئات الصحراوية ينقصها الخيال وأن ما تركه لنا العرب فى هذا الميدان شىء ضئيل لا قيمة له، وإنْ صنّف هذا التراث رغم ذلك إلى قَصَصٍ عاطفى وقَصَصٍ حربىٍّ وبطولىٍّ وقَصَصٍ علمىٍّ فلسفىٍّ (انظر محمود تيمور/ نشوء القصة وتطورها/ المجلة الجديدة/ سبتمبر **1936**م/ **52**، **54- 56**، **61**، ومقدمته لمجموعة "الشيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ **1926**م/ **41**).

وفى ذات السياق يبدى محمد مفيد الشوباشى استنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياتهم الباهرة فى ميادين الأدب والفن والعلم. وقد شملت استهانتهم وزرايتهم، فيما شملتا، القصةَ العربية القديمة! وسَنَدهم فى هذا أن قِصَص العرب كانت إما أخبارا أو حكايات أو شعرا روائيا، فهى لا تشبه القصة الحديثة التى نعرفها بحال، وعلى ذلك لا تستحق أن تسمى: قِصَصًا" (محمد مفيد الشوباشى/ القصة العربية القديمة/ سلسلة "المكتبة الثقافية"/ إبريل

1964م/ 3). وبحقٍّ يقرر د. محمد حسين هيكل أن فن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمة والحديثة، وأن "القصة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلا من الأشكال التى اتخذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويل، وأن هذا الشكل سوف يتطور ولا شك فى المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربى القديم فهو يؤكد حُفُوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاعِ العصور التى ظهرت فيها وملامحِها شعرا ونثرا (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط3/ مكتبة النهضة المصرية/ 1965م/ 67- 73. وانظر كذلك مقاله: "رأى فى القصة العربية"/ الهلال/ أغسطس 1948م/ 116).

ويفيض د. محمود ذهنى، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"، فى مناقشة دعوى افتقار الذهن العربى إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصى، مقدما عددا من الأدلة العقلية والنصوصية: منها مثلا ما ورد فى كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذى كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركى قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاسرة وقُوّادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاولة

تخليصهم من تأثيركتابه المعجــز. ومنــها وورود كلمــات "قَــصَّ" و"يقُصّ" و"قصة" و"قَصَص" فى لغة العرب وكتابــاهم مما يــدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب. ومنها مــا يقولــه المؤرخــون من أنه كان لمعاوية رجال موكَّلون بالكتــب الــتى تتحــدث عــن أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين يقرؤونها عليــه كــل ليلــة. ومنها امتلاء كتب الأدب العربى بالحكايــات والنــوادر والقــصص الــتى تــدور حــول عــاداهم وأحــوال معيــشتهم ومعــاركهم وأساطيرهم، أو حــول أخبــار العجــم وملــوكهم وســيرهم فى رعاياهم، أو حول المغامرات والمكايد التى يحيكها البــشر بعــضهم لبعض... إلخ (انظر كتابــه: "القــصة فى الأدب العــربى القــديم"/ مكتبة الأنجلو المــصرية/ **1973**م/ **53- 144**). والواقــع أن مــا قاله د. ذهنى صحيح مائة فى المائة، فمــن يرجــع إلى كتــب الأدب العربى القديم ســوف يهولــه المقــدار الــضخم للقِــصَص الــتى تتضمنها تلك الكتب، وكثير منــها يعــود إلى العــصر الجــاهلى أبطالاً وموضوعاتٍ وتواريخ. ومــن يُــرِدْ أن يتحقــق مــن هــذا يمكنه مثلا النظر فى كتاب "قــصص العــرب" لمحمد أحمــد جــاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمــد البجــاوى بأجزائــه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوى علــى مئــات مــن القــصص يخــصّ العصرَ الجاهلىَّ منها قدرٌ غــير قليــل، وإنْ لــزم القــول بأنــه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمهــا بــل عيّنــات

منها فحَسْب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يجتزئ بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التى ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساسٍ مما مر ينبغى أن نقرأ ما كتبه فاروق خورشيد من أن "العلماء مُجْمِعون على أن العرب فى الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التى تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم. وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة من القَصَص الذى تتناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم... وليس كتاب "الأغانى" هو المرجع الوحيد فى هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأمالى" و"صبح الأعشى" و"العِقْد الفريد" و"الشعر والشعراء" وكتب التراجم والطبقات بما لا يدع مجالا للشك فى أن الفن القصصى قد تناول الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها، إلا أن الدارسين المُحْدَثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا هذه القصص فنا نثريا مميزا له أصوله الجاهلية، واعتمدوا فى هذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنتْ فى العصر العباسى الذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا عن العصر الجاهلى". ويمضى فاروق خورشيد مبينا أن الذين قاموا بتدوين أخبار الجاهليين فى العصر

العباسى قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، علـى مـا خلفتـه الجاهلية من كتابـات ومـدوَّنات، إذ كـان التـدوين والكِتَـاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون مـن المعقـول" كمـا يقـول "أن ينقل الراوى قصيدة شعر، أما أحداث تـاريخ وحكايـة حيـاة فهذه تحتاج إلى تدوين فى نقلها" (فـاروق خورشـيد/ فى الروايـة العربيـة/ ط3/ دار الـشروق/ 1403هـ- 1982م/ 27-28). بل إنه ليرى أن "الفن الجـاهلى الأول كـان هـو القـصة والرواية، أما ما عدا هذا من صُوَرٍ كالخطابة والـسجع فـلا تعـدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة مـن حاجـات الحيـاة، ودَرْسُـها أقرب إلى دَرْس اللغـة منـه إلى دَرْس الأدب" (المرجـع الـسابق/ 74). ومن كلام خورشيد هـذا نخـرج بـأن عـرب الجاهليـة لم يكونوا يعتمدون فى حفظ قصصهم على الذاكرة فقـط بـل علـى الكتابة فى المقام الأول.

فإذا جئنا إلى الدكتور شوقى ضـيف ومـا أثبتـه فى كتـاب "العصر الجاهلى" فى هذا الصدد ألفيناه يؤكد أن عـرب الجاهليـة "كانوا يشغفون بالقصص شغفا شـديدا، وسـاعدهم علـى هـذا أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حـين يُرْخِـى الليـلُ سدولَه يجتمعون للـسمر، ومـا يبـدأ أحـدهم فى مـضرب مـن مضارب خيامهم بقوله: "كـان وكـان" حـتى يرهـف الجميـع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعـضهم معـه فى الحـديث. وشـباب

الحى وشيوخه ونساؤه وفتياتــه المخــدَّرات وراء الأخبيــة، كــل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة"، بَيْــدَ أنــه يــستمر قــائلا إنهم لم يكونوا يدونون قَصَصهم، بــل يتناقلونــه شــفاها، إلى أن تم تدوينه فى العصر العباسى، ومن ثم لم يصلنا كمــا كــان الجــاهليون يروونه. وهذا نص كلامه: "ليس بين أيــدينا شــىء مــن أصــول هذا القصص الذى كان يدور بينهم، غــير أن اللغــويين والــرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتــهى إلــيهم منــه. وطبيعــى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلــة الــتى قطعتــها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كــان مــن الحــق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القــديم وظلــت تنــبض بروحه وحيويتــه" (العــصر الجــاهلى/ **399**). فعنــدنا إذن مــن يقول إن الجاهليين كانوا يــدونون تــاريخهم وقصــصهم كتابــة، ومن يقول إنهم لم يكونوا يصنعون شــيئا مــن ذلــك. وصــاحب هذا الرأى الأخير، وهــو الــدكتور شــوقى ضــيف، لا يكتفــى بذلك بل يردّ ما جاء عن هشام بن محمد الكلــبى مــن أنــه رأى فى بِيَع الحيرة بعض مدوَّناتٍ استخرج منــها تــاريخ العــرب، لأنــه متهم فى كثير مما يرويه على حد تعبيره. وهــو مــا لا يُعَــدّ دلــيلا كافيا، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحا فليس معنــاه أنــه كــان يكذب فى كل شىء ولا يقول الصدق أبدا، وبخاصــة أن مــا قالــه عن مدوَّنات الحيرة لا يدخل فى بــاب الخرافــات الــتى لا يقبلــها

العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسبما هو معروف لنا جميعا، وبالذات فى مملكة الحيرة التى كانت تتبع إمبراطورية الفُرْس أصحاب الكتابة والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا فى الفصل الخاص بالشعر الجاهلى من هذا الكتاب أنه كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجاهلية ومدائح من مدحهم من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبى ويعضّده. أما قول الأستاذ الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوَّنات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية، التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى كلامه هذا أن كلام ابن الكلبى ليس صحيحا لأنه ليس صحيحا. كيف؟ إنه، بعد أن يفترض أن ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا يمكن أن تكون الكتابات التى رآها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف السريانية، وإلا لعُرِف ذلك عنه أو لقال إنه استعان فى الاطلاع على ما فيها بمن يعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتابات عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التى لم يكن يعرفها. أى أنه لم

يقرأها على هذا الاحتمال أيضا، وأنه قـد كـذب هنـا كـذلك! لكن هل يمكن أن يكون ما قاله د. شـوقى فى حـق ابـن الكلـبى سليما؟ أما أنا فلست أستطيع أن أوافق أستاذى الـذى أكـن لـه كل الاحترام لأن الذى أعرفـه أن مملكـة الحـيرة كانـت مملكـة عربية، فلماذا تتحدث مملكة كهـذه بلـسان الـسريان لا بلـسان العرب؟ كما أن الـشعراء العـرب الكبـار فى الجاهليـة كـانوا يقصدون ملوكهـا ويمـدحونهم أيـضا بالعربيـة لا بالـسريانية، والأستاذ الدكتور لا ينكر هذا بل يثبتـه فى كتبـه الـتى تتعـرض لشعر تلك الحقبة ككتابه الذى بين أيـدينا وكتابـه عـن "الفـن ومذاهبه فى الشعر العربى" مثلا. وفوق هذا فـإن أسمـاء ملوكهـا أسماء عربية لا سريانية. أمـا إن ثبـت مـثلا (أقـول: مـثلا!) أن السريانية كانت تستعمَل فى بعض الطقوس الدينيـة فهـذا شـىء آخر غير ما نحن بصدده. إذن فلمـاذا يجـب أن يكـون القـصص المذكور مكتوبا هو بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كـذلك أورده المـسعودى فى "مـروج الـذهب" عن معاوية يدل على أنه كان هنـاك منـذ خلافتـه علـى الأقـل تدوينٌ كتابىٌّ لما كان الجاهليون يروونـه مـن قـصص وحكايـات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثَـمَّ لم ينتظـر حـتى مجـىء العـصر العباسى كما يقول د. شوقى ضيف. وهذا هـو الـنص المـذكور، وقد ورد فى سياق كلام المـسعودى عـن المنـهج الـذى كـان

معاوية يتبعه فى إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية: "ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسَمْعه كلَّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضا كتاب "أخبار عَبِيد بن شَرِيّة الجُرْهُمِيّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأَمْر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوَّن ذلك ويُنْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد

المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وَفَد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عَبِيد بن شَرِيّة وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعُّب الأنساب. وكتاب عَبِيد بن شرِيّة متداوَل في أيدي الناس مشهور".

ترى هل بإمكاننا القول بأن تدوين القصص الجاهلى لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكس ما يقول به د. شوقى ضيف؟ ذلك أننا هنا أمام دليل مكتوب يقول إن هذا التدوين قد بدأ منذ أول العصر الأموى، وإن كنا لا نستطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فاروق خورشيد بأن ذلك التدوين قد بدأ فى الجاهلية فعلا، بالضبط مثلما لا نستطيع الجزم بعكسه أيضا. لكن إلى أى مدى نستطيع القول بأن ما كتبه عَبِيد بن شَرِيّة هو قصص جاهلى فعلا؟ إنه يتحدث مثلا عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بسبب عصياهم وكفرهم كما نقرأ فى القرآن المجيد، فهل كان الجاهليون يعرفون ما أورده القرآن فى هذا الصدد من تفصيلات زادها القصة تفصيلات أخرى كثيرة لم ترد فى الكتاب المجيد؟ وهل كانوا يعرفون فى ذلك الصدد مثل التعبير التالى: "سبع ليال وثمانية أيام حسوما

حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية" حسبما ورد فى كتاب عبيد، وهو تعبير قرآنى ورد فى سورة "الحاقّة" عند رواية المولى سبحانه قصة هلاكهم؟ ومن ثَمّ فهل نَعُدّ ما تركه لنا عبيد قَصَصًا جاهليًّا أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعده قصصا إسلاميا تام الإسلامية على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعاد، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلا من مصائبَ جَرّاءَ كفرهم وتمردهم؟ هذا أمر من الصعب البَتُّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القَصَص الجاهلى لم يكن نثرا فحسب، بل كان شعرا أيضا. كما أن كثيرا من القصص العربى المأثور عن الجاهلية أو الذى يتخذ من الجاهلية موضوعا له يختلط فيه الشعر والنثر، وليس نثرا صافيا.

وأول شىء نتعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فأما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلا، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونغم موسيقى، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفا أو تلاعبا فى النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلى مكتوب فإن هذا لا يسوغ أبدا إطلاق مثل ذلك القول وتعميمه على كل القصص، إذ كانت الكتابة فى الجاهلية

محصورة فى نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسع فى كتابة مثل تلك النصوص التى لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى العرب آنذاك كانت نادرة وبدائية فى غالب الأمر. كذلك قد يقال إن الأسلوب الذى صيغت به تلك النصوص القصصية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه من النصوص النثرية الجاهلية على قلتها من خطبٍ وأمثالٍ وأسجاعِ كهانٍ، بل ينسجم بالأحرى مع الكتابة العربية بعد تطورها فى العصر العباسى الذى دقت فيه الأفكار ولانت فيه الأساليب ورقت وتلونت ووضح فيها روح التحضر، إلا أنه يمكن مع هذا الرد بأن أسلوب القصص بطبيعته أسلوب بسيط منساب لا يعرف الوعورة ولا الاحتفال اللذين نجدهما فى كثير من الأشعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهلية. لكن إلى أى مدى ابتعدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية التى كان يتداولها أهل الجاهلية؟ الواقع أنه يصعب جدا، بل يستحيل فى الظروف الحالية القطع بشىء من هذا، وإن كنا نتصور أن الموضوعات قد بقيت كما هى أو ظلت قريبة مما كانت عليه فى الأصل. أما سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر من التحوير فذلك راجع إلى أنها نصوص نثرية لا تعلق بالذاكرة علوق الشعر، الذى رأينا فى الفصل الخاص به أنه هو أيضا لم يسلم تماما من

التغييرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشرية من ضعف أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى بذل الجهد والاهتمام فى حفظ النصوص القصصية مثلما هو الحال فى القرآن الكريم، وكذلك حديث النبى عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواعظ الحنفاء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقَّعة كالأمثال. وفضلا عن هذا فإن القَصَص الجاهلى لا يرتبط بشخص بعينه قد ألّفه على عكس الشعر الذى يُنْسَب، إلا فى الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القِصَص فإنها فى الأغلب نتاج جماعى، والجماعة لا تهتم بالتدقيق فى حفظ إبداعها قدر اهتمام الأفراد بإنتاجهم كما هو معروف. بل إنى لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويرات والتغييرات فى تلك النصوص طبقا لما هو معروف من حكايتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التى يكونون عليها والجو الذى يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... إلخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بالنا براوى هذا الإبداع؟ ويبقى البناء الفنى لهذا القصص الجاهلى، ولا أظننا بقادرين على البت فى السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلى على حالته الفنية التى خلّفها لنا قُصّاص الجاهلية. ذلك أننا لا نملك أى

مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التى تركها لنا الجاهليون فى هذا الفن يوما، إذ العبرة بما فى اليد الآن لا بما كان فى أيدى القدماء.

والآن إلى الموضوعات التى تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نسترشد بما اشتمل عليه كتاب "قَصَص العرب" الذى سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلى وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب فى الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضا بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصا بهذا أو ذاك دون قَسِيمه، وهو أمر من السهل معرفته فى معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر فى فهرس الكتاب الذى نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قِصَصٍ تستبين بها مظاهرُ حياتهم وأسبابُ مدنيتهم بذكر أسواقهم وأجلاب تجارتهم والمساكن التى كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقِصَصٍ تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم وكواهنهم وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان وتعهدها بألوان الزُّلْفَى والقربان، وقصص تجلو علومهم ومعارفهم وتتوضَّح منها ثقافتهم وما كان متداوَلا

بينهم من مسائل العقل والنقل التى هدهم إليها فطرهم أو أهتها إليهم تجاربهم، وقصص يُرَى منها ما كانوا يتغَنَّوْن به من المكارم والمفاخر وما كانوا يتذمَّمون به من المناقص والمعَرّات سواء أكان ذلك يتصل بكل منهم فى نفسه أم فيما يتصل بالأقربين من ذَوِيه أم فيما يضم أهل قبيلته أم فيما يشمل الناس جميعا، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكشف ما طُبِعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة وقوة النفس وما أهّلتهم له طبيعة بلادهم وأسلوب حياتهم من شريف السجايا وممدوح الخصال، وقصص تشرح ما أُثِر عنهم من عادات وشمائل فى الأسباب الدائرة بينهم وتبين ما انتهجوه فى مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية وما تجرى عليه فى تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ومعاونتها له فى الحياتين الاجتماعية والمدنية بالسعى فى سبيل الرزق والاشتراك فى خوض معامع الحروب والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد، وقصص تمثل ذلاقة لسانهم وحكمة منطقهم وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف فى الإبانة والتعبير، وقصص تَسْرُد بارع مُلَحهم وروائع طُرَفهم فى جواباتهم المُسْكِتة وتصرفاتهم الحكيمة وتخلصاتهم اللبقة مما يدل على حضور

الذهن وسرعة البديهة وشدة العارضة، وقصص تعرب عما يقع بين العامة والملوك والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم من كل ذى صلة بالحكم والحكّام مما يتناول حِيَلهم فى المنازعات والخصومات ويوضح طرائقهم فى رفع الظُّلامات ورَجْع الحقوق وما يجرى هذا المجرى، وقصص تصور احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم وتمجيدهم للأسلاف وتعديدهم ما تركوا من مآثر وما أدى إليه ذلك من مفاخر ومنافرات، وقصص تنقل ما كانوا يتفكهون به من أسمار ومطايبات ومناقدات وأفاكيه مما نال به المحدِّثون والندماء سَنِىّ الجوائز والخِلَع من الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه فى المجتمعات والمنتديات، وقصص تؤرخ مذكور أيامهم وتفصّل مشهور وقائعهم ومقتل كبرائهم وتصف الحروب والمنازعات التى كانت تدور بين قبائلهم أخذا بالثأر وحماية للذِّمَار، وقصص تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث فى الغارات والغزوات والفتوح مصوِّرةً نفسياتهم وأحوالهم واصفةً تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رقعتها مفصِّلةً عُدَدهم وآلاتهم وأسلحتهم فى حياتهم الجديدة. ومن الواضح مثلا أن العناوين التى يرد فيها ذكر الخلفاء أو الوزراء أو الدولة العربية وحياتهم الجديدة هى من القصص التى تنتمى إلى تاريخهم الإسلامى لا الجاهلى. ومن الواضح أيضا أن

واضعى الكتاب قد ركــزوا فى تلــك العنــاوين علــى الجوانــب الطيبة فى الشخصية العربية تعصبا منهم للعــرب، وكــأن العــرب كانوا بلا عيوب، وهو ما يكذبــه الواقــع ومنطــق الحيــاة، بــل يكذبه قبل ذلك كله ما نقرؤه فى تلك القصص نفــسها الــتى بــين أيدينا، وإن كنا نتفهم الدوافع التى حَــدَتْ بــالمؤلفين إلى انتــهاج تلك الخطة، إذ كانوا يرَوْن الهجوم الظالم الذى يــشنه علــى أمــة العرب أعداؤها الخارجيون وأذنابهم من بــين أَظْهُرنــا فى الــداخل، فأرادوا أن يقولوا إن العرب لم يكونوا يومــا بهــذا الــسوء الــذى يصورهم به هؤلاء وهؤلاء، بــل كانــت لهــم دائمــا حــسناتهم الباهرة وإنجازاتهم الرائعة المعجبة التى يــضارعون بهــا كــثيرا مــن الأمم الأخرى، إن لم يتفوقوا فيها عليهم.

وقد رجع واضعو الكتــاب إلى عــشرات الكتــب التراثيــة كى ينقلوا منها ما ضــمّنوه كتــابهم مــن قــصص. والنــاظر فى عناوين المراجع والمصادر المذكورة فى فهارس ذلــك الكتــاب يجــد أن بعض تلك الكتب تاريخى، وبعــضها أدبى، وبعــضها قصــصى، وبعضها يتعلق بسيرة هذا الشخص أو ذاك، وبعــضها مــن كتــب الأمالى، وبعضها من الكتب التى تــشرح الأمثــال، وبعــضها مــن كتب الموسوعات، وبعضها من كتــب الطرائــف، وبعــضها مــن دواوين الشعر ومجموعاته وشروحه، وبعضها مــن كتــب التــراجم العامة أو الخاصة، وبعضها مــن كتــب الــسياسة، وبعــضها مــن

كتب الشواهد اللغوية... إلخ. ولعل من المستحسن أن نورد هنا بعض أسماء تلك الكتب: فمنها مثلا "أخبار الأذكياء" لابن الجوزى، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"الأمالى" للشريف الرضى، و"الأوراق" للصُّولى، و"بلاغات النساء" لأحمد بن أبى طاهر، و"جمهرة أشعار العرب" لأبى زيد الخطابى، و"الحيوان" للجاحظ، و"زهر الآداب" للحصرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"الكامل فى الأدب" للمبرِّد، و"الكامل فى التاريخ" لابن الأثير، و"المحاسن والمساوئ" للبيهقى، و"المستطرَف من كل فن مستظرَف" للأبشيهى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نقائض جرير والفرزدق" لأبى عبيدة، و"نهاية الأَرَب" للنويرى... وهلمّ جَرًّا.

والآن إلى شواهد من القَصَص الجاهلى الذى أوردتْه لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبدأ بقصيدتَىْ تأبَّطَ شَرًّا فى لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدِّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحدا من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبط شرا توهَّم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابيش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعا، وقد...، وقد... إلا أن الأبيات مع ذلك تصور اعتقادا كان سائدا بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فلنقل:

إنها تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف فى بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضا يؤمنون بالغول، وأذكر أننى كنت فى طفولتى أرتعب من ذكر تلك الغول، إذ كان اعتقادنا أنها تنبش القبور وتأكل جثث الموتى، فكنت أتخيلنى وقد مِتّ ووُسِّدْتُ الثرى فى القبر وتركنى أهلى ومضَوْا إلى بيوتهم لتنفرد بى الغول فى الظلام تأكل لحمى أكلا وتنهش عظامى نهشا، وأنا من العجز فى حالة تامة! وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيد ولم أعد أسمع بشىء من ذلك مع انتشار التعليم ودخول الكهرباء القرية. وربما كان تكرُّر حديث شاعرنا فى قصيدتين على الأقل عن الغول راجعا إلى أنه كان كثيرا ما يجوب الصحراء فى الظلام الدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متمردا لا يأوى إلى المجتمعات، بل كان يشكل، مع أمثاله من الصعاليك المتمردين، عصابات لقطع الطريق، فكانت حياتهم قلقا وخوفا وتشردا مستمرا. فإذا أضفنا الجهل الذى كان سائدا آنذاك فى المجتمع العربى تبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافة بين الجاهليين أمر طبيعى تماما، وبخاصة فى ظروف شخص كتأَبَّطَ شَرًّا.

وقد تكرر ذكر "الغول" فى شعر العرب قبل الإسلام بما يدل على أن هذه الخرافة كانت تسكن عقول الجاهليين كما قلنا: فمن ذلك قول طارقة الشاعرة الجاهلية، حين اقترن

زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اتخذ بدلا منها "هوجاء مقّاء كشِبْه الغول". ومنه قول امرئ القيس متهكما بغريم له كان يهدده بالقتل:

أَيَقتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ؟

وقول زهير بن أبي سلمى يصف ناقته:

تُبادِرُ أَغوالَ العَشِيِّ وَتَتَّقي عُلالَةَ مَلوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحصَدِ

والآن إلى القصيدتين اللتين قص فيهما تأبَّطَ شَرًّا حكايته مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بَطَلَيْ قصته فى اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله فى القصيدة الأولى من الفعل الماضي إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما فى قوله: "فشَدَّت... فأَهْوَى لها كَفِّى... فأَضْرِبُها... فخرَّتْ":

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ بِمَا لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: كِلاَنَا نِضْوُ أَيْنٍ أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْدًا مَكَانَكِ إِنَّنِي ثَبْتُ الْجَنَانِ
فَلَمْ أَنْفَكَّ مُتَّكِئًا عَلَيْهَا لأَنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي

إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ قَبِيحٍ　　كَرَأْسِ الْهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ　　وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنَانِ؟

***

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابهُ　　كَمَا اجْتَابَتِ الْكَاعِبُ الْخَيْعَلاَ
إِلَى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ　　وَمَزَّقَ جِلْبَابَهُ الأَلْيَلاَ
عَلَى شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرْتُهَا　　فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلاَ
فَأَصْبَحْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ　　فَيَا جَارَتَا، أَنْتِ مَا أَهْوَلاَ
وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوَتْ　　بِوَجْهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْوَلاَ
فقلتُ لها: يا انظري كي تَرَيْ　　فولّت، فكنتُ لها أَغْوَلا
فطارَ بقحفِ ابنةِ الجـ　　نِّ ذوسَفَاسِقَ قَدْ أَخلقَ الْمِحْملاَ
إذا كَلَّ أمهيتُهُ بالصَّفا　　فَحَدَّ وَلَمْ أُرِهِ صَيْقَلاَ
عظَاءَةُ قَفْرٍ لَهَا حُلَّتَا　　نِ مِنْ وَرَقِ الطَّلْحِ لَمْ تُغْزلاَ
فمن سالَ: أين ثوت جارتي؟　　فإنَّ لها باللِّوى منزلا

وأما الشاهد الثانى فمن شعر للنابغة الذبيانى يصف فيه مطاردة الكلاب للثور الوحشى حين يطلقها صاحبها عليه أثناء اصطياده لها. ومثل تلك القصة التى تتكرر كثيرا فى الشعر الجاهلى تدل على شيوع صيد الثور الوحشى فى بلاد العرب قبل الإسلام. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغى أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة فى التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية. ولا بد من التنبيه ثانية إلى أن القصة التى نحن بصدد الكلام عنها لا

تستقل بقصيدة كاملة، بل تشكل فقط جزءا مـــن قـــصيدة أكـــبر، شأنها فى ذلك كشأن أغلب القصص الجاهلى الشعرى:

كأنّ رَحْــلي، وقــد زالَ النّهــارُ بنــا ... يــومَ الجليــلِ علــى مُستأنِسٍ وحِـدِ
مــن وحشِ وجــرةَ موشيٍّ أكارعــهُ ... طــاوي المصيرِ كسيفِ الصّيقل الفَـرَدِ
ســرتْ عليــه من الجــوزاءِ ســارية ... تُــزجي الشَّمــالُ عليهِ جامِـدَ البَـرَدِ
فارتاعَ من صوتِ كلاّبٍ فبــاتَ لــه ... طوعَ الشّوامتِ من خوفٍ ومن صَـرد
فبثّهـــنّ عليــــه واستَمــرّ بِــــهِ ... صُمْــعُ الكُعوبِ بريئــاتٌ من الحَـرَدِ
وكان ضُمْرانُ منــه حيــثُ يُوزِعُــهُ ... طَعْــنَ المُعارِكِ عند المُحْجَـرِ النّجُـدِ
شكَّ الفَريصــةَ بالمِــدْرى فأنفذَهــا ... طَعْــنَ المُبَيطِرِ إذ يَشفي مــن العَضَـدِ
كأنّه، خارجــا مــن جنبِ صَفْحَتــهِ ... سَفّودُ شَــرْبٍ نَسُــوهُ عنــدَ مُفْتــأدِ
فظَلّ يَعْجمُ أعلى الــرَّوْقِ مُنقبضــًا ... في حالكِ اللونِ صدقٍ غيــر ذي أودِ
لمــا رأى واشــقٌ إقعــاصَ صاحبــهِ ... ولا سَبيــلَ إلــى عَــقــلٍ ولا قَــوَدِ
قالت لــه النفسُ : إني لا أرى طمعــًا ... وإنّ مــولاكَ لــم يسلــمْ ولم يصــدِ

كذلك تصور الأبيات التالية، وهى لامــرئ القــيس، واقعــة من وقائع الــصيد، إلا أن الفريـــسة هنـــا أرنـــبٌ بَـــرّىّ لا ثـــورٌ وحشى، ثم تنتهى بالحديث عن تناول الطعام بعد انتـــهاء المطـــاردة بالنجاح، فهى إذن قصة من قصص القنص واللهو:

كَأنّ غُلامــي إذْ عَــلا حَــالَ مَتْنِــهِ ... عَــلى ظَهْرِ بَــازٍ في السّمــاءِ مُحَــلّقِ
رَأى أرْنَبًــا فانقَــضّ يَهْــوي أمَامَــهُ ... إلَيْهَـــا وَجَلاّهَــا بِــطَــرْفٍ مُلَقْلَــقِ
فقُلتُ لَــهُ:صَــوِّبْ وَلا تَجْهَــدَنّــهُ ... فيــذرك من أعلــى القطــاة فتَزْلَــقِ
فأدبــرنَ كالجَــزْع المفصَّــل بينــه ... بجِيــدِ الغُــلام ذِي القميــصِ المُطوَّقِ
وَأدرَكَهُــنّ ثَانِيــًا مِــنْ عِنَــانِــهِ ... كغيــثِ العَشِــيّ الأقهــبِ المتــودّقِ
فصاد لنــا عَيْــرًا وثــورًا وخاضبــًا ... عِــداءً وَلَــمْ يَنضَــحْ بمــاءٍ فيَعْــرَقِ

وَظَـلّ غُلامي يُضْجِعُ الرُّمحَ حَوْلـه   لِكُـلّ مَهَـاةٍ أوْ لأحْقَـبَ سَـهْـوَقِ
وقام طـوال الشخـص إذ يخضبونـه   قِيَـامَ العَزِيـزِ الفَارِسـيِّ المُنَـطَّقِ
فَقُلنَـا: ألا قَد كانَ صَيْـدٌ لِقَانِـصٍ   فخَبّـوا عَلَينـا كُـلَّ ثَـوْبٍ مُـزَوَّقِ
وَظَـلّ صِحَابـي يَشْتَـوُون بنَعْمَـةٍ   يصفـّون غـارًا باللكيـكِ الموشـّقِ

أما الأبيات التى نحن مقبلـون عليهـا الآن، وهـى للمَلِـك الضِّلِّيل أيضا، فتتوسع فى الحديث عـن نزولـه هـو وأصـحابه فى بعض الطريق بغية الأكل والاستراحة حيث نـصبوا لأنفـسهم مـا يشبه الخيمة يستتترون بها، ثم راحـوا بعـد ذلـك يتنـاولون مـا أعدوه من شواء لم يجدوا بدا حين انتهوا منه مـن مـسح أيـديهم فى أعراف خيولهم لعدم وجود مناديـل معهـم. كـذلك لم يَفُـت الشاعرَ التلفتُ حوله وتسجيلُ ما كان يراه مـن حيـوان وحـشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعيونـه الـتى تـشبه حبـات الجَزْع غير المثقوب كما يقول، والجَزْع حجـر كـريم تُتَّخَـذ منـه العقود التى تزين نحور الجميلات، وهو تـشبيه عجيـب. وهنـاك كلمة ليست شائعة الاستعمال فى الأدب العـربى حـتى فى القـديم منه هى كلمة "نَمُشّ"، ولها علوق بالقلـب رغـم ذلـك. وهـى قريبة من "نَمَسّ"، وإن لم يقتصر معناها علـى مجـرد المـس، بـل تضم إليه أيضا معنى مسح اليد فى شـىء خـشن بغيـة إزالـة مـا علق بها من دسم. وهذه هى الأبيات:

وقلت لفتيانٍ كرامٍ: ألا انزلـوا   فعَالَوْا علينـا فَضْل ثـوبٍ مطنَّبِ
وأوتـاده مـازيّةٌ، وعِمَـاده   رُدَيْنِيّـةٌ فيـها أسنّـةُ قُعْضُبِ

وأطنـــابه أشطان خُوصٍ نجـــائبٍ وصهـــوته من أَتْحَمِيٍّ مُشَـــرْعَبِ
فَلَمّا دَخَلنـــاهُ أَضَفـــنا ظُهـــورَنا إِلى كُلِّ حـــارِيٍّ جَديـــدٍ مُشَطَّبِ
فظـــلّ لنا يـــوم لذيـــذ ونعمـــة فقُـــلْ في مَقِيلٍ نَحْســـه متغـــيّبِ
كأنّ عيـــون الوحش حول خبائنا وأرحُلِنا الَجْـــزعُ الذي لم يثقّـــبِ
نَمُشّ بأعـــراف الجيـــاد أكُفّنـــا إذا نحن قمـــنا عن شـــواء مضَهّبِ
إلى أن تروّحْنـــــا بـــلا متعنّتٍ عليـــه كسِيد الردهـــة المتـــأوِّبِ

ونظل مع امرئ القيس فى لهوه، ولكن فى غير ميدان القنص، أو قل: إنه فى ميدان القنص أيضا، إلا أنه قنص من نوع آخر، قنص المرأة لا قنص الحيوان. وفى الأبيات التى سنوردها من فَوْرنا يـــروى لنـــا الشاعر، صدقًا أو كذبًا، بعض مغامراته فى دنيا النساء حيث يتبـــدى شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه مـــن عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل فى جنح الليل البهيم إلى حيث اتَّعَد مع إحدى صواحبه فى الخلاء، أو إلى حيث يقتحم علـــى أخرى خباءها، وهى تناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معـــه فيما أراده منها... إلخ. وهو فى كل ذلك يصف حبيباته وصفًا حيًّـــا عجيبًا ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متحرج من شىء، مُورِدًا كثيرا من التفصيلات الدالة التى تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهِّرًا بهن لما مَرَد عليه من استهتار، إذ كان ابنَ مَلِكٍ لا يبالى بما يأتى أو يَدَع. وعجيب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصرفات أو

ما يصدر عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأن امرأة هى التى تتكلم أمامنا أو تتصرف لا أننا نقرأ شعرا:

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خدر عُنَيْزَةٍ   فقالت: لك الويلات إنكَ مُرجلي
تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا: عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس، فانزلِ
فقُلتُ لها: سيري وأرْخي زِمامَهُ   ولا تُبعديني من جَنَاك المعلَّلِ
فمِثْلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ   فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ
إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ   بشِقٍّ، وَتحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ
ويومًا على ظهر الكثيبِ تعذَّرت   عَليّ وَآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ
أفاطِمُ، مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمي فأجملي
وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ   فسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ
أغَرّكِ مني أنّ حُبّكِ قاتِلي   وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلِ؟
ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْرِبي   بسَهْمَيكِ في أعشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ
وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها   تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ
تجاوزْتُ أحْراسًا إلَيها ومَعْشَرًا   عليّ حِراصًا لو يُسِرّون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصَّلِ
فجئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها   لدى السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فقالت: يمين الله ما لكَ حيلةٌ   وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرّ وَراءَنا   على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلما أجزْنا ساحة الحيِّ وانتحى   بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ
هصرتُ بِفَوْدَيْ رأسها فتمايلت   عليَّ هضيمَ الكَشحِ رَيّا المُخلخَلِ
مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ   ترائبها مصقولة كالسَّجَنْجَلِ
كِبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفْرَةٍ   غذاها نميرُ الماء غير المحلَّلِ

تصـــدّ وتُبْـــدِي عـــن أسيـــلٍ وتتَّقـــي بنـــاظرَةٍ مـــن وَحْش وَجْـــرَةَ مُطْفِـــلِ
وجيد كجيـــد الرئم ليـــس بفاحِـــش إذا هـــيَ نَصّـــــتْهُ وَلا بمُعَـــــطَّلِ
وفـــرعٍ يُغَشِّي المـــتنَ أســـودَ فاحـــم أثيـــتٍ كقِنْـــو النخلـــةِ المتعثكـــلِ
غدائـــرهُ مستشـــزِراتٌ إلـــى العُـــلَى تضِـــلّ المـــداري في مُثَنَّى ومُرْسَـــلِ
وكَشْـــحٍ لطيـــفٍ كالجديـــل مخصَّـــرٍ وســـاقٍ كأنبـــوبِ السَّقِـــيّ المُذلَّـــل
وَتَعْـــطو بـــرَخْصٍ غيرِ شَثْـــنٍ كأنّـــهُ أســـاريعُ ظَـــبي أو مساويـــكُ إسْحـــلِ
تُضيء الظـــلامَ بالعشـــاء كأنهـــا منـــارةُ مُمْسَـــى راهـــبٍ متبتِّـــلِ
وَتُضْـــحي فَتِيتُ المِســـكِ فوق فراشها نـــؤومُ الضُّـــحى لم تَنْتَـــطِقْ عن تَفـــضُّلِ
إلى مثـــلها يرنـــــو الحليـــمُ صبابـــةً إذا مـــا اسبكَرّتْ بيـــنَ درْعٍ ومِجْـــوَلِ
تســـلّتْ عَمـــايات الرجالِ عن الصِّبـــا ولـــيسَ صِبـــايَ عـــن هواهـــا بمُنْسَـــلِ
ألا رُبّ خَصْـــمٍ فيكِ ألْـــوَى رَدَدتُـــه نصـــيحٍ عـــلى تَعْذَالـــه غيـــر مُؤْتَـــلِ

وتبقى الأبيات التالية، وهى لسلامة بن جندل، وفيها يصور انتصار قومه على أعدائهم ساردا ما وقع لكل واحد من كبار محاربى أولئك الأعداء: فمنهم من صُرِع فى التراب، ومنهم من نجّاه الفرار من الهلاك، إذ نالته طعنة كان من شأنها أن تُرْدِيَه قتيلا لولا أن أجله لم يحن بعد، ومنهم من وقع أسيرا فى أيديهم فاقتادوه إلى مضاربهم مكبلا بالأغلال تتفرج عليه نساء القبيلة ويشمتن به وبقومه. وكما نرى فهو يطلعنا فى كل لوحة على صورة من صُوَر تلك الهزيمة التى مُنِىَ بها هؤلاء الأعداء. والملاحظ أنها مجرد سرد ووصف لا حوار فيها ولا

توسع فى التفاصيل، إلا أن الروح القصصية ظاهرة فيها رغم ذلك:

ومَن كانَ لا تُعتَدُّ أيّامُهُ لَهُ — فأيّامُنا عَنّا تُجَلِّي وتُعْرِب
جَعلَنا لَهمْ ما بَينَ كُتلةَ رَوْحَةً — إلى حيثُ أوفى صوَّتيهِ مثقَّبُ
غداةَ تركنا في الغبار ابن جحدرٍ — صَرِيعا، وأطرافُ العَوالي تَصَبَّبُ
لَقُوا مِثلَ ما لاقَى اللُّجَيْمِيُّ قَبلَهُ — قتادة لَمَّا جاءنا وهو يطلبُ
فآبَ إل حجرٍ، وقد فضَّ جمعهُ — بأخبثِ ما يأتي به متأوّبُ
وقد نالَ حدُّ السيفِ منْ حُرّ وجههِ — إلى حيثُ ساوى أنفهُ المتنقَّبُ
وجشَّامةُ الذُّهليُّ قد وسجتْ به — إلى أهلِنا مَخزومةٌ، وهْوَ مُحْقَبُ
تَعَرَّفُهُ وسْطَ البُيوتِ مُكَبَّلاً — ربائبُ من أحسابِ شيبانَ تثقبُ
وهوذةَ نَجَّى بعدَ ما مالَ رأسهُ — يَمانٍ إذا ما خالَطَ العَظمَ مِخدَبُ
فأَمسَكَهُ مِن بَعدِ ما مال رأسُهُ — حِزامٌ على ظَهرِ الأغَرِّ وقَيقَبُ
غداةَ كأنَّ ابني لجيمِ ويشكرًا — نعامٌ بصحراءِ الكديدينِ هُرَّبُ

وننتقل إلى القصص النثرى الجاهلى، وهأنذا أورد بعضا من نماذجه المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، ونبدأ بكتاب "أخبار النساء" لابن الجوزى الذى نقرأ فيه القصة التالية، وهى قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المُنْبِى عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة فى نفس الآن. وهى ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علوّ

نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيوبا مخيفة كما هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدع المحتال عليه وتوهمه أنها تبغى مصلحته، ليكتشف فى النهاية بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنه كان ضحية حيلة مزعجة حيكت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتَها وجهُ الحق فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة، وإن اقتصر العنصر الشعرى هنا على بيت واحد فى النهاية. ولنلاحظْ كيف رُوِيَت القصة كما كانت تُرْوَى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العَنْعَنَة، إذ بدأت على النحو التالى: "حكى الهيثم بن عَدِيّ عن الكَلْبِيّ قال: كان مُلْك النّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يُرَ منه في مُلْكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يومًا فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها، فقال: عليَّ بِعَدِيّ بن زيد، وكان كاتبَه وخاصّتَه. فقال له: يا عَدِيّ، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنّه هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطّف في الجمع بيني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألتُ عنها فقيل لي: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أَعْلَمْتَ بذلك أحدًا؟ قال: لا. قال: فاكتمه. فإذا أصبحتَ

فجُدْ بكلّ كرامةٍ لنَزِيلِك. يريـد حَكَـم بـن عـوف. فلمّـا أذِن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سـريره، فأَعْجَـب النّـاسَ حالُه وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فـأذِن للنّـاس بـدأ بـه فأكرمـه وأجلسه معه وكساه وجمّله، ففعل بـه ذلـك أيّامًـا. ثمّ قـال لـه عدي: أيّها الملك، عندك عشر نسوةٍ، فطلّقْ أقلّهـنّ عنـك منزلـةً ثمّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمّا دخل عليه قال لـه: يـا حكـم، إنّي قد طلّقت فلانةً لك فتزوَّجْها. فقال حكم لعـدي: مـا صـنع الملك بأحد ما صنع بي، ولا أدري بم أكافئـه. فقـال لـه عـدي: طلِّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعل، وحَظِـيَ عـدي بهـا عنـد الملك، وعلم الرّجل أنّه مَكَر به في امرأتـه. وفيهـا يقـول بعـض أهل الحيرة:

ما في البرّيّة من أنثى تعـادلها إلاّ التي أخذ النّعمان من حَكَمِ"

أما القصة التالية، وهى مأخوذة مـن كتـاب "الأغـانى" لأبى الفرج الأصفهانى، فبطلها كُلَيْب بن ربيعـة، وهـو شـيخ قبيلـة مستبد لا يبالى بكرامة أحـد ولا بحقوقـه، بـل يعامـل الجميـع بعَسْفٍ وتعالٍ واحتقار لا يُعْفِى أحدا من ذلك ولـو كـان صـهرا له، مما أدى فى النهاية إلى أن قتلـه أخـو زوجتـه واضـعًا بـذلك أخته فى كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحزن علـى مقتـل زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقـول أبـو الفـرج فى ذلك:

"وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة... أن كُلَيْبًا كان قد عَزّ وساد في ربيعة فبَغَى بَغْيًا شديدًا. وكان هو الذي يُنْزِلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغْيه أنه اتخذ جَرْو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كَلأٌ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يَرِدُها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب، فضُرِب به المثل في العز فقيل: أعزّ من كُلَيْب وائل. وكان يحمي الصيد ويقول: صيد ناحية كذا وكذا في جواري، فلا يصيد أحد منه شيئًا. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بَكْرِيٌّ ولا تَغْلِبيٌّ أجار رجلاً ولا بعيرًا إلا بإذنه، ولا يحمي حِمًى إلا بأمره، وكان إذا حمى حِمًى لا يُقْرَب. وكان لمُرّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاسٌ أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساسٍ البَسُوسُ، فجاءت فنزلت على ابن أختها جساس فكانت جارةً لبني مُرّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بني سعد، ومعها فَصِيل. أخبرني علي بن سليمان قال: قال أبو برزة: وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربيًّا أمنع مني ذِمّةً؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة

فقالت: نعم أخي جساس ونَدْمانه ابن عمه عمــرو المزدلــف بــن أبي ربيعة بن ذُهْل بن شــيبان. وزَعَــم مقاتــل أن امرأتــه كانــت أخت جساس. فبينا هي تغسل رأس كليــب وتــسرّحه ذات يــوم إذ قال: مَنْ أَعَزُّ وائل؟ فصمتت، فأعاد عليها. فلمــا أكثــر عليهــا قالت: أخواي جساس وهمام! فــنزع رأســه مــن يــدها وأخــذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجــارة بــني مُــرّة فقتله، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلــك. ثم لقــي كليــبٌ ابنَ البسوس فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قــال: قتلتَــه وأخليــتَ لنا لبن أمه. فأغمضوا على هذه أيــضًا. ثم إن كليبــا أعــاد علــى امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخــواي. فأضــمرها وأســرّها في نفسه وسكت حتى مــرت بــه إبــل جــساس فــرأى الناقــة فأنكرها، فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جــساس. قــال: أوقــد بلغ من أمر ابن السعدية أن يُجِــير علــيَّ بغــير إذني؟ ارم ضــرعها يا غلام. قال فراس: فأخذ القوس فرمــى ضــرع الناقــة فــاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعــاة علــى جــساس فــأخبروه بــالأمر، فقال: احلبوا لها مكيالَيْ لبنٍ بمحلبها، ولا تــذكروا لهــا مــن هــذا شيئًا. ثم أغمضوا عليها أيضًا. قال مقاتل: حــتى أصــابتهم سمــاء، فغدا في غِبّها يتمطر. وركب جساس بن مرة وابــن عمــه عمــرو بن الحارث بن ذهل، وقال أبو برزة: بــل عمــرو بــن أبي ربيعــة، وطعن عمرو كليبًا فحطم صــلبه. وقــال أبــو بــرزة: فــسكت

جساس حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر بن وائل على نِهْيٍ يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْيٍ آخر يقال له: الأحصّ، فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجَرِيب فمنعهم إياه فمضَوْا حتى نزلوا الذنائب، واتّبعهم كليب وحَيُّه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتي. فقال له: أَوَقَدْ ذَكَرْتَها؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مُرّة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه، فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتزّ رأسه".

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التى تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هى قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذى يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء فى كتاب "الأمثال"

للمفضَّل الضَّبِّيّ: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلِئ فرعيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكتْه؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصلح فأَدَعَك بهذا الوادي فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأَحَدّها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، فلما رأى ذلك وتخوف شَرّها نَدِم وقال لها: هل لكِ فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف

أعاودك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهورًا من أمثال العرب".

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَص الحيوان فى الأدب العربى لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: "كليلة ودمنة"، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالا لقصصهم، ويُنْطِقونهم بذات اللغة التى يتحدثونها، ويُضْفُون عليهم سائر الخلال البشرية كما سلف القول. وهناك قِصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان: منها قصة قيام الضَّبّ بالقضاء فى الخصومة التى كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والضفدع، وقصة الغراب الذى أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التى ذهبت تطلب قرنين، وقصة بِرّ الهدهد بأمه، وقصة الرَّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى فى الحبس. وهناك أيضا قصة الضبع والذئب، وملخَّصها أن الضبع وجدت تمرة فاختلسها الذئب فلطمته فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الحَسِيل. قال: سميعًا دعوت. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: في بيته يُؤْتَى الحَكَم. قالت: إني التقطت تمرة. قال: حُلْوًا جنيتِ. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظَّ نفسه بَغَى. قالت: لطمتُه. قال:

أَشْفَيْتِ، والبادي أظلم. قالت: فلطمني. قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: اقْضِ بيننا. قال: قضيت"... وغير ذلك مما يجده القارئ فى "الحيوان" للجاحظ و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة و"الأذكياء" لابن الجوزى و"خزانة الأدب" للبغدادى وغيرها.

وأترك هنا القارئ مع القصة التالية، وأبطالها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو عرفوا أن فى ذلك حتفهم. وهى قصة الزَّبَّاء وجَذِيمة الأبرش المشهورة، وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزى: "الأذكياء": "قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جَذِيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد. مَلَكَ ستين سنة، وكان به وَضَح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنُهِيَت العرب أن يقولوا: الأبرص، فقالوا: الأبرش. فغزا مليحَ بن البرء، وكان ملكًا على الحضر، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذي ذكره عَدِيّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجلة تُجْبَى إليه والخابور

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جلّلها فسُمِّيَتْ: الزباء.

قال الكلبي: وبُعِث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديــار أبيهــا ومَلَكَتْها، فأزالت جذيمةَ الأبرش عنها وابتنت على الفرات مــدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقًــا تحــت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعــد الحــرب مهادنة. فحدَّث جذيمة نفسَه بخِطْبتها فجمع خاصّــته فــشاورهم في ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيبًا، وكان خازنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته. فسكت القوم وتكلم قصير فقال: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرَّمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام. وإنما هــي تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين في سويداء القلب له كُمُــون ككُمُون النار في الحَجَر، إن اقتدحتَــه أَوْرَى، وإن تركتــه تــوارى. وللمَلِك في بنات الملوك الأكْفاء متَّسع، ولهن فيه منتفَع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظّم شأنك، فما أحد فوقك. فقــال جذيمة: يا قصير، الرأي ما رأيتَ، والحزم فيما قلتَه، ولكــن الــنفس تواقة إلى ما تحب وتهوَى، ولكل امرئ قَدَرٌ لا مفر له منــه ولا وَزَر. فوجَّه إليها خاطبًا وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغّبها فيه وتــصبو إليه. فجاءها خِطْبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انْعَمْ بك عَيْنًا وبما جئتَ به وله. وأظهرتْ له السرور بــه والرغبــة فيــه

وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا. والملك فوق قدري، وأنا دون قدره، وقد أجبتُ إلى ما سأل ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهدتْ إليه هديةً سَنِيّة: ساقت العبيد والإماء والكُرَاع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملتْ من الثياب والعَيْن والوَرِق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عَدِيّ اللَّخْمِيّ، وهو أول ملوك الحِيرة من لخم. وكان مُلْكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي، وردَّته وقد شب ونبر. فقالت أمه: أَلْبِسوه الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلامَ قصيرُ بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيَّد بحزم فما يكون. فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيَفْسُد، ولا الحزم بالمنى فيَبْعُد. والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمتُ على الملِك عزمًا بَتًّا ألاّ يفعل. فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا

من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقَوَّوْا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدَر يسابق الحذَر، ولا يطاع لقصيرٍ أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحْمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها: تلقَّوْا سيدكم ومَلِك دولتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُسْتَدْرَك الأمر قبل فواته. وفي يد المَلِك بقية هو بها مسلَّط على استدراك الصواب، فإن وثقتَ بأنك ذو مُلْك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتَها في يَدَيْ من لست آمَنُ عليك مكره وغدره. فإن كنتَ ولا بد فاعلاً لهواك تابعًا فإن القوم إن تلقَّوْك غدًا فِرَقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بَعْدُ في يدك، والرأي فيه إليك. وإن تلقَّوْك رَزْدَقًا واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرتَ في قبضتهم. وهذه العصا لا يُشَقّ غبارها. وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الريح يقال لها العصا. فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرها، فهي ناحية بك إن ملكت

ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جوابًا، وسار. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقَّوْه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحْدِقوا به، وإياكم أن يفوتكم. وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأجدل على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال: صدقتَ يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، أبطأتَ بالجواب حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا، فدُونَكَها لعلك تنجو بها. فأنِفَ جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على ظهر العصا وأعطاها عِنَانها وزجرها، فذهبت تَهْوِي به هُوِيّ الريح. فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها فقالت: ما أحسنكَ من عروس تُجْلَى عليّ وتُزَفّ إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء ولم يكن معها في قصرها إلا جَوَارٍ أبكارٍ أتراب. وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفةٍ كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فبُسِطَتْ، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيّدكن وبَعْل مولاتكنّ. فأخذن بيده فأَجْلَسْنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم

أمرت الجواري فقطعن رواهشه، ووضعت الطَّسْت تحت يده، فجعلت تشخب في الطست، فقطرت قطرة على النِّطْع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله. فلما مات قالت: والله ما وَهَى دمُك ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيْضٌ من فَيْض. ثم أمرت به فدُفِن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عَمْرَ بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هُوِيّ الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمة. لأمر ما جاءت العصا. فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدَّر بالملِك إلى حتفه، على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء. فقال عمرو: وأي ثأر يُطْلَب من الزباء، وهي أمنع من عُقَاب الجو؟ فقال قصير: قد علمتَ نصحي كان لخالك، وكان الأجل رائده. والله لا أَني عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أُدْرِك به ثأرًا أو تُخْتَرَم نفسي فأُعْذَر. ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤْتَى مِثْلُكِ في مثله. ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتكِ مستجيرًا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه

بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتَهَدَّدني بالقتل. وإني خَشِيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك. فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرتْ به فأُنْزِل، وأَجْرَتْ له الأنزال ووصلتْه وكستْه وأخدمتْه وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصرٍ مَشِيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يومًا: إن لي بالعراق مالاً كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنتِ لي في الخروج إلى العراق وأعطيتِني شيئًا أتعلل به في التجارة وأجعله سببًا للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنت له وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادها مالاً إلى مالها كثيرًا، وقدِم عليها فأعجبها ذلك وسَرَّها وتَرَتَّبَ له عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدِم بأكثر من ذلك طُرَفًا من الجواهر والبَزّ والخَزّ والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقدِم بأكثر من الأُولَيَيْن ظرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليه وعوَّلت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصينًا لبيبًا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرجْ

إلى العراق فأْتِني بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والثيــاب. فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذي سألتِ. فأعطتــه من المال ما أراد وقالت: يا قصير، الــمُلْك يحسن لمثلك، وعلى يــد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيرادُه وإصــدارُه إليكم، وما تَقْصُر يدك عن شيء تناله، ولا يقعد بك حال ينهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكّنه من قلبها قال: الآن طــاب المِصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدي فقال: قــد أصــبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجِّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْــمَع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلَّط. فعمد إلى أَلْفَيْ رجل مــن فتيــان قومــه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعــير في الغرائــر الــسود وألبسهم السلاح والسيوف والحَجَف وأنــزلهم في الغرائــر وجعــل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمــرو فــيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجــال في الغرائــر متسلحين بالسيوف والحَجَف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزبــاء

فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الرُّبُط. فلما قربت العِير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهادى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشِيَ بقصير إليها وحُذِّرَتْ منه، فقالت للواشى به: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة، وصنيعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشْيِها وئيدًا؟ أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرجال في الْمُسُوح سُودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسطت الإبلُ المدينة وتكاملت ألقَوْا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بأَلْفَيْ باترٍ طالب ثأر القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَع تريد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينهما وبينه. فلما رأت أنْ قد أُحِيط بها ومُلِكَتْ التقمت خاتَمًا في يدها تحت فَصّه سُمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكت، وملكا مملكتها واحتويا على نعمتها. وخَطَّ قصير على جذيمة قبرًا وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تمتَّعَ بالعساكر والقنا والمشرفيّةِ، عِزُّه ما يُوصفُ
فسعت منيّته إلى أعدائه وهو المتوّج، والحسام المرهفُ

الأمثـــال

"الأمثال" جمع "مَثَل"، وهو جملة مـــن القـــول مقتطَعـــة مـــن كلام أو مرسلَة لذاتها تُنْقَل مما وردت فيه إلى مُـــشَابِهه دون تغـــيير بغية الاستشهاد بها. وبعض الأمثال قد يكون مـــسجوعا متوازنـــا، وإن لم يكن هذا شرطا لا بـــد منـــه. وتمتـــاز هـــذه الجملـــة بأنهـــا تلخّص الموقف أو الجدال أو التعليق وتَحْسِمه علـــى خـــير وجـــه، وبأنها قصيرة لا تتجـــاوز بـــضع كلمـــات، وبأنهـــا مـــن الحيويـــة والسلاسة وحلاوة الـــصياغة وبراعـــة التـــصوير وتعـــدُّد الأبعـــاد بحيث يُكْتَب لها السيرورة والانتشار على ألسنة النـــاس، وبأنهـــا لا تخلو فى كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وقد كتب حنا الفـــاخورى زاعمـــا أن الأمثـــال الجاهليـــة، لكونها "كلام الشعب فى جميع طبقاتهم، فقـــد جـــاءت فى أكثرهـــا غير مصقولة كما فى قولهم: أول مـــا أَطْلَـــعَ ضَـــبٌّ ذَنَبَـــه" (حنـــا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربى/ **202**). وهـــذا حكـــمٌ جُـــزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس فى عبارة المثـــل الـــذى أورده مـــا يدل على ركاكة أو ضعف فى الصياغة البتـــة، بـــل تجـــرى علـــى فحولة الصياغة العربية. وفى كتب النحـــو والـــصرف كـــلام عـــن هذا التركيب يجده القارئ فى نهاية باب المبتـــدإ والخـــبر، إذ يـــذكر العلماء عدة مواضع يجب فيهـــا حـــذف الخـــبر منـــها أن يكـــون

المبتدأ مضافا إلى مصدرٍ عاملٍ فى اسمٍ مفسِّرٍ لضميرٍ له حال لا يصح ورودها خبرا، مثل: "أَكْثَرُ شُرْبِى السَّوِيق ملتوتا" و"أَخْطَبُ ما يكون الأمير قائما"، والمثل الذى بين أيدينا يقترب جدا من المثال الأخير كما نرى، إلا أن المعمول هنا (وهو "ذَنَبه") مفعول لا حال. ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عاديّة لقلنا: "أول شيء يُطْلِعه الضَّبُّ من جحره هو ذَنَبُه". ومثله قول العقاد فى قصيدة "الشاعر الأعمى": "وأَظْلَمُ ما نال العَمَى جفنَ شاعرِ". وعلى هذا فكلام الفاخورى مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقى ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفى وعامر بن الظَّرِب، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها فى خطاباتهم". بل إننى لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به الفاخورى. أما قول الدكتور شوقى ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدرا من المصادر التى اعتمدوا عليها فى استخلاص قواعدهم لا أن يحكِّموا تلك القواعد فى مثل هذه النصوص

الجاهلية التى يصعب أن يكون قد دخلها تغـيير يُـذْكَر، إن كـان قد دخلها أى تغيير على الإطلاق كما قـال الأسـتاذ الـدكتور نفسه (د. شوقى ضيف/ العـصر الجـاهلى/ 404، 408)، علـى عكس ما يؤكـد ك. أ. فـارق (K. A. Fariq) فى الـصفحة الثالثـة والـثلاثين مـن كتابـه: "History of Arabic Literature"، إذ يقول إن النثـر الجـاهلى كلـه (بمـا فيـه الأمثال طبعا)، شأنه شأن الـشعر فى ذلـك العـصر، قـد دخلـه تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبـدّلوه وأضـافوا إليـه وحذفوا منه وشوّهوه، وذلك دون أن يـدعم زعمـه هـذا بـأى برهان، على الأقل فيما يخـص الأمثـال الـتى، نظـرا لإيجازهـا الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بهـا والحـرص التـام على استعمالها كما نُطِق بها لأول مـرة دون أى تحـوير، يـصعب جدا جدا أن ينالها شيء من هذا الـذى قـال. وسـوف نتوسـع بعض التوسع فى معالجة النقطة الخاصـة بـدعوى مخالفـة الأمثـال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوى: وهنـاك ألفـاظ كـان الجـاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابـة، لا فى وَقْعهـا علـى الأذن ولا فى وقعها على الذهن، ولا تـشكِّل لهـم مـن ثَـمّ أيـة صعوبة فى فهم دلالتها، بَيْدَ أن الأمـر الآن قـد تغـير، فأضـحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآضَتْ بحاجة إلى مـن يـشرح للقـراء

معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شــىء فى الحيــاة، فيمــوت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليهــا ألفــاظ لم تكــن معروفــة من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كمــا هــو الحــال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعــضا مــن تلــك الألفــاظ الــتى تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصرى، إمــا لأنهــا غريبــة عليــه تماما، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليــه فى ذاتهــا، فهــى غريبــة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعنى فى لغتنا الحاليــة معــنى آخــر غير الذى كان لها قبلا، أو هــى غريبــة عليــه بــصيغتها لكونــه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هــذا النــوع مــن الألفــاظ "الاحتلاط: الغضب" (أوَّل العِيّ الاحــتلاط)، و"القَــيْن: الحــداد" (إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح)، و"الــصَّرِيح: اللــبن الــذى ليس فوقه رُغْوَة" (أَبْــدَى الــصريحُ عــن الرُّغْــوة)، و"العِــذْرة: العُذْر"، و"الحَقِين: الوَطْب الــذى يُحْقَــن بــاللبن" (أَبَــى الحَقِــينُ العِذْرة)، و"ارْجَحَــنّ: مــال" و"الــشّاصِى: الرافــع رجلــه" (إذا ارْجَحَنّ شاصيًا فارفع يــدا)، و"القِــدْح: الــسهم الــذى كــانوا يستقسمون به، أى يحاولون أن يعرفوا به الغيــب حــسبما كــانوا يتوهمون" (أَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحك)، و"الــشِّرْب: نــصيب الــشخص أو الحيوان من الماء" (آخِرُهــا أقلُّهــا شِــرْبا)، و"العِقْــى (وجمعــه "أَعْقاء"): ما يخرج من الصبى عند ولادتــه" (احْــذَر الــصبيان لا

تُصبِكَ بأعقائها)، و"الذِّلّ (وجمعه "أذلال"): السهولة" (أَجْرِ الأمور على أذلالها)، و"الحَسّ: الاستئصال"، و"الأَسّ: الأصل" (أَلْصِق الحَسّ بالأَسّ)، و"السَّلَى: مشيمة الحُوَار، وهو الجَمَل الوليد" (انقطع السَّلَى فى البطن)، و"الوَذَم: سيور تُربَط بها أطراف العَرَاقِىّ، وهى الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يُحْمَل منهما، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخّرة، والمفرد: عَرْقُوَّة" (أُمِرَّ دون عُبَيْدَة الوَذَمُ: لم يستشره أحد فى الأمر لهوان شأنه)، و"البَعَاع: المتاع والثقل" (ألقى عليه بَعَاعَه: ألقى عليه نفسه من حُبّه له)، و"الزُّخَارِىّ: النبت عند ارتفاعه" (أخذت الأرض زُخَارِيَّها: اكتملت وبلغت الغاية)، و"الرَّطِيط: التذمر" (أَرِطِّى، إن خيرك فى الرَّطِيط)، و"العَقَنْقَل: المُصْران" (أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ: أعطه من كل ما معك مهما يكن تافها)، و"حَظَبَ يَحْظُب: سَمِنَ" (اُعْلُل تَحْظُب)، و"النَّجيث: ما كان خافيا فظهر" (بدا نجيث القوم)، و"الحُذَيّا: العطيّة" (بين الحُذَيّا والخُلْسَة: إما أن تعطيه مما معك وإما اختلسه منك، أى أنه لا فَكَاك من أخذه منك ما معك)، و"الطِّرّيقة: اللين والضعف"، والعِنْدَأْوَة: العِنَاد" (تحت طِرّيقته عِنْدَأْوَة)، و"الثَّأْطَة: الطين" (ثأطةٌ مُدَّتْ بماء: بمعنى "زاد الطينَ بِلّة")، و"الجَدْح: الشُّرْب" ("جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيقِ غيره". وجُوَيْن: اسم شخص، والسَّوِيق نوع من الطعام)،

و"القُذَّة: الريشة التى تركَّب على السهم" (حَــذْوَ القُــذَّة بالقُــذَّة)، و"هَرَاق: أَرَاق" ("خَلِّ سبيلَ مَــنْ وَهَــى سِــقاؤه، ومَــنْ هُرِيــق بالفلاة ماؤه"، لأنه لا أمــل فى صــلاحه)، و"اليَلْمَــع: الــسراب" (أَخْذَل من يَلْمَع)، و"الدَّبَرِىّ: الــذى يــأتى بعــد فــوات الأوان" (شرّ الرأى الدَّبَرِىّ)، و"الحَقْحَقَة: السَّيْر الــسريع الــشديد" (شــرّ السير الحَقْحَقَة)، و"الجِرْوة: النَّفْس" (ضَرَب علــى الأمــر الفــلانى جِرْوَته: وطَّن نفسه عليــه)، و"الهِلْباجــة: النــؤوم الكــسلان، أو الثقيل الجــافى" (أعجــز مــن هِلْباجــة)، و"غَشَمْــشَم: غَــشُوم" (غشمشمٌ يَغْشَى الشجر: يُفْسِد كل شــىء ولا يبــالى، كــالثور فى محل الخزف)، و"القُرَاب: القُرْب" (الفِرَار بقُرَابٍ أكــيس: الفــرار قبــل التــورط فى المهلكــة أفــضل مــن التمــادى فى الأمــر)، و"القَطُوف: البطــىء المتــأنى فى مــشيته"، و"الوَسَــاع: المــسرع السابق" (القَطُوف يَبْلُغ الوَسَــاع: قــد يلحــق المتــأنى المتعجِّــلَ)، و"الكِفْت والوَثِيَّة: القِدْر الــصغيرة والكــبيرة" (كِفْــتٌ إلى وَثِيّــة: تقال لمن لا يكتفى بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بــل يُلْحِــق بــه مكروها آخر)، و"البضَاع: الجِمَاع" (كمعلِّمــةِ أمهــا البِــضَاع)، و"جَلَل: صغير" (كلُّ شــىءٍ أخطــأ الأنــفَ جَلَــل)، و"اليَهْيَــرّ: السراب" (أكْذَب من اليَهْيَــرّ)، و"لِحَــام: لحــوم" (لكــنْ لِحــامٌ بشَرْمَةَ لا تُجَنّ)، "بَلِلْت: ابْتُلِيت" (ما بَلِلْــتُ مــن فــلان بــأَفْوَقَ ناصِل: ظهر أنه رجل صعب المراس. والأفــوق الناصــل: الــسهم

المكسور)، و"وَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَة لا من التوديع" (من لم يَأْسَ على ما فات ودَّعَ نفسه)، و"العَبَكَة: ما يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها" (ما أُبَاليه عَبَكَةً)، و"مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع"، أى لاطئٌ بالأرض ينتهز فرصة ليثب على عدوه، و"تعَظْعَظَ: اتَّعَظ" (لا تَعِظِينى وتَعَظْعَظِى).

وثمة جانب فى الأمثال يحسن أن نتناوله ضمن ما نتناول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية. والواقع أن مثل هذه الألفاظ لا تظهر بقوة فى الأمثال الجاهلية ولا فى الأمثال العربية الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منها فى الأمثال الجاهلية التى وقعت لى فى كتاب "جمهرة الأمثال" لأبى هلال العسكرى إلا "الضُّرَاط" و"الاسْت" و"الخُرْء"، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ فى حد ذاتها. وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيرا فى كلام الجاهليين نظرًا لخشونتهم وبداوتهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جاء شيئا آخر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقا لما تقوله أمثالهم فى هذا الشأن. وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين فى تلك الأمثال: "أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟"، "أَضَرِطًا آخر اليوم؟"، "اسْتُ البائن أعلم"، "اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، "قد يَضْرِط العَيْرُ والمِكْواة فى النار"، "خَرِئَتْ بينهم الضبع".

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صــرفية وتراكيــب نحويــة لم تعد تستخدم الآن، مثل اســتعمال "لــيس" فى موضــع حــرف العطف "لا" كما فى المثل التالى: "إنما يَجْزِى الفتى لــيس الجمــل"، وهو استعمال لـــــ"لــيس" لا يعرفــه كــثير منــا، يــضاف إلى استعمالها أداة استثناء كما فى قولنا: "قام الطــلاب لــيس عَلِيًّــا"، أى قاموا إلا عَلِيًّا. ومن هذه التراكيب أيــضا حــذف خــبر "أَنَّ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم مــن الــسياق كمــا فى الشاهد التالى: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لــو أن أُسَــيْمِرًا"، إذ المعــنى أن هذا المكان هــو فعــلا المكــان الــذى يــسمَّى "شــرجًا"، إلا أن الأُسَيْمِر (أى شجرات السَّمُر) التى كنــت أعبــدها فيــه ليــست موجودة. وتمام الكلام إذن هــو: "أَشْــبَهَ شَــرْجٌ شَــرْجًا لــو أن أُسَيْمِرًا كنت أعبدها من قبل كانت هنــاك". ولعــل القــارئ قــد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع فى "أَسْمُر" (جمــع "سَــمُرَة")، وتــصغير صِيَغ الجمع كمــا هــى (أى دون ردّهــا إلى صــيغة المفــرد أوّلاً) ممنوع بوجه عام فى اللغة العربية حسبما هــو معــروف، اللــهم إلا ما نَصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القِلّــة، ومنــها صــيغة "أَفْعُل" التى بين أيدينا. كذلك يعرف الملمّــون بــالنحو العــربى أن هناك مواضع تحذف فيها "كان" واسمها، لكــن لــيس مــن بينــها "إلا"، التى نلاحظ فى الشاهد التــالى كيــف أن قائــل المثــل قــد حذف بعدها "كان" واسمها مثلما يحذفهما العرب بعد "لــو" كمــا

فى قول الرسول الكريم مثلا: "التمس ولـــو خاتَمًـــا مـــن حديـــد"، أى ادفع أى مهر حتى لوكان هذ المهر مجرد خـــاتَمٍ مـــن حديـــد لا قيمة له، وكذلك بعد "إنْ" المكـــرَّرة كمـــا فى مثـــل قولـــه عليـــه السلام: "الناس مجزِيُّون بأعمـــالهم: إِنْ خَيْـــرًا فخَيْـــرٌ، وإِنْ شـــرًّا فشَرٌّ"، أى إن كان العمل المجزِيّون بـــه خـــيرًا فـــالجزاء خَيْـــرٌ، أو كان هذا العمل شرًّا فالجزاء شَرٌّ. ونَـــصّ المثـــل هـــو: "إلاّ حَظِيَّـــةً فلا أَلِيَّةٌ"، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظـــوة عنـــد مـــن تريـــد أن يكرمك فلا تَأْلُ أن تتودد له". ومن الشواهد الـــتى جـــاءت فيهـــا " كان" واسمها محذوفين قولهم فى المثل التالى: "قـــد قيـــل ذلـــك إنْ حقًّا وإنْ كذبًا"، أى قيل ما قيـــل، وانتـــهى الأمـــر، ســـواء كـــان الكلام المَقُول حقا أو كذبا. كذلك انظـــر إلى المثـــل التـــالى: "أنـــا غَرِيرُك من الأمر" (ومعناه: "أنا عالم بالأمر علمًـــا يجعلـــنى أجيبـــك فى أى أمر منه حتى لو كان سؤالك على حين غِـــرّة") كيـــف أدى التركيبُ فيه إلى المعنى المقصود رغـــم أنـــه لا يـــدل عليـــه دلالـــة مباشرة لا تُحْوِج إلى شرح. وهناك أيـــضا المثـــل التـــالى بتركيبـــه الذى لا يقابلنا فى فصحانا المعاصرة رغـــم اســـتمراره فى العاميّـــة: "أَعْوَرُ، عَيْنَكَ والحَجَرَ"، فهو يدل على التحذير من خطـــر يتهـــدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذى يمكن أن يـــصيب عـــين الأعـــور، مع ملاحظة أن كـــلا مـــن المهـــدِّد (الحجـــر) والمهـــدَّد (العـــين) منصوب كما هو واضح. وهـــو تركيـــب لا يـــستعمل الآن إلا فى

العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التى تقابلنا فى النصوص القديمة كثيرا. ولا تنس أن أداة النداء قد حُذِفت كذلك فى النص، إذ الأصل: "يا أعور"، والمقصود: "أيها الأعور، احذر أن يصيب عينَك الوحيدةَ الباقيةَ حجرٌ يذهب ببصرها أيضا فتصبح أعمى تماما".

أما فى قولهم: "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلة؟" فقد حُذِف الفعل وفاعله، وهو استنكار لجمع الشخص بين خَلّتين سيئتين فى تعامله مع الناس بدلا من الاقتصار على واحدة منهما ليست فى ذاتها بالقليلة. ومثله قولهم فى مثلٍ آخر: "أغَيْرَةً وجُبْنًا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذى يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عِرْضه للعدوان. وهناك صيغة صرفية قابلتنى فى الفعل: "أَنْجَدَ" من قولهم: "أَنْجَدَ من رأى حَضَنًا" (إشارةً إلى الوصول إلى الغاية)، وهى صيغة "أَفْعَلَ" للفعل الماضى المشتق من اسم بلدٍ ما أو مدينةٍ من المدن، كقولهم: "أَعْرَقَ، وأَشْأَمَ، وأَعْمَنَ، وأَيْمَنَ، وأَمْنَى"، أى وصل العراق أو الشام أو عمان أو اليمن أو مِنًى أو شارف الوصول. و"حَضَنٌ" اسم جبل مشهور فى نجد. وثمة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً فى الموضع الذى جاءت فيه، وهى صيغة "أفعال" فى قولهم: "أجناؤها أبناؤها" (جمع "جانٍ" و"بانٍ") بدلا من "جُنَاتُها بُنَاتُها"، أى أن من جَنَوْا عليها (أى

هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بَنَوْهــا. وهــى صــيغةٌ جمعيــةٌ قليلةُ الاستعمال فى هذا الموضع حسبما قلنــا كمــا فى "صــاحِب: أصحاب" و"شاهِد: أشهاد"، ولكنها ليــست خاطئــة كمــا قــد يُفْهَم من كلام د. شوقى ضيف، الــذى علــق علــى هــذا المثــل قائلا إن "القياس "جُنَاتُها بُنَاتُهــا" لأن "فــاعِلاً" لا يُجْمَــع علــى "أفعال"..." (د. شوقى ضيف/ العــصر الجــاهلى/ **408**)، وفاتــه أن القرآن نفسه قد استخدم "أشــهاد" فى موضــعين منــه (هــود/ **18**، وغافر/ **51**)، ومثلها "أصحاب"، التى تكــررت فيــه نَيِّفًــا وسبعين مرةً، وهما جمع "شاهِد" و"صاحِب" على التــوالى، ولــيس بعد قول الله قول. كذلك ذكر عبــاس أبــو الــسعود فى كتابــه: "الفيصل فى ألوان الجمــوع" (دار المعــارف/ **1971**م/ **40**) أنــه ورد عن العرب أيضا "قابِس: أَقْباس" و"جاهِل: أَجْهــال". أمــا فى قولهم: "إذا جاء الحَيْن، حَــارَ العــين" فــنلاحظ تــذكير الفعــل: "حَارَ" رغم إسناده لمؤنث، وهــو اســتعمال صــحيح لأن لفظــة "العين"، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازى، أى أنهــا ليــست كائنــا حيًّا له عضو أنوثة كالمرأة والدجاجة مثلا، ومــن ثم جــاز فى لغــة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر اكتفاؤهم بالحــال فقــط مــن بين أركان الجملة جميعا كما فى المــثلين التــاليين: "أضَــرِطًا وأنــت الأعلى؟"، "أضَرِطًا آخر اليوم؟". أمــا فى قــولهم فى المثــل التــالى:

"اقْلِبْ قَلابِ" (أى اقلب الكلام وعُدْ إلى ما قلتُه من قبل. وهو مثل يُضْرَب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها) فعندنا صيغة "فَعَالِ" التى تعنى "افْعَلْ"، مثل "دَرَاكِ"، "نَزَالِ"، أى أَدْرِكْ، وانْزِلْ. ومن أسماء الأعلام التى قابلتنى فى أمثال الجاهليين على هذه الصيغة أيضا اسم "عَرَارِ"، وهو من أسماء الأعلام المؤنثة، وقد ورد فى المثل التالى: "باءت عَرَارِ بكَحْل"، أى أن عرارِ وكحلاً بقرتان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فإذا أَخَذْتَ هذه بدلا من تلك، أو تلك بدلا من هذه، لم تخسر شيئا. ولنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فاعلا، قد بُنِىَ على الكسر، وهذا إعرابه دائما فى لغة الحجازيين مهما تغيرت وظيفته فى الجملة. ومنه أيضا ما ورد فى الأمثال التالية: "اِسْقِ رَقَاشِ، إنها سقّاية" (اسم امرأة كريمة)، "القولُ ما قالت حَذَامِ" (اسم امرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أجرأ من خاصى خَصَافِ" (اسم فرس خصاه صاحبه كى لا يأخذه منه ملك أعجبه الفَرَس وأراد أن يستولى عليه)، "رُوغِى جَعَارِ، وانظرى أين المفرّ" (اسم عَلَمٍ على الضبع)، "أَزْنَى من سَجَاحِ" (وهى الكاهنة التميمية المشهورة التى ادعت النبوة عند موت النبى عليه السلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لها مع مسيلمة الكذاب قصة معروفة هى التى شَهَرَتْها بهذا المثل)، "صَمِّى صَمَامِ" (اسم

للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعبيرا عن الضيق بها والرغبة فى انقشاعها). بيد أن هذه الصيغة لا تبلغ غرابة صيغة "فُعَّيْلَى" التى نقابلها فى الشاهد التالى مرتين: "الأخذ سُرَّيْطَى، والقضاء ضُرَّيْطَى"، أى هو فى الاستدانة لطيف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصًا شَكِسًا سَيِّئ الذمة. وفى قولهم: "أخذه الله أخذ سَبْعَة" نراهم يسمون اللبؤة: "سَبْعة" (تأنيث "سَبْع")، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومَثَلُها فى هذا مَثَلُ "رَجُلَة" (مؤنث "رَجُل") بدلا من "امرأة".

وفى بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحرف "ما" قبل الفعل المتأخر عن شبه الجملة، وذلك لتأكيد المعنى، ومثله قولهم: "باليدين ما أَوْرَدَها زائدةُ" (و"زائدة" اسم رجل)، "بِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّك"، "قبلك ما جاء الخبر"، "لك ما أبكى، ولا عَبْرَةَ بى"، "وبالأشْقَيْنَ ما حَلَّ العِقَابُ". كما أن هناك مثلا واحدا على الأقل تكررت فيه "بين" مع اسمين ظاهرين على خلاف ما يدعى بعض اللغويين المتنطّسين من أن مثل هذا التكرار لا تجيزه العربية، ثم اتضح لى منذ سنوات غير قليلة أن ذلك غير صحيح، إذ وجدتُ فى الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى عشرات الشواهد التى تدل على أنه ليس فى هذا التكرار ما يعاب من جهة الأسلوب العربى الأصيل، وإن لم يرد ذلك التركيب فى القرآن، إذ القرآن الكريم لا يستوعب، كما هو

معروف، كل إمكانات اللغة، فهو كتاب سماوى لا معجم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بين المطيع وبين المُدْبِر العاصى"، أى أنه لا يوثَق بموقفه، فهو متذبذب بين الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى فى طريقها. ومن التراكيب التى قابلتنى هنا أيضا وأرى أنه ينبغى التلبث عندها قليلا التركيب الذى عليه المثلان التاليان: "جَارِى بَيْتَ بَيْتَ"، "وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ"، ببناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صباحَ مساءَ"، "ليلَ نهارَ"، "أحدَ عشرَ". وقد أجريتُ التعبير العامى: "خَبْطَ لَزْقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعِّما الفصحى به على طريقتى فى إغناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف. ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اذهب إلى المكان الفلانى جَرْىَ جَرْىَ"... وهكذا.

ومما لفت انتباهى من التراكيب التى قابلتنى فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شيئًا إلى الإنسانِ ما مُنِعَا"، الذى استُخْدِم فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أفعل التفضيل" (هكذا: "أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا")، مع نَصْب "شيء" لا جَرّه كما يلاحظ القارئ. وهناك أيضا تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة فى الشواهد التالية من أمثال

العــرب القــدماء، وهــى: "فتًــى ولا كمَالِــكٍ"، "مَرْعًــى ولا كالسّعْدان"، "مــاءٌ ولا كــصَدّاء"، فالاســم الــذى بعــد "ولا" مفضَّل على ما قبلها. وقريب منــه قــولهم: "المنيَّــةُ ولا الدنيَّــة"، "النارُ ولا العارُ"، وإن كان التفــضيل فى هــذا التركيــب الأخــير للمذكور أوّلاً، وهو "المنيّــة" و"النــار" علــى الترتيــب. أمــا فى المثلين التاليين اللذين يجريان فى تركيبهما علــى ذات المنــوال فــإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففــى قــولهم: "مرعًــى ولا أكولــةٌ"، و"عشبٌ ولا بعيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقــصود التحــسر علــى توفر المرعى والعشب بغــزارة، ولكــن دون فائــدة، إذ لا وجــود للماشية التى يمكن أن تأكله. وبالنسبة لكلمة "رُوَيْــد" فــلا أظننــا الآن نعرفها إلا فى قولنا: "رُوَيْدًا يا فلان" أو "رُوَيْــدَك يــا فــلان"، بَيْدَ أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيهــا أوســع مــن ذلــك كما فى المثلين التاليين: "رُوَيْدَ الشِّعْرَ يَغِــبَّ" (انتظــر قلــيلا حــتى ينتشر الشِّعْر بما فيــه مــن مــدح أو هجــاء ويعمــل عملــه فى العقول)، "رُوَيْدَ الغَزْوَ ينمرقْ". ولاحــظ كيــف أن الاســم بعــد "رُوَيْدَ" يكون منصوبا. وللنحاة فى هذا التركيــب كــلام يعللــون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغــى أن نجــرى مــع تقــديرات النحاة التى لا تسير على منطــق اللغــة الواضــح المــستقيم، بــل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقــع بعــد"رُوَيْــدَ" ("رُوَيْــدَ" دون تنوين) يكون منصوبا، والــسلام، وذلــك دون أن نعنّــى أنفــسنا

بالبحث عن السبب فى هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلى هذه الكلمةَ فعلٌ كما فى المثل التالى: "رُوَيْدَ يَعْلُون الجَدَد"، أى ارفق حتى يمكننى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق أنفسنا مع الصرفيين فى توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقًا لما يقول به بعضٌ أو "إرواد" بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم أيضا على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعْلَى"، إذ لا يفد على ذهنى منها الآن إلا "العُقْبَى" (أى "العاقبة") و"الشُّورَى" و"النُّعْمَى" (أى "النعمة")، و"البُقْيَا: أى الإبقاء"، و"الدنيا". وفى القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُّجْعَى" (بمعنى "الرجوع") و"السُّوأَى" (أى "السُّوء")، و"اليُسْرَى"، و"العُسْرَى". ومن أسماء النساء عند العرب "سُعْدَى" و"سُلْمَى"، وفى الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضا "رُغْبَى" و"رُهْبَى": "رُهْباك خيرٌ من رُغْباك"، أى رهبتك خير من رغبتك. والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَفَيْدَد: الظليم (أى ذَكَر النعام)" فى المثل التالى: "أَشْرَه من خَفَيْدَد" فقد جاء على صيغة لا أظننى قابلت اسما آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن

أتذكر اسما من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كـــان هنـــاك "سَـــمَيْدَع: الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب الـــتى وجـــدها فى أمثـــال الجـــاهليين أيـــضا قولهم: "عَدْوَكَ إذ أنت رُبَع" لتحميس الشخص ليبذل أقـــصى مـــا عنده كما كان يفعل أيـــام الـــشباب والحيويـــة. و"العَـــدْو" هـــو الجرى السريع، و"الرُّبَـــع" هـــو الجمـــل فى شـــبابه. والـــشاهد فى الكلام هو نصب "عَدْوَك" على الإغـــراء، والإغـــراء بـــاب مـــن أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيـــب ممـــا ينتـــشر فى الأسلوب العصرى على نطاق واسع. أما المثـــل القائـــل: "عـــسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًـــا" فهـــو يخـــالف القاعـــدة العامـــة الـــتى تقـــول إن خبر"كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلـــها مـــضارع: مـــع "أَنْ" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنـــا مفـــرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا "عـــسى" فى هـــذا المثـــل مجـــرى "كـــان" وأخواتها. وبالمناسبة فهذا المثل هو أحـــد الـــشواهد فى كـــثير مـــن كتب النحو على ذلـــك الاســـتعمال. وهنـــاك اســـتعمال آخـــر لـــــ"عسى" يسوّيها بـــــ"لعلّ"، فينصب اسمهـــا ويرفـــع خبرهـــا، الذى يمكن فى هذه الحالة أن يكون مفردا أو شبه جملـــة، ومنـــه مـــا كنا نسمعه من السعوديين حـــين يهنـــئ بعـــضهم بعـــضا بالعيـــد فيقولون: "عساكم من عُوّاده". وبالمثل نجد أهـــل اللغـــة المهـــتمين بصحة الأساليب يخطِّئون مجىء "لا" بين "قـــد" والمـــضارع قـــائلين

إنه ينبغى فى هذه الحالة الاستعاضة بـ"ربما" عن "قد" فلا يقال مثلا: "قد لا ألعب"، بل لا بد من تغييرها إلى "ربما لا ألعب". وقد غَبَرَ علىّ زمن كنت أخطِّئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكم لا معنى له، كما وجدت فى كتاب محمد العدنانى: "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى هذا نَصُّه:

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتنى وقد لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا

وهو مَثَلٌ يُضْرَب للشىء الرائع الذى لا يخلو أن يجد من يعيبه رغم هذا، وإن كانوا يحذفون منه "قد". وهناك بيت آخر للنمر بن تَوْلَب الشاعر المُخَضْرَم، أورده العدنانى أيضا، ونصه:

وأَحْبِبْ حبيبك حُبًّا رُوَيْدًا فقد لا يَعُولك أن تَصْرِما

إلى جانب عبارتين لابن جنى وابن مالك صاحب الألفية، وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لى، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية مجتهدا ما استطعتُ مقاومة الملل والضيق أثناء بحثى عن الشواهد المرادة، لكنى، فى حدود ما تنبهتُ وغالبتُ ملل البحث فى أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفى الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لى أنا شخصيا مما لا أُلْزِم به غيرى

تجنُّبَ استعمال ذلك التركيب فى كتاباتى بما فيها الرسائل الشخصية التى لم أكن أتحرز فيها تحرزى فى الكتابات الرسمية والأدبية، والعَوْد أحمد كما يقولون. بَيْدَ أننى قد عثرت رغم ذلك بالمَثَل التالى أثناء قراءتى لكتاب أبى هلال العسكرى الحالىّ: "جمهرة الأمثال"، وقائله رجل جاهلى هو سعد بن زيد مناة التميمى، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذى يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التى ساقها الأستاذ العدنانى، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يُقَاد بى الجمل". أى أننى لم أكن قبلا أحتاج إلى من يقود بى الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شِبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسى. فالمَثَل إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من حسرة بعد أن ضعفت قواه وولّى عنه الشباب.

وهناك مَثَلٌ لفت نظرى كونُه جملة اسمية خالية من أى فعل بما يعنى خلوها من التحديد الزمنى، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقا دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قَصْره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضى، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لكنْ بشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ". و"الجَدُود" هى القليلة اللبن، والمَثَل فى امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت

غنًى وكثرت عنــدها الماشــية ودَرَّت ألبانهــا، فأخــذت تتفــاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لتذكيرها بأيام فقرها حــين كانــت تــترل الموضع المسمَّى: "شَعْفَيْن"، كى تكف عن هــذا الفخــر الكريــه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتــضمن "أفعــل تفــضيل" مباشــرا مشتقًّا من فعل مبنى للمجهــول، وهــو مــا يرفــضه كــثير مــن الصرفيين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كــان لكــل قاعــدة شواذ كما نعرف، ومنــها الأمثــال التاليــة: "أَشْــغَلُ مــن ذات النِّحْيَيْن"، "أَقْوَد من مُهْر"، "أَمْنَع من عُقَاب الجــو". ونختــم هــذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد فى المثــل التــالى: "وِجْــدانُ الرِّقين يغطِّى على أَفَن الأَفِين"، أى أن غــنى الــشخص وامتلاكــه للرِّقين، وهــى الفــضة، يــستر علــى كــل عيوبــه وحماقاتــه. فـــ"الرِّقين" جمع "رِقَة"، وهو مــا يــسمى فى الــصرف بــالملحق بجمع المذكَّر السالم، لأن كلمة "الرِّقَــة" لا تتــوفر فيهــا الــشروط التى لا بد منها فى ذلك النوع من الجمــع، مَثَلُهــا فى هــذا مَثَــلُ "بُرَة: بُرُون– بُرِين"، "كُرَة: كُرُون– كُــرِين"، "عِــزَة: عِــزُون– عِزِين"، "عِضَة: عِضُون– عِضِين"، "مِئَة: مِئُــون– مِــئِين"، "رِئَــة: رِئُون– رِئِين"، "سَنَة: سِنُون– سِنِين"...إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقى لاحظنــا أن بعــض الأمثــال تعتمد السجع والجناس والطبــاق والموازنــة (كلــها أو بعــضها) بغية توفير الإيقاع الموســيقىّ والــذهنىّ لــضمان المتعــة والحفــظ

والسيرورة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه. وها هى ذى الشواهد على ما نقول: "اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردتَ المحاجزة فقَبْلَ المناجزة، "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ"، "إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُبْ"، "إذا جاء الحَيْن، حارَ العَيْن"، "اِرْقَ على ظَلْعك، واقْدِرْ بذَرْعك"، "أَرِنيها نَمِرَة أُرِكَها مَطِرَة"، "أَعْذَرَ من أَنْذَر"، "إن القُنُوع الغِنَى لا كثرة المال"، "إننى لن أَضِيرَه. إنما أطوى مَصِيرَه"، "استغنت التُّفَّة عن الرُّفَّة"، "بِعْتُ جارى، ولم أَبِعْ دارى"، "جاء بالطِّمّ والرِّمّ"، "جَدَّك لا كَدَّك"، "حال الجَرِيض دون القَرِيض"، "الخَلاء بَلاء"، "دُهْدُرَّيْن سَعْد القَيْن"، "رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل"، "ضَرْب أخماسٍ لأسداس"، "الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد"، "قُرْبُ الوِسَاد، وطُولُ السَّوَاد"، "كُلَّ الحِذَاءِ يحتذِى الحافى الوَقِع"، "لولا اللئام لهَلَكَ الأَنَام"، "ليس من العَدْل سرعة العَذْل"، "مَنْ لى بالسانِح بعد البارِح؟"، "المنايا على البلايا"، "مِنَ العَنَاء رياضة الهَرِمِ"، "هذا أوان الحرب، فاشتدِّى زِيَمْ"، "اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر".

ومن الجوانب الاجتماعية التى أريد أن أتناولها فى هذه الدراسة الأسماءُ التى كان العرب القدماء يتسمَّوْن بها، وقد وُفِّقْتُ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء: فأما الرجال، وليسمح لى الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أوّلاً جريًا

على العرف الاجتماعى وليس رغبة فى تنقصهن، فها هى ذى أسماؤهم التى تنبهتُ إليها أثناء تصفحى للأمثال الجاهلية (الجاهلية فعلاً أو ظنًّا) الموجودة فى كتاب العسكرى: "سَعْد"، "سُعَيْد"، "عُبَيْدَة"، "دَرِم"، "سَمْلَقَة"، "حُنَيْف"، "مالك"، "زيد مناة"، "عمرو"، "سالم"، "فَلْحَس"، "مادِر"، "سَحْبان"، "قُسّ"، "لقمان"، "المُرَقِّش"، "جُوَيْن"، "عُمَىّ"، "حاتم"، "هَرِم"، "كعب"، "هَبَنَّقَة"، "حُجَيْنَة"، "ربيعة"،"عَدِىّ"، "أبو غُبْشَان"، "جَنّاب"، "عِجْل"، "الأحنف"، "سِنَان"، "حُنَيْن"، "عُرْقوب"، "دُعَيْمِص"، "أسعد"، "فُطْرَة"، "إياس"، "أخزم"، "حُذَاجة"، "قَرْثَع"، "شِظَاظ"، "سَلاّغ"، "عائشة"، "عَثْم"، "مَرْقَمَة"، "جُفَيْنَة"، "حُمَيْق"، "عَوْف"، "كُلَيْب"، "مَرْوان"، "الشَّنْفَرَى"، "السُّلَيْك"، "باقِل"، "مُزَيْقِياء"، "عُتَيْبَة"، "قيس"، "عاصم"، "الحارث"، "حاجب"، "زُرَارة"، "سَدُوم"، "بِسْطام"، "كُلثوم"، "عامر"، "البَرّاض"، "ظالم"، "المُذَلِّق"، "الطُّفَيْل"، "ناشِرة"، "قَصِير"، "حَمَل"، "أَسْلَم"، "ضُبَارة"، "جَدْرَة"، "ابن تَوْضَع"، "الذئب"، "عصام"، "خُرافة"، "عَبّود"، "جَنّاب"، "خُرَيْم"، "حَيّان"، "حوثرة"، "خَوّات"، "الخُرْشُب"، "شَنٌّ"، "السَّمَوْأَل"، "جَذِيمة"، "النَّطِف"، "لُكَيْز"، "أَسْلَم"، "قَوْضَع"، "ضَبَارة"... إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها خَشِنٌ وَعْر، والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يؤسفنى من كل قلبى أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان الجاهليون بدوا خشنين، وكان معظم ما حولهم وَعْرا جافيا، فمن أين يمكنهم أن يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيئته وظروفه؟ ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية، ولنكن على ذُكْرٍ من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن اللاتى شغلن أفئدة الشعراء وأسهرهم الليالى يتقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن قرائحهم وألسنتهم بالقصائد الخالدة التى أبقت على ذكرهن طوال هذه القرون وستُبْقِى عليها إلى أبد الآبدين ما دامت هناك هذه اللغة العبقرية، لغة الضاد. وهذا بعض ما وجدتُه من أسماء لآنساتنا وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنا): "رَقَاشِ"، "حَذَامِ"، "سَجَاحِ"، "زرقاء"، "حَوْمَل"، "مارِخَة"، "أمّ خارجة"، "مَنْشِمِ"، "لَمِيس"، "مارية"، "حليمة"، "الزَّبّاء"، "أمّ قرفة"، "ظُلْمَة"، "صُحْر"، "عاتكة"، "شَوْلَة"، "خبيثة"... وهلمّ جرًّا. ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالىّ منها والنسائىّ، قد اختفت من حياتنا تبعا لتغير الأذواق

والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخى، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيجة كالتى تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعتز بها أيما اعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حول هذا الشخص أو ذاك لِخَلَّةٍ فيه أو لحادثةٍ وقعت له اشتهر بها بين العرب حتى ضُرِب به المثل، ومن ذلك الأمثال التالية، وكثير منها يقوم على المقارنة وأفعل التفضيل: "آبَلُ من حُنَيْف الحاتم"، أى أكثر إبِلاً، "أبخل من مادِر"، "أبصر من زرقاء"، "أبلغ من سَحْبان"، "أَتْيَسُ من تُيُوس تُوَيْت"، "أحزم من سِنَان"، "أحكم من لقمان"، "أحمق من أبى غبشان، أو من شَرَنْبَث"، "أَسْرَق من شِظاظ"، "أسَعْدٌ أم سُعَيْد؟"، "أَضْبَط من عائشة بن عَثْم"، "أطمع من فَلْحَس"، "أعظم فى نفسه من مُزَيْقِياء"، "أَفْتَك من الحارث بن ظالم"، "أَقْوَد من ظُلْمة"، "أنْكَحُ من حَوْثَرَة" (وهذا المثل يقال للشخص المِزْوَاج)، "أَنْعَم من حَيّان"، "أينما أُوَجِّه أَلْقَ سَعْدًا"، "بِيَدِى لا بِيَدِ عمرو"، "تجشَّأ لقمان من غير شِبَع"، "دَقُّوا بينهم عطر مَنْشِم" (أى ثارت بينهم حربُ شؤمٍ مُهْلِكة. ومَنْشِم امرأة كانت تبيع العطر، وهو عطر مشؤوم)، "دم سَلاّغٍ جُبَار"، أى هَدْر، "دُهْدُرَّيْن سعد القَيْن"، "رِدْ كعبُ، إنك وَرّاد" (يقال لمن كان على شفا الموت)، "شَبَّ عمرو عن

الطوق"، "شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم"، "صحيفة المتلمِّس" (وهى كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشيء تُخْشَى من ورائه الهلكة)، "صفقة لم يشهدها حاطِب"، "عادت لعِتْرها لَمِيس" (أى رجعت لعادتها القديمة)، "فى بيته يُؤْتَى الحَكَم" (أى أن لفلان من الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو)، "القول ما قالت حَذَامِ"، "لا حُرَّ بِوَادِى عَوْف"(يقال للسيد المستبد الذى لا ينهض له أحد)، "هما كنَدْمانَىْ جَذِيمة"، "ولو بقُرْطَىْ مارية" (يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دُفِع فيه أغلى ثمن)، "يا ويلتا! رآنى ربيعة"، "ما يوم حليمةَ بِسِرّ" (و"اليوم" هنا بمعنى "المعركة"، و"أيام العرب" هى معاركهم وحروبهم المشهورة، والمقصود بـ"يوم حليمة" المعركة التى ضَمَّخَتْ فيها الأميرةُ حليمةُ بنتُ الحارث بن جَبَلَة رجالَ جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوما مشهورا ضُرِبَ به المَثَل).

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضا: ومن أسماء المواضع التى وردت فى أمثال الجاهليين "أَبَان" (جبل)، "شَجِعَات"، "شَرْج"، "حَضَن" (اسم جبل)، "أَجَلَى"، "أَضَاخ"، "مكة"، "عَرَارِ" (اسم بقرة)، "كَحْل" (اسم بقرة أخرى)، "بَرَاقش" (اسم كلبة)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَتَان"

(وهو الاسم الذى أطلقه طه حسين على دارته فى الجيزة. وقد أخذه من المثل القائل: "تسألنى (أىْ ناقتى) برَامَتَيْنِ سَلْجَمًا"، أى تطلب شيئا ليس هذا موضعه)، "شُبَيْث"، "الأَحَصّ"، "ثَهْلان" (جبل)، "خُمَيْرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم هَضْبتين)، "صَدّاء" (اسم ماء)، "بَرِّيَّة خُسَاف"، "هَرْشَى"، "بَلْدَح"، "شَعْفان"، "لُبَد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرْج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفّان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "تَبَالَة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية فى الجزيرة العربية فى ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التى كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين. وفى كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرَوْن طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا. والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفةٍ فى مَثَلٍ مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة. ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذِكْرٌ لحيوان أو طير: فمنها "استَنْوَقَ الجَمَل"، "أَتْبِع الفَرَسَ لجامها"، "إذا نام ظالعُ الكلاب"، "أَرْغُوا لها حُوَارها تَقِرّ" (الحُوَار: ولد الناقة)، "أَصِيدَ القنفذُ أم لُقَطَةٌ؟"، "أَنْكَحْنا

الفَرَا، فسنرى" (الفَرَا: الحمار الوحشى)،"أخوك أم الذئب؟"، "أخذه الله أَخْذَ سَبْعة" (السَّبْعة: اللبؤة)، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ"، "أَطْرِقْ كَرَا، إن النعام فى القرى" (الكَرَا: الواحد من طيور الكِرْوَان. والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامى، بل أقصد قوما يستحقون الكلام)، "البُغَاث بأرضنا يستنسر" (البُغَاث: طير صغير ضعيف)، "أَذْنَى حماريكِ ازجرى"، "آمَنُ من حمام مكة"، " آلَفُ من غراب عُقْدَة"، "آكَلُ من سوس، أو من فأر، أو من حوت، أو من الفيل"، "بالت بينهم الثعالب" (ثار بينهم الشر)، "خَرِئَتْ بينهم الضبع" (نفس المعنى السابق)، "أَبْعَدُ من بَيْض الأَنُوق" (الأَنُوق: ذَكَر الرَّخَمَة)، "أَبْصَر من عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس"، "أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط"، "أَبَرّ من الهِرّة، أو من الذئبة"، "أبكر من الغراب"، "أبخل من كلب"، "أبلد من السُّلَحْفاة، أو من الثور"، "أبيض من دجاجة"، "أبخر من صقر، أو من فهد"، "أَبْوَل من كلب"، "تركته على مِثْل مِشْفَر الأسد" (أى عُرْضَةً للهلاك)، "تقلَّدَها طَوْقَ الحمامة" (لزمه عارها إلى الأبد)، "أَتْبَع من تَوْلَب" (ولد الحمار، لأنه يتبع أمه لا يفارقها أبدا)، "أتعب من راكب فَصِيل" (ولد الناقة، لأنه لم تتم رياضته بعد)، "أتخم من فصيل" (لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أَتْيَسُ من تيوس تُوَيْت"، "الثور يُضْرَب لَمّا عافت البقر" (يقال فى من يُؤْخَذ بذنب

غيره)، "أثبت من قُرَاد"، "أثقف من سِنَّوْر" (وهو القط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبدا)، "الجحشَ لَمّا بذَّك الأعيار" (اِرْضَ بما هو متاح لك واستَكْفِ به عما لا تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صِفْرِد، أو من كَرَوان (طائران)، أو من ثُرْمُلة (الثعلب)، أو من الهِجْرِس (القرد)، أو من الرُّبّاح (ولد القرد)"، "أجرأ من ذباب، أو من خاصِى الأسد"، "أَجْوَل من قُطْرُب" (دابة لا تكف عن التجوال ليلا أو نهارا)، "أَجْوَع من لَعْوَة (وهى الكلبة)، أو من الذئب، أو من قُرَاد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشة، أو من حمار، أو من عقرب، أو من نملة، أو من راعى ضأن"، "حمارٌ اسْتَأْتَنَ" (أى تحول إلى أَتَان، وهى أنثى الحمار)، "حتى يجتمع مِعْزَى الفِزْر" (الفِزْر: رجل تفرقت مِعْزَاه فى كل مكان، وهو مثل يُضْرَب للاستحالة)، "حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوَان" (مثل لمن يحال بينه وبين مراده. والنَّزَوَان: الوثوب)، "حُمَيِّر الحاجات" (للشخص الذليل المتهَن فى الأشغال الشاقة)، "أحمق من الضبع، أو من الرَّخِل (أنثى ولد الضأن)، أو من نعجة على حوض، أو من أم الهِنْبِر (والهنبر: الجحش، وأمه هى الأتان)، أو من الجهيزة (أى الذئبة)، أو من حمامة، أو من نعامة، أو من رَخَمة، أو من عَقْعَق"، "أكيس من الرَّخَمة"، "أحذر من قِرِلَّى (طائر يغوص فى الماء فيستخرج السمك)، أو من ذئب، أو من

غراب، أو من عَقْعَق، أو من ظليم (ذكر النعام)"، "أحزم من القِرِلَّى، أو من الحرباء"، "أَحْيَر من الضبّ، أو من الوَرَل" (وهما حيوانان إذا خرجا من جحرهما لم يهتديا إليه ثانية)، "أحيا من الضبّ" (أى أطول حياةً منه)، "أَحْوَل من الذئب" (لبراعته فى الحيلة)، "أحول من أبى راقش" (لأن ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أحرس من كلب"، "أحرص من ذئب، أو من كلب، أو من خنزير"، "أحطم من الجراد"، "أحقد من جمل"، "أحنّ من شارف" (وهى الناقة المسنّة)، "أَحْكَى من قرد"، "أَحْمَى من است النمر، أو من أنف الأسد"، "خَلِّه دَرَجَ الضبّ" (دعه على عماه)، "الخيل أعرف بفرسانها"، "الخيل مَيَامِين"، "الخروف يتقلب على الصوف" (مَثَلٌ يُضْرَب للتقلب فى النعمة)، "أخفّ من فراشة"، "أخفّ رأسًا من الذئب، أو من الطائر" (إذ أقل شىء يوقظهما)، "أخفّ حِلْمًا من بعير، أو من العصفور" (أى أنهما قليلا العقل)، "أخرق من الحمامة" (لأنها لا تحسن بناء عشها)، "أخلف من بول الجمل"، "أخلف من ثِيل الحَمَل" (الثِّيل: كيس عضو الحَمَل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أخلف من الصقر" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أخبث من ذئب الغَضَى"، "أَخْوَن، أو أَخْتَل، أو أَخَبّ من الذئب"، " أخبّ من ضبّ، أو من ثُعَالَة" (وثعالة: الثعلب)، "أَخْيَل من ديك، أو من غراب"، "أخطأ من ذباب، أو من

فراشة"، "أخطف من عُقَاب، أو من قِرِلَّى"، "أخشن من شَيْهَم" (وهو ذكر القنفذ)، "أَدَبّ من قُرَاد، أو من عقرب، أو من ضَيْوَن (أى السِّنَّوْر)، أو من قَرَنْبَى (دُوَيّبّة تشبه الخنفساء)"، "الذئب يُدْعَى: أبا جَعْدَة" (لا تغتر بما يظهره فلان من الكرم، فإنما هو كالذئب الغدار"، "الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل" (القليل إلى القليل يصبح مع الأيام كثيرا. والذَّوْد ثلاث نُوقٍ أو أكثر من ذلك قليلا)، "الذئب يَأْدُو للغزال" (يخدعه)، "ذلّ من بالت عليه الثعالبُ"، "أذلّ من عَيْر، أو من حمار مقيَّد، أو من بعير السانية" (أى الساقية)، "أرْوَى من نعامة (لأنها قليلة العطش)، أو من الضبّ (لأنه، كما يقولون، لا يشرب أبدا)، أو من حية، أو من الحوت"، "أرسح من ضفدع" (والرَّسَح: خفة العَجُز)، "أَزْنَى من هِجْرِس، أو من هِرّ"، "أزهى من غراب، أو من وَعَل (وهو التيس الجبلى)"، "سقط العَشَاء به على سِرْحان" (السِّرْحان: الذئب. أى أنه بدلا من أن ينال ما كان يبغيه قد أصابه مكروه)، "سواسية كأسنان الحمار" (فى الشر)، "سَمِّنْ كلبك يأكلك"، "أَسْمَع من سِمْع (ابن الذئب من الضبع)، أو من قُرَاد (لأنه، فيما يقولون، يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم)، أو من فرس (إذ كانوا يعتقدون أنه يسمع صوت الشعرة التى تسقط عن بدنه)"، "أَسْلَح من حُبَارَى، أو من دجاجة"، "أسبح من نُون" (أى الحوت)، "أسهر من جُدْجُد"

(صَرّار الحقل)، "أشمّ من النعامة، أو من ذئب، أو من هِقْل (ذكر النعام)"، "أشره من الأسد"، "أشرد من خَفَيْدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكر من كلب"، "أشدّ من الفيل"، "أشرب من الهِيم" (الإبل العطاش)، "أَصْوَل من جمل" (يُضْرَب به المثل فى شدة العضّ)، "أصبر من الضبّ، أو من حمار"، "ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَه" (يُضْرَب مثلا لمن لا يهتدى فى كلامه أو فى فعله. والدِّرْص: ولد الفأر، لأنه إذا خرج من جحره لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قَدْر استِها"، "أضلّ من ضبّ، أو من وَرَل"، "أطول ذَماءً من الضبّ، أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفساء" (لأنها لا تموت سريعا، بل تظل تتحرك فترة طويلة بعد قتلها)، "أَطْيَر من عُقَاب، أو من حُبَارى" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متناوحة فى زمنٍ جِدٍّ قصير)، "أَطْيَش من فراشة، أو من ذباب"، "أطفس من العِفْر" (الخنزير)، "ما بقى منه إلا ظِمْءُ حمار" (لم يبق فيه إلا القليل)، "أظلم من حية، أو من وَرَل" (لأنهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)،"أعزّ من بَيْض الأَنُوق، أو من الغراب الأعصم"، "أعطش من النقّاقة (أى الضفدع، لأنها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنه يكون فى القفر فلا يرى الماء أبدا)، أو من حوت"، "أَعْيَث من جَعَارِ" (وهى الضبع، فهى إذا وقعت فى الغنم أفسدت أيما إفساد)، "أعجل من نعجة

إلى حوض"، "أعمر من ضبّ (إذ كانوا يقولون إنــه يعــيش أطــول كثيرا من مائة عام)، أو من قُرَاد (فقد كانوا يعتقــدون أنــه يعــيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كــانوا يظنــون أنــه يعــيش خمسمائة عام)"، "أغرّ من ظــبيٍ مُقْمِــر"، "أَغْــوَى مــن غوغــاء الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أغلم من ضَــيْوَن" (لــيس أشــد شهوة من السِّنَّوْر فيما يقولــون)، "أفــسد مــن الجــراد، أو مــن السوس، أو من الأَرَضَة، أو من الضبع"، "أَفْــسَى مــن ظَرِبــان، أو من خنفساء، أو من نمس"، "قف الحمار علــى الردهــة، ولا تقــل له: سَأْ" (الردهة: نقرة الماء التى يشرب منــها. ومعــنى المثــل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تخف عليــه)، "أَقْــوَد مــن مُهْــر"، "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "كل شاةٍ تُنَــاط برِجْلــها"، "الكلــب أَحَبّ أهله إليه الظاعن"، "أكيس من قِشَّة" (جَــرْو القــرد، وهــو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكــسب مــن نمــل، أو مــن فأر"، "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب" (للــذل بعــد العــز)، "لــو تُرِك القَطَا لنام" (هذا مثل قولنــا: نــوم الظــالم عبــادة. والقَطَــا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلــد النمــر" (أبــديتُ لــه العــداوة الشديدة)، "ألين من خِرْنِق" (ولد الأرنــب)، "أمــسخ مــن لحــم الحُوَار"، "أمنع من عُقَاب الجــو"، "نــابٌ، وقــد يقطــع الدَّوِّيَّــةَ النابُ" (الناب: الناقة المسنّة، والدَّوِّيَّة: الفــلاة الــسحيقة. والمعــنى أنه، على كبر سنه وضعفه، قد يصلح للــسفر الطويــل المرهــق) ،

"أنعس من كلب"، "أنبش من جَيْأَل" (الضبع مشهورة بنبش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من الظَّرِبان"، "أنزى من ظبى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ تمرةَ الغرابِ" (حصل على أحسن شىء، لأن الغراب، فيما يقولون، ينتقى أجود تمرةٍ ويأكلها)، "أَوْلَغ من كلب"، "هما كركبتى البعير" (أى متساويان فى كل شىء)، "هما كفَرَسَىْ رِهَان" (دائمَا التنافسِ فى الخير)، "أهون من حُنْدُج (وهى القملة)، أو من ضرطة عتر"، "لا تقتنِ مِنْ كلب سوءٍ جَرْوًا"، "لا ناقتى فيها ولا جملى" (أمر لا يهمنى)، "لا ينتطح فيها عتزان" (قضية محسومة لا جدال فيها).

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين فى عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمى والثقافى الذى تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء فى تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعى، إذ إن العرب ليسوا بِدْعًا بين البشر، فهم يجمعون فى معلوماتهم بين الخطإ والصواب. ولكن يكفيهم شرفا وفضلا أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا فى الأمثال التى سلفت، وفيما عرفوه من الفروق بين الذكر عن الأنثى فى الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقا لما جاء فى المثل القائل:

"اسْتَنْوَق الجمل"، أو "حِمارٌ اسْـتَأْتَن" (أى ظهـرت علـى كـل منهما علامات الأنوثة، فـاقترب الأول أن يكـون ناقـة، والثـانى أن يكون أتانا)، وتخصيص اسم لكل عمر مـن أعمـار الحيـوان: فالحـُوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب مـن الإبـل، علـى عكس الناب، التى هى الناقة المسنة، ثم الشارف، الـتى تـأتى بعـد ذلك. وهناك الدِّرْص والحِـسْل والـسِّمْع والفُرْعُـل والهِجْـرِس والجحش والظبى والمـُهْر والخِرْنِق والجَرْو والحَلَـم، وهـى صـغار الفأر والـضبّ والـذئب والـضبع والقـرد والحمـار والغـزال والحصان والأرنب والكلب والقُرَاد على التـوالى. كـذلك هنـاك الجمل والناقة، والأَنُوق والرَّخَمَـة، والأسـد واللبـؤة، والحـصان والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامـة، والـذئب والجَهِيـزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف استطاعوا التمييز بين طبـاع كـل حيـوان وغيره حتى فى مسائل التبول، ورائحة الفـم، والعطـش أو الـرِّىّ، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنـه، والعـزة أو الذلـة مـثلا، وإن اشتركت بعض الحيوانـات فى هـذه الـسمة أو تلـك مـن تصرفاهما... مما مر بيانه من الأمثال التى أوردناهـا آنفـا. ويمكـن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شـجر ونبـات: "تـرى الفتيان كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الـدَّخْل" (أى أن المهـم هـو مخـبر الإنسان لا مظهـره)، "أشـبهَ شَـرْجٌ شَـرْجًا لـو أن أُسَـيْمِرًا"

(والأُسَيْمِر: تصغير "أَسْمُر"، وهى جمع "سَمُرَة"، نوع من الشجر ينبت فى بلاد العرب)، "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "عَصَبْتُه عَصْبَ السَّلَمة" (والسَّلَم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره فى الدباغ، ويسمَّى ورقه: "القَرَظ")، "أَرْخِ يديك واسْتَرْخ، إن الزناد من مَرْخ"، "فى كل شجرةٍ نار، واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار" (والمَرْخ والعَفَار: شجرتان تُقْدح أغصانهما لاستخراج النار منها)، "أشعث من قَتَادة" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان" (شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها)، "أخبث من ذئب الغَضَى" (والغَضَى: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التى تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية: فمن ذلك قولهم: "أبعد من العَيُّوق"، "أَثْلَى من الشِّعْرَى" (لأنها تتلو الجوزاء)، "أُرِيها السُّهَا، وتُرِينى القمر"، "أرقّ من رقراق السراب"، "أطول صحبةً من الفرقدين" (لأنهما نجمان لا يفترقان)، و"بنات نعش" (كواكب معروفة)، "بَرْقٌ خُلَّب" (وهو البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر)، "أرِنيها نَمِرة، أُرِكَها مَطَرة" (ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الممطر منها وغير الممطر. وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت

تعتمد على المطر فى المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال فى مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون فى خيام منصوبة فى العراء لا فى بيوت تعوق أعينهم عن النظر الحر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء).

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلا نراهم يقولون: "أن تَرِد الماءَ بماءٍ أكيس" لمعرفتهم أنهم متى انقطعوا عن الماء فى باديتهم المتناوحة التى كثيرا ما يعزّ فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون. وبالمثل نقرأ فى المَثَل التالى أن "آخرها (أى آخر الإبل الواردة على الماء للسقى) أقلّها شِرْبًا"، إذ تَرِدُ وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَرِدُ ولم يَعُد الماء صافيا كما كان للإبل التى شربت مبكرة، فضلا عن أن تأخير السقى هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هناك عين ماء طيّبة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماءٌ ولا كصَدّاء"، "إن أَضَاخًا منهلٌ مورود"، "أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرج". وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء: "بئس مَقَام الشيخ: أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أنه لا يليق بك أن تزاول عملا لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقْيَاك بالحبل، الذى قد ينقطع فى يدك فيصيح الناس بك أن

"أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أعد الحبل إلى مكانه من البَكَرة. ومن أمثال الاستقاء أيضا قولهم: "أَلْقِ دلوك فى الدِّلاء". كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه الحاجة مثلما مضى بيانه فى الأمثال التى قرأناها معا، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتل من أذهانهم واهتمامهم مكانا مكينا.

ومن الجوانب التى تتعلق أيضا بالبيئة العربية القديمة ما كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم على ما هو متوفر فى هذه البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعية: خذ عندك مثلا الدبغ، الذى جاء فى أمثالهم عنه قولهم: "إنما يُعاتَب الأديم ذو البَشَرَة"، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذى يراد دبغه، فإن كانت له بَشَرَة، وهى ظاهر الجلد (على عكس الأَدَمَة، التى هى باطنه)، صلح دبغه، وإلا لم يحتمل الدِّبَاغ وتمزق. كذلك لا بد، فى عمية الدباغ، أن يُكْشَط اللحم تماما من أديم الجلد ولا يترك عليه أى بقايا منه، وإلا فسد الجلد سريعا: "أحمق من الدابغ على التحلىء". والتحلىء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هذه الحالة لا يصل إليه الدباغ. وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر "القارظ" على النحو التالى: "إذا ما القارظ العَنَزِىُّ آبا"، وهو جامع القَرَظ، أى ورق

شجر السَّلَم المستعمل فى عملية الدباغ. وهذا المثل يُضْرَب للوعد الذى لا يمكن أن يتحقق لأنه معلق على شرط مستحيل، فالقارظ العَنَزِىّ لم يعد من جولته فى جمع القَرَظ حتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات فى الطريق. وهناك أيضا المثل التالى: "أَرْتِعَنْ أَجَلَى أَنَّى شئت"، أى أن الموضع المسّمَّى: "أَجَلَى" هو من المواضع الصالحة للرعى فى أى وقت وفى أى موضع منه. ومنها كذلك: "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان". وكان للرعى أصوله التى لا بد للراعى من مراعاتها، وإلا فسد عمله: "أساء رَعْيًا فسقى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشْبِع إبله من الكلإ كما ينبغى واضطُرّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضَرَّ بها ذلك ضررا شديدا. والإقصاب: أن تمتنع إبل الراعى عن الشرب. كذلك كانوا يحلبون ماشيتهم بأنفسهم: "حلبْتُها بالساعد الأشدّ"، "احْلُبْ حَلَبًا لك شَطْره" (و"الحَلَب" هو ما يُحْلَب من اللبن)، "حَلَبَ الدهرَ أَشْطُره".

ومن المهن التى كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل: "جِبَابٌ، فلا تُعَنِّ آبِرًا"، والآبر هو ملقّح النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْع فيها، بل الموجود جِبَابٌ فحسب، أى جُمّار، ومن ثم فلا فائدة فى التأبير أصلا. ومن هذه المهن أيضا الحُدَاء: "كالحادى، وليس له بعير"، والحادى هو سائق الإبل الذى يحدوها، أى يغنِّى لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها

الضعف والكلال. أما المَثَل الذى وجدتُه عن "الحَذّاء" فيجرى عكس هذا، إذ يقول: "من يكن الحذّاء أباه يجد نعلا". والحدادة مهنة أخرى من المهن التى عرفها العرب: "إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح"، أى لا تصدق كل ما تسمع، فكثيرا ما يقول الناس كلاما ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كى يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحابل" و"النابل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالنَّبْل: "اختلط الحابل بالنابل". ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس" وصانعه: "أَعْطِ القوسَ بارِيَها"، وهو كما نقول فى مثلنا العامى: "أعط العيش لخبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قبل الرمى يُرَاش السهم". ورابع يتحدث عن "الكنانة": "قبل الرمى تُمْلأُ الكنائن".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبا بدائيا بطبيعة الحال: "يا طبيب، طِبَّ لنفسك". وكذلك البيطرة: "أشهر من راية البَيْطار"، "أهون من ذَنَب الحمار على البَيْطار". وكان من طبّهم الكَيّ: "آخر الدواء الكَيّ"، "قد يَضْرِط العَيْر، والمِكْواة فى النار". كما كانوا يعالجون جَرَب الماشية بما يسمونه "العَنِيّة": "عَنِيّته تَشْفِى الجَرَب"، وهى قَطِران وأخلاط تُجْمَع ويُهْنَأ بها البعير الأجرب. ولعملية الهِنَاء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانئ

على دَهْن موضع الجَرَب فقط، بل يعمّ سائر بدن البعير: "ليس الهِناء بالدَّسّ" (والدَّسّ: الاقتصار فى الهِنَاء على المكان المصاب بالجرب). وقد ورد فى مثل من أمثالهم إشارة لمرض كان يصيب البعير، وهو "الغُدَّة": "أغُدَّةٌ كغُدَّة البعير، وموتٌ فى بيت سَلُولِيّة؟". أما المثل التالى فيشير إلى مرض آخر هو "القُلاَب"، وهو داء يصيب الإبل فى رؤوسها فيقلبها إلى فوق: "ما به قَلَبة"، أى أنه سليم لا يشكو من أى داء. وقريب منه داء الصَّعَر، وهو داء يأخذ فى رقاب الإبل فيُمِيلها: "لأُقِيمَنَّ صَعَرَك". وكان الجاهليون يحبون الوشم، الذى كثيرا ما شبّه الشعراء به ما يَرَوْنَه فى أطلال حبائبهم من الخطوط وآثار الريح: "أَثْبَتُ من الوشم". ومن أعمالهم التى كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسع الخَرْق على الراقع"، وجمع الحطب للنار: "أَخْبَطُ من حاطِب ليل"، والطحن بالرَّحا: "أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنًا"، و"الطِّحْن" هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أى أنها ضجة على الفاضى.

ويتصل بهذه الأمثالِ تلك التى ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أَبْغَى من إبرة"، والفأس: "أَبْغَى من فأس"، والقِدْح: "أبغض من القِدْح الأول"، والعصا: "أبقى من تفاريق العصا"، والخيط:

"أدق من خيط"، والحبل: "إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ"، والحِذَاء: "أدنى من الحذاء"، ورباط النعل: "أدنى من الشِّسْع"، والمِجْمَر (المِبْخَرة): "استْ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، والخُذْروف (وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه فى مصر بـ"النَّحْلة"): "أسرع من الخذروف"، والأُثْفِيّة (الحجر الذى كانوا ينصبون منه ثلاثة تحت القدر): "أَصْبَرُ من الأثافى على النار"، والجَلَم (المقص): "أقطع من جَلَم"، والعصا: "أكثر من تفاريق العصا"، والشفرة: "إنْ وجدتَ لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا"، "والمرآة: "أنقى من مرآة الغريبة"، والجُلْجُل: "أَنَمّ من جلجل"، والسيف: "تركتُه على مثل حرف السيف"، والصحيفة: "صحيفة المتلمِّس"، والكنانة (جَعْبة السهام): "قبل الرِّماء تُمْلأُ الكنائن"، والدلو: "قد علِقَتْ دَلْوَك دلوٌ أخرى"، والمِجَنّ: "قلبتُ له ظهر المجن"، والمكواة: "قد يَضْرِط العَيْر والمكواة فى النار".

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التى تتحدث عنها مما وضعتُ يدى عليه أثناء تجوالى فى كتاب العسكرى: "إنْ وجدتُ إليه فا كَرِشٍ"، أى إن وجدتُ إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة فى كرشها. ومن أسماء أطعمتهم "اللِّبَأ"، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: "أَبَى أَبِى اللِّبَأ". ومن أطعمتهم أيضا "الرَّبِيكة"، وهى أَقِطٌ بسمن وتمر يُعْمَل رِخْوًا: "غَرْثانُ، فاربُكوا له"، أى أنه جائع فلا تكلموه فى أى شىء لأن ذهنه مشغول

بالجوع والطعام، بل أَعِدّوا له الرَّبِيكَة أوّلاً، فإذا أكــل رجــع إليــه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطــون تتــوه العقــول". وأصــل المثل، حسبما يروون، أن رجلا عاد من ســفر فــأخبروه أن امرأتــه قد ولدت له غلاما، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعــانى مــن بُرَحــاء الجوع وقال: وما أصنع بــه؟ آكلــه أم أشــربه؟ فطلبــت منــهم زوجته أن يطعموه أولا. وقد كان، إذ بعد أن أطعمــوه ارتــد إليــه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو ســعيد محبــور. ولــدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدْحَ جُوَيْنٍ مــن سَــوِيق غــيره"، وهــو طعام سائل يُصْنَع من القمــح والــشعير علــى عجــل للمــسافر والجائع الذى لا يصبر. والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنــه لا ينفــق مــن ماله ولا يأكل من سَوِيقه بل من سَوِيق غــيره، فإنــه يــسرف ولا يبالى بالاقتصاد. والجَدْح: الــشُّرْب. كــذلك كــانوا يــصطادون الضَّبّ ويأكلونه: "ما أبالى أناءَ ضَــبّك أم نَــضِجَ"، "أعــط أخــاك من عَقَنْقَل الضبّ"، ويــسمون صــيده: "حَرْشًــا": "هــو أعلــم بضبٍّ حَرَشَه"، وما فتئ الــضبّ يُؤْكَــل فى الخلــيج حــتى يومنــا هذا. وبالمثل كان العرب فى الجاهليــة يــصطادون حمــار الــوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكــره فى قــولهم: "كُــلّ الــصيد فى جــوف الفَرَا"، "أَخْلَى من جوف حمار"، لأنهم كانوا يلقــون بمــا فى جوفــه ولا ينتفعون به. كما كــانوا يــأكلون "الكَمْــأَة"، الــتى لا يــزال الناس هناك يتلذذون بطعمهــا حــتى الآن. وهــى، كمــا تقــول

المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْر. وهناك نوع منها يسمَّى: "الفَقْع": "أذلّ من فَقْعٍ بقَرْقَرَةٍ"، لأنه يظهر على سطح الأرض فتطؤه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التى وردت بها الأمثال "العسل": "أحلى من العسل، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون"الزُّبّاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالى: "اختلط الخاثر بالزُّبّاد". ومن طعامهم فى الجاهلية أيضا "الدم"، وذلك بعد أن يَفْصِدوه من عِرْق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المُصْران به، ثم يشووه ويأكلوه. وهذا الطعام يسمَّى: "الفَصِيد": "لم يُحْرَم مَنْ فُصِد له"، أى أن الفَصِيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدَّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التى تضر الجسم والتى تسرى إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدُّهْن المذاب فى سِقَاء، وهذا الدهن يسمَّى: "الإِهَالة": "كحاقن الإهالة"، أى أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة فى السِّقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكد الحاقن تماما، عن طريق إيلاج إصبعه فى الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاءَ بسخونتها. كما وردت أمثالهم بـ"الزيت": "أَوْفَى من كَيْل الزيت". كذلك كان "الشعير" من طعامهم، وإن لم يكن من

أشباهه إلى نفوسهم: "كالشعير: يُؤْكَل ويُذَمّ". ومن الفاكهة التى ذكرها الأمثال "التمر": "كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر" (وهو كقولنا: "يبيع الماء فى حارة السقائين")، "وَجَد تمرةَ الغرابِ". وقد جاء ذكر "الحَشَف"، وهو أردأ أصنافه، فى مثل آخر: "أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَة؟"، و"العنب": "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "أَعْجَزُ من مُسْتَطْعِم العنب من الدِّفْلَى"، إذ الدِّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُرّ. وكان كثير من أهل الجاهلية يَغْرَمون بـ"الخمر"، ويُكْثِر شعراؤهم من التمدح بشربها ويَعُدّونه من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تحريما تاما. ومن أمثالهم فى أم الخبائث قولهم: "ألذّ من مذاق الخمر".

وللأمثال، فضلا عن الجوانب التى مرت، جانب آخر يمكن أن يُنْظَر إليها منه هو الجانب النفسى والخلقى والاجتماعى: فالمَثَل التالى على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة الإنسانية، ألا وهو أهمية الإيحاء الذاتى فى علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص فى اعتباره أن هناك أملا كبيرا فى التغلب عليها: "اكذب نفسك إذا حَدَّثْتَها"، وإلا فليس له مَعْدًى عن الصبر، وهو الدواء الذى لا بد من تجرعه على مرارته: "حيلة من لا حيلة له الصبر". كما أن طبيعة الاجتماع البشرى

تقتضى من الإنسان أن يتغاضى عـن بعـض حقوقـه وأن يكـون مرنا مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكـبيرة حـتى تـسير عجلة الحياة: "إذا عزَّ أخوك فهُـنْ"، "إذا رأيـتَ الـريح عاصـفًا فتَطَامَنْ"، "أىّ الرجال المهَـذَّبُ؟"، "طَوَيْتُـه علـى بُلالتـه"، مـع معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُـدْرَك"، وأن الطبـائع الشخـصية عصيّة على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنـسان علـى مـا شَـبَّ عليه: "أَعْيَيْتِنِى بأُشُرٍ، فكيـف بـدُرْدُر؟"، "مِـنَ العنـاء رياضـة الهَرِمِ". ثم هناك العصبية القبليـة الـتى لا يمكـن الفكـاك منـها، ولذلك قيـل فى أمثـال الجاهليـة: "انـصر أخـاك ظالِـمًا أو مظلومًا"، وهو ما صححه الرسول الكـريم عنـدما حـوَّره بعـض التحوير فقال إن نُصْرَتك أخاك ظالما إنما تكون بمنعـه مـن الظلـم، معطيًا عليه السلام هذا المثل بعدا أخلاقيا عظيمـا. كـذلك هنـاك المثل التالى الذى يتعامل مع الطبيعـة البـشرية تعـاملا مغرقـا فى الواقعية بل فى اللاإنسانية دون مراعاة المثـل الأعلـى فى قليـل أو كثير، وهو: "أَجِعْ كلبـك يتبعـك". وفى قـولهم: "جَلَّـى محـبٌّ نظرَه" تعبير عن حقيقة نفسية تشاهَد فى المحـبين، إذ مهمـا حـاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن النـاس فـإن عينيـه تفضحانه. وقد قال الشاعر: "الصَّبُّ تفـضحه عيونـه". كـذلك يحسن بالإنـسان، إذا أراد أن يظـل عزيـزا محبوبـا مكرمـا، ألا يكثر الزيارة للآخرين مهما كـانوا يحبونـه ويريدونـه ألا يقطـع

رجله عنهم: "زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا"، وألا يُكْثِر كذلك من المُزاح، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحابين: "المُزَاح لقاح الضغائن".

وفى دنيا الزواج والأسرة تطالعنا الأمثال التالية، وهى مأخوذة من واقع الحياة الذى لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: "زوجٌ من عُود خيرٌ من قُعُود"، وهو ما يقال عنه فى أمثالنا العامية: "ظِلّ رجُل ولا ظِلّ حائط"، "العَوَانُ لا تُعَلَّم الخِمْرة"، "بينهم داء الضرائر"، "إن الحماة أُولِعَتْ بالكَنَّة * وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّة"، "أَضَلّ من مَوْؤُودة"، وهى البنت الصغيرة التى تُدْفَن حية، وكان بعض الجاهليين يَئِدون بناهم خوفا من الفقر أو العار. على أن هناك مثلا يبدو أنه يعكس اعتقادا راسخا عند العرب منذ قديم الزمان، ألا وهو أن الحظ عليه معوَّل كبير فى حياة الإنسان. ولقد كنت أضيق أشد الضيق بمثل هذا الكلام وأؤكد دائما أن السعى والتخطيط واليقظة هى عمود كل نجاح، ثم تبين لى أن للحظ دورا لا يُنْكَر فى حياتنا، وأنه قد يرفع أقواما حقُّهم الاتضاع، ويخفض أقواما يستحقون كل خير ورفعة. ذلك أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجرى على غير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمة لا يؤخذ بها فى كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل على حقه، على حين يَرَوْن من لا يستحقون قد سبقوهم سبقا فاحشا دون أدنى

مسوِّغ. ومن هنا صحَّ المثل العربى القديم القائل: "جَدُّك لا كَدُّك"، أى أن حظك هو الذى ستكون له الغلبة فى نهاية المطاف، وكذلك قولهم: "اسْعَ بِجَدٍّ أو دَعْ"، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لكِ عَوَيْتُ لم أَعْوِ" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتنس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعصًا يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجاهلية كانوا يخوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخوِّفون أبناءهم العُصَاة بالعفريت والغول وأبى رجل مسلوخة وما أشبه: "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب".

ونختم بما ورد فى الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانِح والبارِح: فالسانح ما مرّ بك من طير أو حيوان من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرّ من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون

بالثانى: "من لى بالسانح بعد البـــارح؟". كمـــا كـــانوا يتـــشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهـــم الـــتى خلّفوهـــا، إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهـــم، فانعقـــدت الـــصلة فى أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون بـــه: "أشـــأم مـــن غراب البَيْن". ولم يقتصر تشاؤمهم علـــى الحيـــوان والطـــير، بـــل كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضا: "أنكد مـــن تـــالى الـــنجم"، وهو "الدَّبَران"، الذى يتلو نجم "الثريا". كمـــا كـــانوا يعتقـــدون فى "البَلاَيَا"، جمع "بَلِيَّة"، وهى الناقة التى كـــانوا يربطونهـــا عنـــد قـــبر صاحبها بعد أن يُغَمّوا عينيها، ثم يتركونهـــا هكـــذا دون طعـــام أو شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدتهم أنهـــا بهـــذه الطريقـــة تكـــون جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامـــة: "المنايـــا علـــى البلايا"، وهو مثل يُضْرَب للقـــوم الـــواقعين فى كـــرب لا مخلـــص منه، فهم يُشْبِهون "البليّة"، التى لا مفـــر لهـــا مـــن المـــوت. ومـــن خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن الـــسُّلَيْك بـــن الـــسُّلَكَة، الـــشاعر الجاهلى الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظـــل يعـــدو يومـــا وليلة كاملين سابقًا فارســـين مـــن فرســـان الأعـــداء لم يـــستطيعا إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجومـــا وشـــيكا مـــن أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدوّ أن يـــصيب منـــهم غِـــرَّة: "أَعْدَى من الـــسُّلَيْك". ومـــن مبالغـــاتهم الـــتى تـــدخل فى بـــاب الخرافات قولهم: "أَبْصَر مـــن الزرقـــاء" (وهـــى زرقـــاء اليمامـــة

المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحِدّته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشأم من الزُّمَّاح" (إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهل يثرب ويأكل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التالى، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكل من لحمه أحدٌ حيًّا)، "أَعْمَرُ من حَيَّة" (لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبدا إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!)، "أَعْمَرُ من نَسْر، أو من قُرَاد" (إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعَمَّر خمسمائة عام، والثانى سبعمائة).

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَار العبدى وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى وثعلب والمفضَّل الضَّبِّىّ وأبو هلال العسكرى والزمخشرى والميدانى. وهى كتب تُعْنَى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلا عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقية أو خيالية، وإن كانوا فى بعض الأحيان يعلنون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكرى مرارا، إذ قال مثلا عند تعرضه لقولهم: "أَبْدَح ودُبَيْح": "يقولون: جاء بأبدح ودبيح،

إذا جاء بالباطل. ولم يُعْرَف أصـــله"، أى أن قـــصته لم تـــصله. أمـــا فى شرحه للمثل القائل: "بعينٍ مـــا أَرَيَنَّـــك" فقـــد علـــق قـــائلا: "معناه: اعْجَلْ. وهو من الكلام الذى قد عُرِف معنـــاه سماعـــا مـــن غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل علـــى أن لغـــة العـــرب لم تـــرد علينا بكمالها، وأن فيها أشـــياء لم تعرفهـــا العلمـــاء". وفى تعليقـــه على المثل التالى: "أحمق من راعى ضأن ثمـــانين" نـــراه يقـــول: "ولا أدرى لم خُصَّت بالثمانين هنا"...إلخ. ومـــن هنـــا نرانـــا لا نوافـــق بروكلمان على ما قاله فى الأمثال من أن "من عُنُـــوا بجمعهـــا مـــن الأدباء لم يقعوا مرة فى حيرة من تفـــسيرها وإيـــضاحها" ومـــا فيـــه من سخرية مبطنة (كارل بروكلمـــان/ تـــاريخ الأدب العـــربى/ **1**/ **129**)، بل نؤكد أن هذا الكلام غـــير صـــحيح لعـــدة أسـباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هـــذه القـــصص دائمـــا كما قلنا آنفا. والثانى أنهم ليسوا هم الذين ألّفـــوا هـــذه القـــصص، بل كانوا مجرد نقلة لهـــا حـــسبما وصـــلت إلـــيهم. والثالـــث أن العسكرى مثلا، حسبما رأينا معا، قد أعلن عـــن عجـــزه فى عـــدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عـــن مجـــرد معرفـــة معناه فى بعض الأحيان. بل إنهم كثيرا مـــا يكتفـــون بـــإيراد المثـــل دون إضافة أية كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفـــسه مـــا نقولـــه ردًّا على ما كتبه نيكلـــسون فى ذات الموضـــوع، إذ جـــاء فى كتابـــه: "**A Literary History of the Arabs**" أثنـــاء

كلامه فى هذه المسألة إن هذه الأمثال "نـــادرا مـــا تـــستغنى عـــن الشرح، على حين أن ما كُتِب من تعليقات عليها إنمـــا هـــى مـــن عمل علماء وضعوا نُصْبَ أعينـــهم أن يـــشرحوها مهمـــا كلفهـــم ذلك، رغم أن الظروف التى قيلت فيها قـــد نُـــسِيَتْ تمامـــا" (A Literary History of the Arabs, P. 31).

سَجع الكُهّان

الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الــدين كــانوا يقومــون على سِدَانة معابد الأوثان فى الجاهليــة، وكــان العــرب الوثنيــون يلجأون إليهم فى حسم ما ينشأ بينهم مــن منــافرات أو خلافــات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل ما يقــع لهــم فى نــومهم مــن رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدتهم على معرفة مــا يخبئــه الغيــب من أحداث أو أشياء وما إلى ذلك مما كانوا يحــصلون علــى جُعْــلٍ فى مقابله. وكان هؤلاء الكهان يجيبون على ما يوجَّــه إلــيهم مــن استفسارات بكلام مسجوع يُرَاعَى فيه عــادةً أن يكــون مــوجَزًا غامضًا يحتمل وجوها متعددة من التفــسير، فــضلا عــن احتوائــه على بعض الغريب من اللفــظ، بحيــث يــستطيع الكــاهن عنــد اللزوم أن يقول إنه لم يقصد هذا المعنى مــثلا بــل ذاك، ومــن ثم لا يَظْهَر لقُصّاده وطالبى عونه أنه يخطئ كغيره من الناس وأنــه لــيس بينه وبين عالم الغيب أى اتصال. وقد وردت أقاويــل منــسوبة إلى هؤلاء الكهان فى مناسبات وقضايا مختلفة كمــا فى الخــبر المــروىّ عن الكاهن الخُزَاعِىّ، الذى نَفَّرَ بــين هاشــمٍ جــد الــنبى عليــه السلام وأُمَيّة بن عبد شمس، وجاء فيه: "وَلِــيَ هاشــمٌ بعــد أبيــه عبدِ مناف ما كان إليه من السِّقَاية والرِّفَــادة فحــسده أميــة بــن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامــه، وكــان ذا مــال.

فتكلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَمِت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة. فكره هاشم ذلك لسنّه وقَدْره، فلم تَدَعْه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُودِ الحَدَق ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين. فرَضِيَ بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جَدّ عمرو بن الحَمِق (الصحابي المعروف)، ومنزله بعُسْفان (بين مكة ويثرب). وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزَّى الفِهْرِيّ، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِر، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشمٌ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية".

ومنه كذلك ما قيل عن تكهُّن عوف بن ربيعة الأسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجرى القصة على النحو التالى: "كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملكَ بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كلَّ سنة لما يحتاج إليه. فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يَجْبِي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتِهَامة، فطردوا رسله وضربوهم. فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتِهم وخِيَارَهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: "عبيدَ العصا"، وأباح

الأموال وصيَّرهم إلى تِهَامَة وحبس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِيك عليهمو   وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردّهم إلى بلادهم. فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: يا عبادي. قالوا: لبيك ربَّنا. فقال: مَنِ الملك الصَّلْهَب (الشديد)، الغلاّب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الربرب (أى قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غدًا أول من يُستَلَب؟ قالوا: ومن هو ربَّنا؟ قال: لولا تَجَيُّشُ نفسٍ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية (أى علانية). فركبوا كل صَعْبٍ وذَلُول حتى بلغوا عسكر حُجْر فهجموا عليه في قُبَّته فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعرُّض هند بنت عتبة للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبةٍ ظنَّها فيها، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضى ببراءتها فعادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذى كان منه فى حقها: "كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن. فقال يوما في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يغشى البيت،

فلما وجد المرأة نائمة ولَّى عنــها، فاســتقبله الفاكــه بــن المغــيرة فدخل على هند وأنَّبَها وقال: مَــنْ هــذا الخــارج مــن عنــدك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أَنْبَهْتَني، وما رأيت أحــدا قَــطّ. قــال: الحقي بأبيك. وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوهــا: يــا بُنَيَّــة، العارَ وإن كان كذبا. بُثِّيني شــأنَك، فــإنْ كــان الرجــل صــادقا دسَسَتُ عليه من يقتله فيقطــع عنــك العــار، وإن كــان كاذبــا حاكمْتُه إلى بعض كُهّان اليمن. قالت: والله يا أَبَــتِ إنــه لَكَــاذب. فخرج عتبة فقال: إنك رميتَ ابنتي بشيء عظــيم، فإمــا أن تبــيّن ما قلتَ، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قــال: ذلــك لــك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة مــن بــني مخــزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد منــاف. فلمــا شــارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند وكَسَفَ بالُها، فقــال لهــا أبوهــا: أَيْ بُنَيَّة، أَلاَ كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنــا؟ قالــت: يــا أبت، والله ما ذلك لمكروه قِبَلِي، ولكــنكم تــأتون بــشرا يخطــئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَني بسِمَةٍ تَبْقَى على ألــسنة العــرب. فقــال لها أبوها: صَدَقْتِ، ولكني سأَخْبُره لــك. فــصَفَّر بفرســه، فلمــا أَدْلَى عَمَدَ إلى حَبّةِ بُــرٍّ (قَمْــح) فأدخلــها في إحْليلــه ثم أَوْكَــى (رَبَط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكــرمهم ونحــر لهــم، فقال له عُتْبَة: إنا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لك خبيئــة، فمــا هــي؟ قال: بُرَّةٌ في كَمَرَة. قال: أريد أَبْيَنَ من هــذا. قــال: حبّــة بُــرٍّ في

إحليل مُهْر. قال صَدَقْتَ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك. حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: انهضي غير رَقْحَاءَ (فاجرة) ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنترت يده من يدها وقالت: إليك عَنِّى. والله لأَحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية".

ومن ذلك أيضا ما رُوِىَ عن سَطِيحٍ الذئبى الغَسّانى من أنه "لما كان ليلة وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما

عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سَطِيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟ يا فاضل الخطة أَعْيتْ مَنْ ومَنْ
أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ أبيض فضفاض الرداء والبدنْ
رسول قَيْل العجم يَهْوِى للوَثَنْ لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت...إلخ".

أما فى القصة التالية فنرى الكاهن يحـــذِّر بـــنى الحـــارث بـــن كعب من الإغارة على بنى تميم، وإلا تعرضـــوا للهزيمـــة الـــمُرّة على أيديهم: "كان بنو تميم قـــد أغـــاروا علـــى لَطِيمَـــةٍ (قافلـــة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كـــثير، فـــأوقع كـــسرى بهـــم وقتل المقاتلة، وبقيت أمـــوالهم وذراريهـــم في مـــساكنهم لا مـــانع لها. وبلغ ذلك بني الحـــارث بـــن كعـــب مـــن مَـــذْحِج، فمـــشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اغتنمـــوا بـــني تمـــيم. فاجتمعـــت بنـــو الحارث وأحلافها من زيد وحـــزم بـــن ريـــان في عـــسكر عظـــيم وساروا يريدون بني تميم، فحذَّرهم كـــاهن كـــان مـــع الحـــارث، واسمه سلمة بـــن المغفـــل، وقـــال: إنكـــم تـــسيرون أعقابـــا (أى بعضكم فى إثر بعض)، وتغزون أحبابـــا، ســـعدا ورَبَابـــا، وتَـــرِدُون مياها جِبَابا (جمع "جُبّ"، وهو البئـــر)، فتَلْقَـــوْن عليهـــا ضِـــرابا، وتكون غنيمتكم ترابا، فأطيعوا أمري ولا تغـــزوا تميمـــا. ولكنـــهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهُزِموا هزيمة نكراء".

ولا شك أن أى عاقـــل ســـيُنكْرِ مـــا جـــاء فى مثـــل تلـــك الأخبار من أن هـــذا الكـــاهن أو ذاك كـــان يـــستطيع أن يعلـــم الغيب، إذ الغيب شأن مـــن شـــأن الله ســـبحانه وتعـــالى لا يمكـــن أحدا من عباده أن ينفـــذ مـــن خـــلال حُجُبـــه إلا إذا أوحـــى الله بشىء من ذلك لنبى من أنبيائه. ونبينـــا عليـــه الـــسلام مـــأمور فى القرآن بأن يقـــول: "وعنـــده (أى عنـــد الله) مفـــاتح الغيـــب، لا

يعلمها إلا هــو"، "قــل: لا يعلــم مــن فى الــسماوات والأرض الغيبَ إلا الله"، "قل: ما كنتُ بِدْعًا مــن الرســل، ومــا أدرى مــا يُفْعَل بى ولا بكم"، "ولو كنتُ أعلــم الغيــب لاســتكثرتُ مــن الخير وما مَسَّنِىَ السوء"، "عــالِم الغيــب (أى الله ســبحانه) فــلا يُظْهِر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى مــن رســولٍ، فإنــه يَــسْلُك من بين ومن خلفــه رَصَــدًا* لِــيَعْلَم أنْ قــد أبلغــوا رســالات رهم"... إلخ. فماذا يكون الكــاهن بالنــسبة للــنبى، وبخاصــة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهم إنمــا يــستعينون فى مهمتــهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن يترل عليهم الــوحى مــن الــسماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ وعلى هــذا فــنحن مــضطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضا فى تلك الأخبار ذاتها مــن كــلام منــسوب للكهنة فى هذه الظروف من مثــل: "عبــد المــسيح، علــى جمــلٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي علــى الــضريح، بعثــك مَلِك بني ساسان، لارتجــاج الإيــوان، وخمــود الــنيران، ورؤيــا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خــيلاً عِرَابــا، قــد اقتحمــت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المــسيح، إذا كثــرت الــتلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى الــسماوة، وغاضــت بحــيرة ساوة، وخمدت نار فــارس، فليــست بابــل للفُــرْس مُقَامــا، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملوك وملكــات، عــدد ســقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت"، أو "انهــضي غــير رَقْحَــاءَ ولا

زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية"، لأنه إذا كانت الواقعة لم تحدث أصلا فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكلام المتصل بها قد قيل! أما قول الكاهن الذى نفَّر بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عن أن يكون حُكْمًا فى قضية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل فى باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الذين ينكرون صحة هذه الأسجاع ويَرَوْن أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطإ مطلق، وإن قام رَفْضُ الدكتور شوقى ضيف لها مثلا على أساس طول الزمن المنصرم ما بين صدور الأقاويل المنسوبة إلى أولئك الكهان والوقت الذى سُجِّلَتْ فيه (العصر الجاهلى/ **224**)، وهو سبب غير كاف كما قلنا عند حديثنا عن الأمثال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ من كثرة ما كان أصحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، مما من شأنه أن يجعلها أَحَدّ وأنشط من الذاكرة التى لا يستخدمها أهلوها على هذا النطاق الواسع. كما أن هذه الأقاويل، حسبما بينّا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد من الحفظ، فضلا عن أنها ليست من الطول ولا ما احتفظت به الكتب من نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للذاكرة عَنَتًا فى الاحتفاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه.

وقد يُفْهَم من كلام بعض الدارسين أن هـذه الأقاويـل هـى أساس السجع أو أنها على الأقـل كانـت النـصوص المـسجوعة الوحيدة فى النثر الجاهلى، فقد كتـب مـثلا المستـشرق الألمـانى كارل بروكلمان أن "السجع هو القالـب الـذى كـان يـصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقـوالهم" (تـاريخ الأدب العـربى/ 1/ 51)، وهو ما يتابعه عليه عبد الستار فـوزى ود. عـز الـدين إسماعيل، إلا أنهمـا لم يكتفيـا بـذلك، إذ ذكـر الأول أن "تلـك الأسجاع حتى البقية التى استُعْمِلت فى عـصر الإسـلام الأول قـد نبعت جميعا من سجع الكهان الجاهليين يوم كانـت تلـك الأنغـام المتوازنة ضـرورية لتمثيـل الكـاهن، ولا غـنى عنـها لتـصوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصدره مـن أقـضية وأحكـام، وما يشيع عنه من وحى وإلهام" (عبـد الـستار فـوزى/ الـسجع وأطوار استعماله فى أدب العـرب/ الـشركة المركزيـة للطباعـة والإعلان/ بغداد/ 1966م/ 32)، كمـا ورد فى حـديث الثـانى عن السجع وسيطرته على النثر الفـنى فى العـصور الإسـلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرِف فى الجاهليـة قـديما باسـم سـجع الكهـان" (د. عـز الـدين إسماعيـل/ المكونـات الأولى للثقافـة العربية- دراسة فى نـشأة الآداب والمعـارف العربيـة وتطورهـا/ ط5/ أبوللو للنـشر والتوزيـع/ 1414هـ- 1993م/ 42)، وإن كان فى موضع آخر قد أضاف "الأمثـال" أيـضا إلى "سـجع

الكهان"، وذلك فى النص التالى الذى يَعْرِض فيه لأوّليّة الشعر العربى وكيفية نشوئه، إذ قال: "هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربى قد نشأ فى جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التى كان يستخدمها الكهنة فى رُقَاهم وتنبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة فى بعض الأحيان التى كان تجرى على الألسنة مجرى المثل" (المرجع السابق/ **9**). وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع فى النثر العربى، وهل يرجع فعلا إلى "سجع الكهان" وحده أو إليه هو و"الأمثال" كما فى النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلا عن أن خُطَب الجاهليين ومنافراتهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة فى غير قليل من الأحيان. وعلى هذا فالتفكير العلمى الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكما كهذا فنضلّ فى بَيْدَاء الوهم. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفا للجاهليين وأنه كان مستعملا لا فى كلام الكهان والكاهنات وحده، ولا فى كلامهم والأمثال فقط، بل فى الخُطَب والمنافرات والخصومات أيضا، إذ هو يلبى حاجة فطرية فى النفس، "فالكلام الموسيقى المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسط

والقبض، تبعثه فى يسرٍ من أعماقها سَيّالاً متـــداركا كأنمـــا تجـــد فى تناغم ألفاظه ورنـــين أجراســـه وتعـــاطف حروفـــه متنفَّـــسًا لهـــذا الجَيَشَان العنيف وتطبيقًا لهذه الثورة الـــصاخبة" (علـــى الجنـــدى/ صُوَر البديع- فن الأسجاع/ دار الفكـــر العـــربى/ 1/ 9)، ولـــيس ثمة ما يلجئنا إلى القول بـــأن الـــسجع نـــشأ فى أحـــضان الـــسِّحْر والكهانة والمعابد وما إلى ذلـــك كمـــا يـــردد بعـــض الدارســـين العرب تأثرا بما يقوله المستشرقون فى هـــذا المجـــال، لأن مـــا كـــان مرتبطا بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانـــة أو معابـــد، وبخاصـــة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسيقية والـــرنين والتـــوازن مما يجعلها فى ذاهًا بيئةً جِدَّ مناسبةٍ لازدهار السجع والشعر.

السجع إذن لم يكن مقصورا على الكهـــان، بـــل اســـتخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضـــاربو الأمثـــال أيـــضا، ذلـــك أنه مجرد أداة، مَثَلُه فى هذا مَثَلُ الجمل والـــسيف والقلـــم وغيرهـــا من الوسائل والأدوات التى يصطنعها البشر فى حيـــاهم، لا يحمـــل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية فى حد ذاته، على عكـــس مـــا يقـــول اللمازون الذين يحاولون الإيهام بأنه ليس هناك فـــرق بـــين دعـــوة الرسول عليه السلام ووظيفة الكهان. ومـــن هنـــا نجـــد الـــسجع مستعملا فى القرآن كما كان مستعملا لدى الكهنـــة، رغـــم أهـــم إنما كانوا يستخدمونه فى الكـــذب والإيهـــام بـــالتنبؤ بالغيـــب وفى التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشـــبه، علـــى حـــين أنـــه فى

القرآن مسْتَعْمَلٌ فى الدعوة إلى الإيمان بالله واليـــوم الآخـــر والحـــث على البر والعدل والصدق والعلم والأخـــوة والتـــراحم والتعـــاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر مـــا نعـــرف مـــن القيم الكريمة النبيلة التى رفـــع لواءهـــا القـــرآن الكـــريم والـــتى تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتها. ولقد نـــزل القـــرآن بـــنفس اللغة التى كان الكهان يتخذونها، وهـــى اللغـــة العربيـــة، كمـــا أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتـــهم ووثنيتـــهم، مثلمـــا كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكـــل ويـــشرب ويتـــزوج مثلمـــا كانوا يـــأكلون ويـــشربون ويتزوجـــون، وكـــان يركـــب الناقـــة والحصان مثلما كانوا يفعلـــون. وفى القـــرآن نقـــرأ أن كتـــاب الله قد "نزل بلسان عربى مبين"، وهـــذا أمـــر طبيعـــى كـــى يفهمـــه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجـــه: "ومـــا أرســـلنا مـــن رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهـــم"، والـــسجع جـــزء مـــن هـــذا اللسان الذى نزل به القـــرآن، وهـــو عنـــصر جـــذاب لأولئـــك القوم، فأين وجه الحرج فى أن يستعين به كِتَاب الـــدعوة الجديـــدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلـــوب والعقـــول؟ وبقريـــب من هذا قال د. جواد على، الذى علّق علـــى أســـلوب المفـــسرين فى توجيه قَسَم القرآن بالتين والزيتون ومـــا إلى ذلـــك قـــائلا: "وفي القرآن قَسَمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتـــون وبغـــير ذلـــك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مـــذاهب، ففـــسروا وتـــأولوا.

ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هـو أسـلوب مـن أسـاليب العرب في القسم قبل الإسـلام، وأن القـرآن إنما نـزل بلـسان العرب، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبـهم علـى قـدر عقـولهم وبلغتـهم، عرفـوا الـسبب. ولا زال الأعـراب علـى سجيتهم القديمة في القَسَم بهذه الأشياء، يُقْسِمون بها كمـا يُقْـسِم المتحضر بأعز شـيء عنـده" (المفـصَّل فى تـاريخ العـرب قبـل الإسلام/ 4/ الفصل الخاص بالنشر).

كما أن المـسلمين الأوائـل قـد أدَّوُا العُمْـرَة فى الـسنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تـزال تعـجّ بالأوثـان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسـون طقوسـا وثنيـة؟ بـل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون مـن الطقـوس مـا كـان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حـج الخليـل عليـه الـسلام، لكن العبرة بالنيـة، إذ ينبغـى ألا ننـسى أن الجـاهليين الـوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحـج الـصحيحة الـتى ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه الـسلام، وهـو مـا احـتفظ بـه الإسلام أيضا فى هذه العبادة. ومثله السجود، الـذى كـان بعـض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمر، ويؤديه المـسلمون أيـضا، لكـنْ لله تعالى لا لهذين الجِـرْمَيْن الـسَّمَاوِيَّيْن... وهكـذا. إن الـسجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تعاب فى حد ذاتهـا، بـل للغـرض السئ الذى تستعمل فيه.

لقد كان سجع الكهان يدور فى فَلَك الوثنية ويتم فى بيوت الأوثان، بخلاف السجع فى القرآن، الذى حارب الوثنيةَ وقام الرسولُ الذى نزل عليه ذلك الكتاب الكريم بهدم أوثانها وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضَوْن أجرا على ما يقولون، أما النبى فلم يكن يمد يده إلى مال أحد، وآيات القرآن الكريم واضحة تمام الوضوح فى هذا: "قل: لا أسألكم عليه أجرا. إِنْ هو إلا ذِكْرَى للعالمين"، "وما أسألكم عليه من أجر. إِنْ أجرىَ إلا على رب العالمين"، "قل: ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا"، "قل: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القُرْبَى". ليس هذا فحسب، بل لقد حرّم الإسلام أيضا عليه وعلى أهل بيته جميعا أن يأخذوا شيئا أى شىء من أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتشدد فى هذا أيما تشدد! ولقد حارب الإسلام والرسول الكهانة والمتكهنين حربا شعواء، وأبدى عليه السلام امتعاضه ونفوره الشديد من طريقتهم المتكلفة الغامضة فى التسجيع، فكيف يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد جرى فى رِكَابهم ونَهَجَ نَهْجَهم كما يردد بعض الرُّقَعَاء؟ ومصداقًا لهذا نلفت النظر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقف الرسول الأكرم من "سجع الكهان" أيضا لا من "الكهان" أنفسهم فقط، فقد "اقتتلت امرأتان من هُذَيْل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر

فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينـها غُـرّة: عبـد أو وليـدة. وقضى بدية المرأة على عاقلتـها، وورَّثها ولـدَها ومـن معهـم. فقال حمل بن النابغة الهُذَلِيّ: يا رسـول الله، كيـف أغـرم مـن لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلـك يُطَـلّ. فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما هذا مـن إخـوان الكهـان"، من أجل سجعه الذي سجع"، إذ كان كهان الوثنيـة، كمـا سـبق بيانه، يخدعون الناس ويـشيعون الـوهم فى العقـول ويـصطنعون أسلوبا متكلفا لا يبغى كشف الحق بـل يمكِّـن للباطـل تمكينـا، فأراد عليه السلام من المسلمين أن ينبذوا هـذا الأسـلوب العفـن الضار. إنهمـا إذن طريقـان مختلفـان، وأسـلوبان فى اسـتعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجرى علـى سُـنّة الكهانـة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفـسر المتنطعـون الـذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومـه، علـى حـين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء مـن هـؤلاء القـوم، ولم يكـن أحد من العرب ليفكر فى مس شعرة مـن شـعرهم؟ بـل كيـف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو أنـه كـان واحـدا منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عـادَوْا أى واحـد مـن أبنـاء مهنتهم؟ بل إننا لم نسمع أيضا أن أحدا منهم اتهـم الرسـول عليـه

السلام رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف نفسر ذلك أيضا؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيًّا منها لا ينطبق على حالته صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعمَ كاذبةٍ متخبطةٍ مبعثها الحقد والغيظ. وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد انتهَوْا إلى الإيمان به لاحِسين كل تلك الاتهامات ومكذِّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون فى تطبيبه حتى يَشْفُوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفانى فى دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان. وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأَنْ دخل الجميع فى دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضا لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يَسُوغ فى منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام فى العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من

الكلام فى أقسام القرآن التى استُهِلَّتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هَوَى* ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى* وما ينطق عن الهوى* إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى"، "والسماء والطارق* وما أدراك ما الطارق؟* النَّجْم الثاقب* إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ"، "ق والقرآنِ المجيد* بل عجبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب"، "حم والكتاب المبين* إنا أنزلناه فى ليلة مباركة. إنا كنا منذِرين* فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم* أمرا من عندنا"... إلخ، قائلين إنه عليه السلام إنما يقلد الكهان فى طريقتهم بالقَسَم بمظاهر الطبيعة كالذى رُوِىَ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعَلَمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر"، والذى رُوِىَ عن سواد بن قارب الدَّوْسِيّ وقوله: "والسماء والأرض، والغَمْر والبَرْض، والقَرْض والفَرْض، إنكم لأهل الهضاب الشُّمّ، والنخيل العُمّ، والصخور الصُّمّ، من أَجَإ العيطاء، وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء... أُقْسِم بالضياء والَحلك، والنجوم والفَلَك، والشروق والدَّلَك، لقد خبأتَ بُرْثُن فرخ، في إعليط مَرْخ، تحت آسرة الشَّرْخ... والسحاب والتراب، والأصباب والأحداب، والنَّعَم الكُثاب، لقد خبأتَ قُطَامة فَسِيط، وقُذّة مَرِيط، في مَدَرَةٍ من مَدِىّ مَطِيط... أُقْسِم بالسَّوَام العازب، والوقير الكارب، والمجد

الراكب، والمُشِيح الحارب، لقد خبأتَ نُفَاثة فَـنَن، في قطيـعٍ قـد مَرَن، أو أديمٍ قد جَرَن... أُقْسِم بنَفْنَف اللُّـوح، والمـاء المـسفوح، والفضاء المندوح، لقد خبأت زَمَعَـةَ طَـلاً أعفـر، في زِعْنِفَـةِ أديمٍ أحمر، تحت حِلْسِ نِضْوٍ أدبـر... والنـاظرِ مـن حيـث لا يُـرَى، والسامعِ قبل أن يناجَى، والعالمِ بما لا يُـدْرَي، لقـد عَنَّـتْ لكـم عُقَابٌ عجـزاء، في شـغانيبِ دَوْحَـةٍ جـرداء، تحمـل جَـدْلا، فتماريتم: إما يَدًا وإما رِجْـلاً"، وكالـذى رواه الجـاحظ لعُـزَّى سَلَمَة من أنه قـال: "والأرض والـسماء، والعُقَـاب والـصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نَفَّرَ المجـدُ بـني العُـشَراء، للمجـد والـسناء"، وكالذى جاء فى حديث زبراء الكاهنة مع بني رئـام مـن قـضاعة، إذ قالت: "واللوح الخافق، والليل الغاسـق، والـصباح الـشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الـوادي ليَـأْدُو خَـتْلاً، ويَخْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْـذِر ثُكْـلاً، لا تجـدون عنه مَعْلاً"، وأخيرا كالذى نُسبَ إلى سلمى الهمدانيـة ومـا أبدتـه مـن رأى في حـريمٍ المُـرَادِيّ: "والخَفْـو والـوميض، والـشفق كالإِحْرِيض، والقُلّة والحـضيض، إن حريمًـا لَمَنِيـع الحِيـز، سـيدٌ مَزِيز، ذو معقل حَرِيز، غير أني أرى الحُمَّـة سـتظفر منـه بعَثْـرة، بطيئة الجَبْرة". ويجد القارئ هذه النصوص تحت عنـوان: "خُطَـب الكُهّان" و"خُطَب الكواهن" من كتاب "جمهـرة خُطَـب العـرب" للمرحوم الأستاذ أحمد زكى صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تنبئنا أنها فى التنبؤ بالغيب أو فى التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحدوثة بين الناس، على حين أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحى القرآنى أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التى ينبغى أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد فى القيام به بحيث يضع فاعلُه مصلحةَ المجتمع والبشرية نُصْبَ عينيه وينتظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسَه الرغبةُ فى الاشتهار بين الناس كى يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلى الأخرق وصدَّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجرى هنا مع المتَّهِمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أى أساس. كما أن الأقسام الخاصة بـ"التراب والأصباب والأحداب والنَّعَم والسحاب والغمام الماطر والمُزْن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والغَمْر والقَرْض والفَرْض والبَرْض واللوح الخافق ونَفْنَف اللُّوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخَفْو والوميض والشفق الذى يشبه الإحريض والقُلّة والحضيض والحَلَك والفَلَك والدَّلَك والسَّوَام العازب والوقير الكارب

والجد الراكب والمُشِيح الحارب والناظر من حيث لا يُرَى والسامع قبل أن يناجَى والعالم بما لا يُدْرَى" هى أقسام لم ترد فى القرآن الكريم، وفى المقابل فإن القَسَم بـ"القرآن المجيد والقرآن ذى الذِّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور فى رَقٍّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور والصافّات صَفًّا والذاريات ذَرْوًا والمرسَلات عُرْفًا والنازعات غَرْقًا والليالى العشر والشَّفْع والوَتْر وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى والضُّحَى والتين والزيتون وطُور سِينِين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحًا" هو أيضا قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآنى التالى: "لا أُقْسِم بكذا"، ولا مجىء عبارة "هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْر؟" أو "وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم" أو "بل الأمر كذا وكذا" بعد القَسَم، أو مجىء حرف هجائى أو أكثر قبله، كما فى قوله تعالى: "والفجر* وليالٍ عشْر* والشَّفْع والوَتْر* والليل إذا يَسْرِ* هل فى ذلك قَسَمٌ لِذِى حِجْر؟"، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم* وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون* لا يَمَسُّه إلا المطَهَّرون"، "ص والقرآن ذى الذكر* بل الذي كفروا فى عِزّةٍ وشِقَاق"، "ق والقرآن المجيد* بل عجبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "يس والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسَلين* على

صراط مستقيم". ثم إن النصوص المتضمِّنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهى النص الذى وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبإ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولا كبيرا لا تناسُب بينه وبين نصوص الكهانة المدّعاة.

وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إما ممن صنعوها فى العصر العباسى ونسبوها زورا للجاهليين، وإما من كهانٍ صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم واحْتَذَوْه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلّدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوبا من أساليب القَسَم كان مستعملا فيما نزل من وحى على الأنبياء العرب السابقين كهُودٍ وصالحٍ وشُعَيْب. والعجيب أن كاتب مادة "سَجْع" فى الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" ("دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين فى وَسْم كلّ ما نُسِبَ للكهان من أقوالٍ بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول بأنه يقلد فى قرآنه

سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قـد عمـل فى ذات الوقـت على أن يصبَّ فى هذا القالب الكهنوتى القـديم المبـادئ الجديـدة التى أتى بها! أى كما يقال فى المثل: "عَنْزَة ولو طارت"!

وإنى لأستعجب أن يقرأ بعـض النـاس القـرآن الكـريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كـلام الكهـان، أو إنـه تقليـد لكـلام الكهان! إن هذا الادعاء لهـو دليـل علـى أن صـاحبه كـاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البـصيرة. ولـسوف أورد هنـا نص ثلاث سور صغيرة هى "البلد" و"الليـل" و"الـضحى" وأتـرك القارئ (أيًّا كان دينه ومذهبـه) وجهًـا لوجـهٍ أمامهـا ليـسأل ضميره بصدق وأمانة: أَمِثْل هذا الكلام هو مـن وحـى الـشياطين أو يجرى من جاء به على سُـنّة الـشياطين؟ يقـول جـل جلالـه: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَـدِ (1) وَأَنْـتَ حِـلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْـسَانَ فِـي كَبَـدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَـدٌ (5) يَقُـولُ أَهْلَكْـتُ مَـالا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَـيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَـلا اقْـتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَـةٍ (13) أَوْ إِطْعَـامٌ فِـي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِـسْكِينًا ذَا مَتْرَبَـةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالـصَّبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَـةِ (18) وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا

بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)"، "بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)". والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحى الشيطان، فليس هناك شىء يستحق الثقة إذن فى دنيا الإنسان!

فى ضوء ما مر نستطيع أن نضع الكلام التالى لعبد الله إبراهيم (المدلس الذى خدع جامعة قطر لسنوات موهما إياها أنه "أستاذ مساعد"، على حين أنه لم يكن سوى "مدرس" أتى من إحدى الجامعات الليبية حيث يسمون "المدرس" الجامعى: "أستاذا مساعدا"، و"الأستاذ المساعد": "أسناذا مشاركا"، ثم لم ترض له بجاحته وعراقته فى التدليس إلا أن يمضى شوطا آخر فى الخداع اللئيم الأثيم فتقدم بأوراقه للترقية إلى "أستاذ" مرة واحدة، لكن القدر كان له بالمرصاد، إذ اكتشفت اللجنة التى كانت مكلفة بالنظر فى أوراق التقديم للدرجة الجديدة، بالمصادفة المحضة، أنه مدلس كبير، ولما تحققت الجامعة القطرية من حقيقة الأمر أنهت عقده، وإن كانت اكتفت لسوء الحظ بهذا فلم تحوله لمجلس تأديب، فاستمر يزعم المزاعم ويفترى على الجامعة وإدارتها وأساتذتها الأكاذيب، وكل ذلك لأن من البشر بشرا ثخينى جلد الوجه لا يخجلون. وهذا نص ما قاله ذلك المدلس عن الإسلام والرسول والكهان) ، وأرجو من القارئ أن يرهف أذنيه ليلتقط ما بين السطور، وقبل ذلك ما فى السطور نفسها، من افتراءات ضالة مضلة عن تشابه القرآن وأسجاع الكهان: "استأثر ضرب آخر من النثر باهتمام طائفة من الكهّان والمتنبّئين والمتعبّدين فى العصر الجاهلى، ونُسِب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم. ويبدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك قد دفعت هذا النوع من النثر إلى مقدمة أنواع النثر الجاهلي لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك. ومن

ناحية منطقية فإن الإسلام جبّ مضمون نثر الكهان وأساليبه السجعية، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية فإن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نثر الكهان. ذلك أن الموضوعات التى كانت تتواتر فيه هى إجمالا أخلاقية وعظيّة تتخلّلها ضروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تماثل إلى حد ما الصيغ السجعيّة التى نجدها فى الخطب والنصوص الدينية. ومن المحتمل أنّ أصل التعارض كان قائمًا فى الوظائف التى يقوم بها كلّ من النبي والمتنبّئ، أى الخلاف فى وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن. ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيدًا عن سلطة المقدس لوجدنا أنّ التماثل فى المضامين والأساليب لا يفضي إلى نوع من التعارض الحقيقي، ويرجح أنّ ظروفًا واقعية وتاريخية أوجدت ذلك التعارض، وفرضت نوعًا من التناقض بينهما" (عبد الله إبراهيم/ سيرة المرويّات النثرية السردية الجاهلية/ شبكة الذاكرة الثقافية). هذا ما قاله عبد الله إبراهيم، وتعليقنا هو: هل صحيح أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نثر الكهان كما زعم هذا المدلس؟ هل كان الكهان يدعون إلى الصدق والعفة وإعطاء الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل حقوقهم فى أموال القادرين؟ هل كانوا يحثون على النظام والنظافة وإماطة الأذى عن الطريق وتنظيف الأسنان وتمشيط الشعر؟ هل كانوا يحضون على العلم ويَرَوْنَه أفضل

ألوان العبادة؟ هل كانوا يحمّسون الناس إلى تشغيل عقولهم والحرص على استقلال آرائهم فلا يكونوا إمّعات؟ هل كانوا حرصاء على نشر الوعى بالسنن الكونية فى السماوات والأرض ودنيا البشر؟ هل كانوا يقولون إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا العمل؟ هل كانوا يحاربون الوثنية والثنوية والتثليث وتأليه البشر والجماد ويقفون حياتهم على دعوة التوحيد؟ هل كانوا يقولون إن لكل داء دواء، وعلى البشر أن يبحثوا عن الدواء لكل مرض يصيبهم؟ هل كانوا يصلون ويزكون ويصومون؟ هل كانوا يعملون بكل جهدهم على الوقوف بكل قواهم ضد الاستغلال والظلم والجبروت والتأله؟ هل كانو يقولون باليوم الآخر والحساب الإلهى والجنة والنار؟ هل كانوا يتفكرون فى عظمة الله وما ينبغى له من التمجيد والتحميد والطاعة والإخبات؟ هل كانوا يؤمنون بالرسل والنبيين السابقين؟ وأخيرا وليس آخرا: هل كانوا يكرهون مهنتهم القائمة على الكذب والتدليس والتضليل ويتوعدون من يقصدهم بسخط الله عليهم؟ ثم هل كان الرسول يدعى المقدرة على التنبؤ بالغيب؟ أم هل كان يأخذ أجرا على دعوته؟ أم هل كان يفتخر بأنه على صلة بالشياطين؟ أم هل كان يلوذ ببيوت الأوثان؟ أم هل كان يؤرث نيران المفاخرة بين الناس ثم يلتف ليفصل بينهم؟ لقد كان الكهنة يفعلون هذا كله وأشنع منه، أما الرسول فقد كانت سبيله هى سبيل الطهر والأمانة والسمو والعقل والعلم والتحضر. ألا إن المدلّسين لفى ضلال مبين!

الخُطَب

يتناول الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى مبيِّنًا أنهم كانوا بارعين فى هذا الميدان براعة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التى يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام فى مثل تلك المواقف ينثال عليهم انثيالا، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوّقهم فى ميدان الأحاديث العامة معروفا لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر. بَيْدَ أن من الباحثين العرب المـُحْدَثين من يرى أنهم كانوا يُعِدّون خُطَبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبَّقًا، فهذه طبيعة الإبداع الأدبى كما يقول (د. إحسان النص/ الخطابة العربية فى عصرها الذهبى/ دار المعارف/ 1963م/ 16- 17)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أنّ مِنْ خُطَبهم التى تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحلّيه السجع، مما يصعب تصور انثياله على لسان الخطيب ارتجالا، وهو من الأسباب التى دفعتنى للشك فى بعض الخُطَب الجاهلية المثقلة بالتسجيع والمحسنات البديعية كما سيأتى لاحقا. كما كانت لهم تقاليد مشهورة فى إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لُبْس العمائم واتخاذ المِخْصَرة، أى العصا. وفى كتاب الجاحظ المذكور آنفًا نماذج من الخُطَب التى تركها

لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد ممن اشتهروا بالتفوق فى ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب فى ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تَضِع رغم أنهم كانوا أُمّة أُمِّيّة فى غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجى زيدان أن العرب فى ذلك العصر كانوا خطباءَ مَصَاقِعَ بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوى نفوس حساسة أبيّة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة الملهّبة مكانة عظيمة عالية، فضلا عن أنهم كثيرا ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم فى المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث فى تلك الظروف، وهم فى العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضا أنهم كانوا يدرِّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون

خطبهم ويتوارثونها جيلا بعد جيل، ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ **1/ 167- 169**).

و"كان مفروضا فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ **1955**م/**21**).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخى الأدب العربى قديما وحديثا، بيد أن للدكتور طه حسين رأيا مختلفا تماما عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطَبًا ولا غير خُطَب: فالنثر من جهةٍ يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة فى جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شىء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلّفوه لنا من خطب وحِكَم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا فى أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه القهقرى مستثنيا من شكه هذا بعضا من النثر، وهو الأمثال، التى يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى النثر الفنى الذى يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل

الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط دينى عملى، بل كانت قائمة على التجارة، وهى لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطب (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ 1964م/ 329- 332). ولعله لهذا السبب نبحث عبثًا، فى كتاب "التوجيه الأدبى" الذى ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أى حديث يتعرض للخطابة فى العصر الجاهلى، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءًا من العصر الإسلامى فهابطًا إلى العصر الحديث متجاهلا تمام التجاهل أى كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التوجيه الأدبى/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ 1359هـ- 1940م/41 وما بعدها، وكذلك 73 وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضا أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارنا للتاريخ الإنسانى: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه"، وأنه "لهذا رُوِيَت لنا الخُطَب منذ عُرِف التاريخ"، وأنه متى توفر عاملا الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشا كبيرا (المرجع السابق/ 38- 40)، وهو ما تحقق للعرب فى ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها

عليهم ويترلون لها عن حَظٍّ مــن حريتــهم واســتقلالهم، كمــا أن السخط على الأوضاع كان منتشرا بين كثير منــهم آنــذاك، هــذا السخط الذى كان إحدى عُــدَد الإســلام فى مواجهــة الجاهليــة وأوضاعها الباطلة التى جاء ليغيرها إلى ما هو أفــضل. ثم إنــه مــن غير المنطقى أن يخترع العــرب فى عــصور التــدوين كــل تلــك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم مــن بينــهم من يفضح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صارت كلــها أمــة مــن الكذابين أو من الكذابين والسذّج المغفلــين الــذين يجــوز علــيهم مثل هذا الخداع دون أن يــثير فــيهم إنكــارا أو حــتى دهــشة واستغرابا!

على كل حال فطه حــسين إنمــا يــسير فى إنكــاره للنثــر الجاهلى على ذات الدرب المتخبِّط الأهوج الــذى ســار عليــه فى نفيه للشعر الجاهلى كله تقريبــا مــشايعا المحتــرق مرجليــوث فى خُرْقه وضلاله وعَمَــى منطقــه وبــصيرته! وفــوق ذلــك فمــن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحقٍّ عبــد الله عبــد الجبــار ود. محمد عبد المنعم خفاجى، أن يرتقوا فجأة فى ميــدان الخطابــة هــذا الارتقاء الذى يقرّ هو به بعــد الإســلام لــو كــانوا لا يعرفــون الخطابة فى الجاهلية أو كانت خطابتهم علــى الأقــل مــن التفاهــة وعدم الغَنَاء بالموضع الذى يــزعم طــه حــسين (انظــر كتابهمــا: "قصة الأدب فى الحجاز فى العــصر الجــاهلى"/ مكتبــة الكليــات

الأزهرية/ 1400هـ- 1980م/ 202- 203). كذلك قد قَفَشه د. محمد عبد العزيز الموافى قفشةً بارعةً بحقٍّ حين لفت الانتباه إلى أن طه حسين عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده فى ذلك الإنكار على خُلُوّ العصر الجاهلى من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلى على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز الموافى/ قراءة فى الأدب الجاهلى/ ط7/ دار الثقافة العربية/ 1424هـ- 2003م/ 286- 287). ونضيف نحن أنه، رغم نفيه هنا أن يكون للجاهليين أى نشاط دينى عملى، كان قد أقام إنكاره للشعر الجاهلى على عدة أسس من بينها أن هذا الشعر لا يعكس حياتهم الدينية. فأى حياة دينية يعكسها إذا لم تكن لهم حياة دينية عملية أصلا كما يقول هو بعظمة لسانه؟ أى أنه يقول بالشىء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعانة بالسفسطة السخيفة التى لا تُحِقّ حَقًّا ولا تُبْطِل باطلا! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصًا شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء فى ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوانئذ. ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبىّ:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وقول أبى زبيد الطائى:

وخطيـــب إذا تمعـــرت الأو جه يـــوما فى مأقـــط مشهـــود

وقول النجاشى الحارثى:

وَخَطِيـــــبٌ إِذَا تَـــمَعَّرَتِ الأَوْ جُـــهُ يَشْجَى بِهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ

وقول بلعاء بن قيس الكنانى:

ألا أبـــلغ سُرَاقة يا ابـــن مالٍ فبئس مقـــالة الرَّجل الخطيبِ

وقول ملاطم الفزارى:

ذكرت بـــرؤيتى حَمَل بن بـــدرٍ وصـــاحِبَه الألدَّ على الخطيـــبِ

وقول أوس بن حجر:

أَمْ من يكون خطيب القوم إذ حَفَـــلوا لـــدى الملوك ذوى أَيـــدٍ وأفضالِ؟

وقول عامر بن فَضَالة:

وهم يَدْعَمون القول فى كل محفلٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما

وقول عامر المحاربى:

يَـــقُومُ فَلا يَعْـــيا الكَلامَ خَطيبُنا إِذا الكَرْبُ أَنْسَى الجِبْسَ أَنْ يَتَكَلَّما

وقول عمرو بن الإطنابة:

والقائلـــين فلا يعابُ خطيبُهـــم يـــومَ المقالةِ بالكلامِ الفـــاصلِ

وقول عمرو بن كلثوم:

وَأَبِي الَّذي حَمَلَ المِئِينَ وَناطِقُ الـــ مَعروفِ إِذْ عَيِّ الخَطيبُ المِفْصَلا

وقول أميمة بنت أمية:

وَكَم مـــــنِ ناطـــقٍ فيهـــــم خَطيـــبٍ مِصْقَـــــعٍ مُعْـــرِب

وقول زبان بن سيار الفزارى:

كُلُّ خَطيبٍ مِنهُمُ مَؤوفُ

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التى قَـدِمَتْ علـى النبى فى المدينة فى العام التاسع للهجرة كـان يـضم بـين أفـراده خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبـادلون الخطابـة مـع الرسـول عليه السلام ومَنْ حوله من الصحابة، وهـذا أيـضا مـن الأدلـة التى لا يمكن نقضها مهما سفسط الـدكتور طـه. وقـد تعـرض لذلك د. جواد على فى المجلـد الرابـع مـن كتابـه: "المفـصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" (فى الفـصل الخـاص بـ"النشـر"، تحت عنوان "الخطابة")، إذ قال: "والخطابة عند الجـاهليين حقيقـة لا يستطيع أحد أن يجـادل في وجودهـا، ودليـل ذلـك خطـب الوفود التي وفدت على الرسـول، وهـي لا تختلـف في أسـلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسـلوب الجـاهليين في الـصياغة وفي طـرق الإلقـاء. ثم إن خطـب الرسـول في الوفـود وفي النـاس وأجوبته للخطباء هي دليل أيـضا علـى وجـود الخطابـة بهـذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كـان مـن رأيـه أن هناك خطبا جاهلية منحولـة وأن نـصوص الخطـب الـصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغـيير بفعـل الـزمن وضـعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخُطَب ليـست كالـشعر، أى لـيس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يَهْرِف به طـه حـسين هنـا علـى النحـو الذى كان معروفًا عنه عند عودته من أوربا متصورا أنه قـد حـاز

العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم فى تاريخ العرب وأمجادهم بعُجَره وبُجَره دون أن يتريث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموتور منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتَّسِمون به من غيرةٍ ومسارعةٍ للنجدة وبلاغةٍ فى القول وذَلاَقةٍ فى اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق فى ميدان الخطابة، مبينا أن خطبهم كانت تتسم بالقِصَر والسجع حتى تَعْلَق بالذهن عُلُوقًا سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ **19**). وبالمثل يقرر د. على الجندى بحقٍّ أنه قد "ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون فى مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرِّضون على القتال استثارةً للهمم وشَحْذًا للعزائم، وبها كانوا يحثّون على شن الغارات حُبًّا للغنيمة أو بَثًّا للحميّة رغبةً فى الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقنًا للدماء ومحافظةً على أواصر القربى أو المودة والصلة، ويحبّبون فى الخير والتصافى والتآخى، ويبغّضون فى الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جَلْبًا لمنفعة أو دَرْءًا لبلاء أو تهنئةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً فى مصيبة، فوق ما كانت

الخطابة تؤديه فى المصاهرات، فتُلْقَى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين بعضهم فى بعض" (د. على الجندى/ فى تاريخ الأدب الجاهلى/ **264- 265**). وعلى هذا الرأى أيضا نجد د. أحمد الحوفى، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعِدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطَبهم لُمَعًا بارقةً دون تفصيل أو تخطيط (أحمد محمد الحوفى/ فن الخطابة/ مكتبة نهضة مصر/ **150- 151**). أما السباعى بيومى فيرى أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أيما حُفُول، "فيتخيرون لها من المعانى أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعًا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على العمل" (تاريخ الأدب العربى- ج **1** فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ **97**). ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التى كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلا إن "الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب (أى نارها وشرها) وحِمَالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفى عقد الإملاك (أى الزواج) وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) ولكل ما أُرِيدَ

ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب/ البرهان فى وجوه البيان/ تحقيق حفنى شرف/ مطبعة الرسالة/ 1969م/ 150).

أما د. شوقى ضيف فيسلك سبيلا مخالفة للفريقين جميعا، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء فى الجاهلية وتوفُّر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التى تكفل لها الازدهار، إذ به يشك فى كل ما وصلنا تقريبا عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب فى هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلى وعصر التدوين أيام العباسيين. ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذَوْها. وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والمفاخرات والمنافرات التى تُنْسَب إليهم مجوَّدة مسجوعة مثلا فمعنى هذا أنهم فى الجاهلية كانوا يجوّدون ويَسْجَعون فى خُطَبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 410- 419، والفن ومذاهبه فى النثر العربى/ ط7/ دار المعارف/ 1974م/ 33- 38).

إلا أننا، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كَسَرهما لهذا الموضوع فى كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلِّم بما يقول على عِلاّته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت فعلا إلى مخترعى الخطب

الجاهلية نصوصٌ صحيحةٌ منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتفَوْا بما اخترعوه رغم تَيْح الأصل لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غَيْرِ مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعْد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربى تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرِف العربى بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التى ينتجها نثرا كانت أو شعرا، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساخ تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيرا من خطبهم فى الجاهلية كان مسجَّعًا مجنَّسًا مُرَاعًى فيه الموازنة وقِصَر الجمل، فضلا عن قِصَر الخُطَب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبى لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بَلْهَ المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياسا على ما يَخْبُرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهى ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفتها الجاهلية من حِدّة ودِقّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أوانذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنثورة رغم تصورنا العكس اعتمادا على ظواهر الحال المضلِّلة. ولا ننس

أيضا أن العقل الجاهلى لم يكن ينوء بما ننوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفا عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذى كان عليه الوضع فى العصر الجاهلى. وفوق هذا فإن الأُمِّيّة التى كانت تَسِم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعا إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطا لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضا، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخُطَب ونسبوها للجاهليين قد قاسُوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أى أن بُعْد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذى عزاه إليه وعلَّل به شكه فى صحة خطب الجاهلية التى بلغتنا. الواقع أن آخِر كلامه يَنْقُض أوّله بكل أسف! بَيْدَ أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شىء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تَخْرِم منه شيئا، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شىء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شىء فى عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس. ودعنا من النصوص التى زُيِّفَتْ تزييفًا واخْتُرِعَتْ اختراعًا مما سنتناوله بشىء من التفصيل فيما يلى حينما نقف عند طائفة من النصوص الخطابية التى ليست قَمِينَةً فى نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التى يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التى يُفْتَرَض أن أصحابها يتنبأون فيها بمجىء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآنُ والحديثُ وينطق به العقلُ والمنطقُ. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه فى كتبهم. لكنهم لم يكونوا هُودًا ولا نصارى، فأنَّى لهم ذلك؟ وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذى فى القرآن أن عيسى قد بشَّر برسول يأتى من بعده اسمه "أحمد" (الصف/ 6)، على حين أن اسم النبى فى هذه الخُطَب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهى: لو أن ما جاء فى تلك الأحاديث صحيح تاريخيا، فكيف لم يحاجج النبى به قومه فيقول لهم مثلا: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبيا من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بى بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتى؟ لكننا ننظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم فلا نجد أثرا لمثل هذه الحجة التى كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيما تعضيد! كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَىّ جد النبى البعيد، ولو كان

هذا صحيحا فكيف لم يذكِّر عليه السلام أهل بيته الـذين كفـروا به كعمه أبى لهب مثلا أو عمه أبى طالب بما قالـه جـدهم، ونحـن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بما كـان عليـه الآباء والأجداد كما تبدَّى فى ردّ الأخير فيما يـروون عنـه عنـد موته، إذ اعتذر عن الدخول فى دعوة محمـد علـى أسـاس أنـه لا يحب المخالفة عن دين آبائه؟ وعلى هذا فإننا نقـف مرتـابين أشـد الريبة إزاء الخطبة التالية التى ينـسبونها لجـد الـنبى ذاك، والـتى يقول فيها: "اسمعوا وعُوا، وتعلَّموا تَعْلَمـوا، و تفهَّمـوا تَفْهَمـوا. ليلٌ سـاجٍ، ونهـارٌ صـاجٍ، والأرض مهـاد، والجبـال أوتـاد، والأولون كالآخرين، كـل ذلـك إلى بـلاء. فَـصِلُوا أرحـامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلـك رجـع، أو ميِّتًـا نُـشِر؟ الدار أمامكم، والظـن خـلاف مـا تقولـون. زَيِّنُـوا حَـرَمكم وعظِّموه، وتمسكوا به ولا تفـارقوه، فـسيأتي لـه نبـأ عظـيم، وسيخرج منه نبي كريم.

نهـارٌ وليـلٌ واختلاف حـوادثٍ … سواءٌ علينا حُلْوها ومَرِيرُهـا
يـؤوبان بالأحـداث حتى تأوَّبـا … وبالنِّعَم الضـافي علينا سُتُورُها
يـؤوبان بالأحـداث حتى تـأوَّبا … لها عُقَدٌ ما يستحيل مَرِيـرُها
على غفـلة يـأتي النبي محمـدٌ … فيُخبِر أخبارًا صَدُوقًا خبيرُهـا

***

يا ليتني شـاهد فَحْـواءَ دعوتـه … حين العشيرةُ تبغي الحقَّ خذلانا"

وهذه الخطبة، فوق ذلــك، تحتــوى علــى أشــياء أخــرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منــها أن العبــارة الــتى يــتمنى فيها كعب أن يكون حَيًّا عند ظهور محمــد تــذكِّرنا بمــا قالــه فى نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذى كان هناك ســبب وجيــه لكلامــه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبى عليه الــسلام، فمــن الطبيعــى أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ هــا هــو ذا الــنبى الموعــود واقفــا أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول مــا رآه فى الغــار عنــد ظهــور جبريل له، فيجد من واجبه الإنسانى علــى الأقــل أن يبــصِّره بمــا ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعليــة ويُظْهِــر لــه تعــضيده ويرفع من روحه المعنوية. أما كعــب فكانــت بينــه وبــين الــنبى الذى يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال. وفــضلا عــن ذلك فمِيسَم القرآن الكريم واضــح وضــوحا كــبيرا فى خطبتــه أسلوبًا ومعنًى كما فى قولــه: "والأرض مهــاد، والجبــال أوتــاد، والأولون كالآخرين... فسيأتي له نبأٌ عظيم، وســيخرج منــه نــبيٌّ كريم"، وهو ما يذكِّرنا بقولــه تعــالى: "ألم نجعــل الأرض مهــادا* والجبال أوتادا*...؟" (النبأ/ 7)، "قــل: إن الأوّلــين والآخِــرين* لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلــوم" (الواقعــة/ 49- 50)، "قــل: هو نبأٌ عظيم" (ص/ 67)، ""ولقــد فتَنّــا قبلــهم قــومَ فرعــون وجاءهم رسولٌ كريم" (الدخان/ 17). ولــو كــان كعــب قــال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكــل بــساطة وشماتــة

فى وجهه صلى الله عليه وسلم قائلين له: مـا بالـك تأخـذ كـلام جدّك وتدَّعِي أنه من وحى السماء؟ ثم ما معـنى نـصحه إيـاهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه؟ هـل سمـع أحـد أن قريـشا فكرت يوما فى شيء من هذا القبيـل، وهـى الـتى لم يكـن لهـا شرف فى العرب إلا شرف القيـام علـى أمـر البيـت الحـرام؟ وبالمناسبة لماذا لم يعرِّج كعبٌ على الأوثان الـتى كانـت فى بيـت الله فيزجر قومه عن عبادهـا وتقديـسها مـا دام يتحـدث بهـذا السرور والإيمـان عـن نبـوة محمـد صـلى الله عليـه وسـلم؟ والطريف أن أحدا من سامعيه لم يخطر له أن يستفـسر منـه عمـن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبى من العـرب أصـلا. بـل إنه لمن الواضح أن كعبا، حسب الخطبة الـتى طالعناهـا لتونـا، لم يكن يدور فى باله أن محمدا هذا لن يكون أحدا آخـر غـير حفيـد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

وعلى نفس الشاكلة تجرى الأحاديـث التاليـة المنـسوبة إلى خُنَافر بن التوأم الحِمْيَري وشافع بـن كُلَيْـب الـصدفي وسَـطِيح الذئبي وشِقّ أنمار وعُفَيْراء الكاهنة على التوالى:

1- حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَـرِيّ مـع رَئِيّـه شَـصَار: "كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قـد أُوتِـيَ بـسطة في الجسم وسَعة في المال، وكان عاتيا. فلمـا وفـدتْ وفـود الـيمن على النبي وظَهَر الإسلام أغـار علـى إبـلٍ لِمُـرَاد فاكتـسحها،

وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمي، وكان سيدا منيعا، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصِبًا كثير الشجر من الأيك والعَرِين. قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآيِ

الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: اِلْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم امَّلَسَ عنى، فبِتُّ مذعورا أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أَعْبُدِي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجِمَالها ونُوقها. جَمْع: "حائل" و"سَقْب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعلَّمني سورا من القرآن، فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة".

2– شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ يتكهن بظهور النبي: "قَدِمَ على تُبَّعٍ الآخِرِ ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقومٍ مُلْكًا يوازي مُلْكي؟ قال: لا، إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ في الزَّبْور، فُضِّلَتْ أمته في السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد

النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُؤَيّ، ثم أحد بني قُصَيّ. فنظر تُبَّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي".

3- سَطِيحٌ الذئبي يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر اللَّخْمِيّ:

"رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْمِيّ ملكُ اليمن، وقد مَلَكَ بعد تُبَّعٍ الآخَر، رؤيا هالتْه فلم يَدَعْ كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجِّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها، فأخبِروني بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقٍّ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَدِم عليه سَطِيحٌ قبل شِقّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها فأخبِرْني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلتْ منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئا يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش، لَيَهْبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش، فلَيملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين، أكثر من

ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفَيَدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلي ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إِرَم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفَيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَلِىّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخِرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقّ، إن ما أنبأتك به لَحَقّ".

4- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَينزلَنّ أرضَكم السودان، فلَيغلبُنّ على كل طَفْلَة البَنَان، ولَيملكُنَ ما

بين أَبْيَن إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفَصْل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومٌ تُجْزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتُك به لَحَقٌّ ما فيه أَمْض. فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهّز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمِنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر".

5- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلَة على سَطِيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلةُ وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل

مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أى عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابًا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سطيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟ ... يا فاضل الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ؟

أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ ... أبيض فضفاض الرداء والبدنْ

رسول قَيْل العجْم يَهْوِى للوثن ... لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، علـى جملٍ مُـشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الـضريح، بعثـك مَلِـك بـني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود الـنيران، ورؤيـا الموبَـذان. رأى إبلاً صِعَابًا، تقود خيلاً عِرَابًا، قد اقتحمـت في الـواد، وانتـشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثـرت الـتلاوة، وظهـر صـاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحـيرة سـاوة، وخمـدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الـشام لـسطيحٍ شـاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سـقوط الـشرفات، وكـل مـا هو آت آت. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفـرطهم ... فـإن ذا الدهرَ أطوارًا دهـاريرُ
مـنهم بنو الصرح بهرامٌ وإخـوته ... والهـرمزان وسـابورٌ وسـابورُ
فـربما أصبحـوا يـوما بمترلـةٍ ... تهـاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيـرُ
حَثّوا المَطـيِّ وجَـدّوا في رِحالهمو ... فـما يقوم لهم سـرجٌ ولا كُـورُ
والـناس أولاد عَلاّتٍ، فمَنْ عَلِموا ... أَنْ قـد أَقلَّ فمحقورٌ ومهجـورُ
والخـير والشر مقرونان في قَـرَنٍ ... فـالخير متَّبَعٌ، والشـر محـذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بمـا قالـه سـطيح، فغمَّـه ذلـك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عـشر ملكـا يـدور الزمـان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخـر مـن هلـك منـهم في أول خلافة عثمان رضي الله عنه".

6- عُفَيْراء الكاهنة تَعْبُر رؤيا مَرْثَد بن عبد كُلاَل:

"رُوِىَ أن مَرْثَد بن عبد كُلاَل قَفَلَ من غزاةٍ غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعَهم عطاء واشتد سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالتْه في حال منامه، فلما انتبه أُنْسِيَها حتى لم يذكر منها شيئا وثَبَتَ ارتياعُه في نفسه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن. ثم إنه حَشَرَ الكهان فجعل يخلو بكاهن كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأنْ لا عِلْم عندي، حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك، فتضاعف قلقه، وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك! إن الكواهن أَهْدَى إلى ما تسأل عنه لأن أتباع الكواهن من الجانّ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان. فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علما مما أراد علمه. ولما يئس من طَلِبَته سلا عنها. ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد وانفرد عن أصحابه فرُفِعَتْ له أبيات من ذَرَا جبل (أى فى ظل جبل). وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت إليه منه عجوز فقالت له: انزل بالرُّحْب والسَّعَة،

والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعَة (الممتلئة عن آخرها)، والعُلْبة المُتْرَعة. فنزل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أى النسائم) نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاما ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام، هل لك في الطعام؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لَمّا رأى أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فداك البشر، فجَدُّك (حظّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم قَرَّبَتْ إليه ثَرِيدًا وقَدِيدًا وحَيْسًا، وقامت تذُبّ عنه حتى انتهى أكله، ثم سقته لبنا صَرِيفًا وضَرِيبًا، فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْنًا، وقَلْبَه هَوًى، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيْرَاء. فقال لها: يا عفيراء، من الذي دَعَوْتِه بالمَلِك الهمام؟ قالت: مَرْثَد العظيم الشان، حاشر الكواهن والكهّان، لمعضلةٍ بَعُدَ عنها الجان. فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أَصَبْتِ يا عفيراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جَرْسٍ صادع: هلموا إلى المشارع، فرَوِيَ جارِع، وغَرِقَ كارِع. فقال الملك: أَجَلْ، هذه رؤياي،

فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَابِع، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع، والكارع عدوٌّ منازع. فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبي أم حَرْب؟ فقالت: أُقْسِم برافع السماء، ومُنْزِل الماء، من العَمَاء، إنه لَمُطِلّ الدماء، ومُنَطِّق العقائل نُطُقَ الإماء. فقال الملك: إلامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمَنْ أعضاده؟ قالت: أعضاده غطاريفُ يمانون، طائرهم به ميمون، يُغْزِيهم فيغزون، ويدمِّث بهم الحُزُون، وإلى نصره يعتزُون. فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبتها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غيور، ولأمرى صبور، وناكحي مثبور، والكَلَف بي ثُبُور. فنهض الملك وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقةٍ كَوْماء".

ونبدأ بحديث خنافر، وفى هذا الحديث نلاحظ ما يلى: أن رَئِىّ خنافر قد تركه فى عمايته فلم يعلمه بأن نبيا جديدا ظهر بدعوته فى بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس فى تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافرا. فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدرى خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته

فيها رسولٌ من لدن النبى الكريم هو معاذ بن جبل رضى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافرًا إلا خبرا يعرفه القاصى والدانى؟ إن معنى هذا أن شيطان خنافر قد هجره هجرا غير جميل طَوَال ما يقرب من عشرين سنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمن فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئِىٍّ من الجن؟ أم تراه توقف عن ممارستها كل تلك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصةٍ أن خنافرا لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدَى عليها وعملها على الثأر منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة فى القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شَصَار لن يساعد خُنَافِرًا فى كهانته، مع أننا نعرف جيدا أن الإسلام يكفِّر الكهان ويحاربهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعدا سيكون لقاء مجرَّما ومحرَّما أشد التجريم والتحريم، وهذا إن قَبِلَ الجنى أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التى يدعو إليها خنافرا! فكما ترى هذه ثُغْرَة أخرى فى

القصة يصعب بل يستحيل سَـدّها. ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هذا الذى كان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لماذا لم يعرف شصار بدوره بنبإ الإسلام إلا من إخوان له من الجن كانوا قد آمنوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سماع القرآن الذى كانوا يتلونه؟ ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس؟ فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه من يريد سماعه؟ فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور؟ إن سورة "الجن" والآيات 29- 32 من سورة "الأحقاف" تحدثاننا عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليه السلام دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هذه على خلاف ذلك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن؟ أترى القصة تريد أن تقول إن "الشيخ البعيد سره باتع"؟ أم تريد أن تجرى على سُنّة المثل القائل: "من أين أذنك يا جحا؟"؟ كذلك ألم ينصح شَصَارُ لخنافر بأن يأتى النبىَّ فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشوِّق لرؤية النبى الكريم؟ يا له من كاهن كسول! بل لماذا أراد صنعاءَ من الأصل، ولم يأت لها ذكر فى الحوار بينه وبين رَئِيّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القـصة، فهـل كـان خـبر خنافر لِيغيب عن كُتُب الحديث؟ كذلك لو كان مـا قرأنـاه هنـا صحيحا لقد كان خبر ذلـك الكـاهن الـيمنى سـلاحا بتـارا فى الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صـحيح أنـه إنمـا أسلم، كما رأينا، بأُخَرة، لكن لا شك أن خـبره كـان يمكـن أن يكون ذا نفع جزيل فى معركة الدعاية بحيث يـسهِّل إنجـاز المهمـة الباقية، وهى القضاء على فلول الوثنيـة فى بـلاد العـرب، تلـك الوثنية التى لم تكن قد خمدت تماما حتى بعد وفـاة الرسـول عليـه الصلاة والـسلام وانفجـرت متخـذةً شـكل رِدَّةٍ مـستطيرة. ثم مصطلح "السجع المتكلَّف"، هـذا المـصطلح البلاغـى الـذى لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العـصر العباسـى، مـن أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفتـه؟ بـل إن فى الخطبـة سـجعا متكلَّفا لا قِبَل للجاهليين به كما هـو واضـح فى المثـال التـالى: "خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يـا شَـصَار، عـن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثـار، تَـنْجُ مـن أُوَار النـار"، علاوة على هذه البهلوانية البلاغيـة الفنيـة الجميلـة المتمثلـة فى هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: "قال: اسْـمَعْ أَقُـلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ" والتى يـصعب علـىّ أن أتـصورها مـن شِـيَم الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحـسب، فهـذا الكـلام المنـسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عـالم خفـىٌّ لا نعـرف نحـن

البشر عنه شيئا سوى ما جاء فى الوحى كما هو الحال فيما أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن أهضم شيئا منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربى، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْع والجِنَاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضا؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم فى سُورَتَىِ "الأحقاف" و"الجن" قد استخدموا كذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التى لا ندرى نحن البشر عنها شيئا.

على أن القضية لّما تنته عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله: "كان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أَجَل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد أنه قابل قبيلة من الجن)، حُكّامًا على الحُكّام، يَذْبُرون ذا رونقٍ من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ

فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأوضحَ نهجًا قد دَثَر، فيه مواعظُ لمن اعتبر، ومعاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين (أى الحجارة السُّود)، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين". ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضح من مفتتح حديثه، كان يعرف بمجيء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئا من ذلك بالمرة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟

ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد على عن سجع الكهان فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، فوجدته يقول

عن هذه القصة إنها "خبر يرجع سنده إلى ابن الكلــبي. وقــد ذكــر في "الأخبار المنثورة" لابن دُرَيْد أنه (أى خُنَافِرًا) أســلم علــى يــد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظــه ابــن الكلــبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والــده قــد حــضر المحاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَــدّ مــن المــستحيلات". أى أن فى العلماء العرب من لا يطمئنــون مثلــى إلى هــذه القــصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال فى حــد ذاتــه بــالقول بأن والد ابن الكلبى، وإن لم يحضر واقعة إســلام خنــافر والحــوار الذى دار بينه وبين شَصَار قبلها، قد سمعها مــع هــذا ممــن سمعهــا بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفــضل هنــا اللــصوقُ بالأدلة التى اعتمدت أنا عليها بدلا مــن الالتجــاء إلى التــشكيك فى ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شــافعٍ الــصَّدَفِيّ فغريــبٌ أن يقــول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غسّان أعظم مــن مُلْــك التبابعــة علــى الرغم من أن الغساسنة لم يكونــوا ســوى مملكــة صــغيرة علــى حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، علــى حــين أن التبابعــة كــانوا يحكمون دولة كــبيرة كــاليمن ذات اتــساع وتــاريخ وحــضارة معروفة لم يكن لدُوَيْلَة غسان منــها شــىء! ثم غريــب أيــضا أن تترك القصةُ التوراةَ والإنجيلَ وتذهب إلى الزَّبُور لتقــول إنــه قــد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنــه لم يــأت فى القــرآن ولا

فى الحديث أن بشارةً مثل هــذه موجــودةٌ فى الزبــور! وبالنــسبة لسَطِيح ونبوءته لربيعة اللَّخْمِىّ هــل يجــوز فى العقــول أن يجــرؤ كاهن كسطيح على أن يَجْبَه الملك ويُــدْخِل الغــمّ عليــه بقــول الحقيقة له كاملة ودون تَوْشِيَة، مع أنــه كــان فى مندوحــة عــن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لِتقع قبــل بِــضْعَةٍ وســبعين عامــا يكون هو نفسه خلالها أو الملــك قــد مــات، وكــان الله يحــب المحسنين؟ وهذا إن جــاز لنــا أن نــصدق أن سَــطِيحًا يمكــن أن يعرف شيئا من أمــور الغيــب المحجــوب عــن البــشر والجــن والملائكة جميعا؟ ثم أليس غريبا ألا يجد كسرى مــن بــين كهّانــه فى مملكته الطويلة العريضة من يــستطيع أن يَعْبُــر لــه رؤيــاه حــتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب؟ كذلك من غــير المعقــول أن يجرؤ كاهن على أن يَجْبَه رسولَ كــسرى بهــذا التفــسير المــزعج للرؤيا، ثم يَجْبَه هذا به عاهلَه دون محاولــة مــن جانبــه لتلطيــف وقع الأمر. ودَعْنا الآن من التحوير فى تعبير الرؤيا كمــا قلنــا مــن قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التى قام ســطيح هــو أيــضا بتفسيرها! ومن الغريب فى الأمر أن أيًّا من كبــار رجــال فــارس، حين بدأ الفتح الإسلامى لبلادهم، لم يتذكر رؤيــا عاهلــهم هــذه، مع أنها ليست من الأشياء التى يمكــن أن تُنْــسَى بــسهولة نظــرا لخطورة موضوعها والظروف التى رُئِيَــتْ وفُــسِّرَتْ فيهــا كمــا لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هــذه الرؤيــا وتفــسيرها إذا كانــت

قد امَّحَتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغى أن يفوت انتباهَنا ما جاء فى تعبير شِقّ أنمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يوم الفصل" (الذى ورد فى سورة "المرسلات")، وقوله أيضا: "وربِّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ؟" (المأخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يوم الميقات" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "ميقات يوم معلوم" الموجودة فى سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعْقَل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبَة الملك لها؟ إن ما قالته فى تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعا بحال! ثم متى ذبح النبى قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟ فأين ذهب الصِّدّيق إذن والفاروق وذو النورين وأبو الحسنين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشى وصُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو دُجَانة والنابغة الجعدى وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكَرِب وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من غير الأنصار، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعا؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِىّ وانطفاء النيران فى معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فنُعَدِّى عنها لأنها لا

حقيقة لها فى واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لهـا كتـب المـسلمين الأوائل بشىء، وهو ما يذكّرنا بأسـطورة انـشقاق الهيكـل عنـد وقوع الـصَّلْب طبقًـا لروايـة مـؤلِّفى (أو بـالأحرى: ملفِّقـى) الأناجيل! ثم لا ينبغى أن نتجاهل الـوتيرة الواحـدة الـتى تجـرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها علـى الـسؤال مـن جانب تُبَّع، والجواب مـن جانـب الكـاهن أو الكاهنـة بـلا أى تغييرٍ، حَذْوَك النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحـث فى خُطَـب الجـاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صـدرت عنـهم، كمـا فى الشاهد التالى، وهو من خُطْبة عامر بن الظَّرِب العَـدْواني حـين خُطِبَت ابنته عَمْرة، إذ جاء فيهـا قولـه لقومـه: "فهـل لكـم في العِلْم العليم؟ قيـل: مـا هـو؟ قـد قلـتَ فأصـبتَ، وأخـبرتَ فصدَقْتَ. فقال: أمورا شتى وشيئا شَيّا، حتى يرجـع الميـت حيّـا، ويعود لاشيء شَيّا"، إذ من المستبعد تمامـا أن يعـرف الجـاهليون مصطلح الـــ"لاشيء" هذا، فهو لفـظ منحـوت لا أظنـه أبـدًا قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبـل العـصر العباسـى! بيـد أن هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون النص كله مـشكوكا فيـه، فـإنى لا أجد فى نفسى شيئا ذا بال من أن تكـون هـذه الخطبـة، فيمـا عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجـل الجـاهلى، إمـا كمـا هى أمامنا الآن أو بعد أن تكون الذاكرة أو الأقـلام قـد مـسَّتْها

بعضَ المسّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة أنْ قد رواها لنا أمثال الميدانى والجاحظ وابن عبد ربه حسبما ذكر أحمد زكى صفوت فى ذيلها، فضلا عن أن السجع فيها ليس متكلَّفًا ولا مطَّرِدًا كما فى بعض الخُطَب الأخرى.

كما أن فى بعض تلك الخُطَب ترفا ثقافيا وأدبيا لا يقدر عليه الجاهليون، ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخذ مثلا النص التالى: "كان قيس بن رفاعة يفد سَنَةً إلى النعمان اللَّخْمِيّ بالعراق، وسَنَةً إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسّاني بالشام، فقال له يوما وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضّل النعمان عليّ. قال: وكيف أفضّله عليك أَبَيْتَ اللعن؟ فوالله لَقَفَاك أحسن من وجهه، ولأُمّك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولَشِمالك أجود من يمينه، ولَحِرْمانك أنفع من نَدَاه، ولَقَلِيلُك أكثر من كثيره، ولَثِمَادك (أى قليل مائك) أغزر من غديره، ولَكُرْسِيّك أرفع من سريره، ولَجَدْوَلُك أغمر من بحوره، ولَيَوْمك أفضل من شهوره، ولَشَهْرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه (الحُقْب: القرن)، ولَزَنْدك أَوْرَى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولَجُنْدك أعزّ من جنده، وإنك لَمِنْ غسّانَ أربابِ الملوك، وإنه لمن لَخْمٍ الكثير النُّوك (الكثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك؟"، فمما لا يطمئن له القلب فى

قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِرٍ العبارةُ التالية: "ولَيَوْمُك أفضل من شهوره، ولَشَهْرُك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه"، إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا يحسنه الجاهليون من تنوُّقٍ وترفُّهٍ فكرى وأسلوبى يتمثل فى التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب فى تسلسلٍ جذاب تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها فى شكلٍ فنّىٍّ لا نظير له لدى الجاهليين. أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئا يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه فى كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من ذلك خطبًا وأحاديثَ تخلو تماما من مثل ذلك التكلف أو تكتفى من تزاويق البديع بالقليل الذى يسبغ على الكلام شيئا من الرونق دون إسراف كما فى المثال التالى من الحوار الذى دار بين قيسِ بن خُفَافٍ البُرْجُمِيّ وحاتمٍ الطائى: "أتى أبو جبيل قيسُ بن خُفَاف البُرْجُمِيّ حاتمَ طيئ في دماءٍ حَمَلَها عن قومه فأسلموه فيها وعجز عنها، فقال: والله لآتِيَنَّ من يحملها عني. وكان شريفا شاعرا، فلما قدم عليه قال: إنه وقعتْ بين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدَّمتُ مالي، وكنتَ أملي. فإن تَحْمِلْها فرُبَّ حقٍّ قد قَضَيْتَه، وهَمٍّ قد كَفَيْتَه،

وإن حال دون ذلك حائل لم أَذْمُمْ يومك، ولم أيأس من غدك. ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجم جَمَّةً ... فجئتك لما أسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاها: لِمْ حملتَ دماءنا؟ ... فقلت لهم: يكفي الحِمَالةَ حاتمُ
متى آتِهِ فيها يقل لِيَ: مرحبًا ... وأهلا وسهلا، أخطأتْك الأشائمُ
فيحملها عنى، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ من حَنَّتْ إليه المكارمُ
يعيش الندى ما عاش حاتمُ طَيِّئٍ ... فإن مات قامت للسخاء مآتمُ
ينادين: مات الجود مَعْكَ فلا نرى ... مجيبًا له ما حام في الجوّ حائمُ
وقال رجال: أنهب العامَ مالَه ... فقلت لهم: إني بذلك عالِمُ
ولكنه يعطي مِنَ امْوَال طَيِّئٍ ... إذا جلَّف المالَ الحقوقُ اللوازمُ
فيعطي التي فيها الغنى، وكأنه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارمُ
بذلك أوصاه عديٌّ وحَشْرَجٌ ... وسعدٌ وعبدُ الله، تلك القماقمُ

فقال له حاتم: إنْ كنتُ لأُحِبّ أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مِرْباعي من الغارة على بني تميم، فخذه وافرًا، فإن وفَّى بالحِمَالة، وإلا أكملتُها لك. وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفِصَالها، مع أني لا أحب أن تُوِيسَ قومك بأموالهم. فضحك أبو جبيل وقال: لكم ما أخذتم منا، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعتَه إليَّ ليس ذَنَبُه في يد صاحبه فأنت منه بريء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعا إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمِيُّ أبو جُبَيْلٍ ... لهمٍّ في حِمَالته طويلِ

فقلت لــه: خذ المِرْباع رَهْوًا فإني لســت أرضى بالقليلِ
على حــالٍ ولا عوَّدْتُ نفسي على عِــلاَّتها عِلَلَ البخيــلِ
فخــذها، إنهــا مائتــا بعيــرٍ سوى الناب الرذيَّة والفَصِيلِ
فلا مَــنٌّ عليك بهــا، فــإني رأيتُ المــَنَّ يُزْرِي بالجزيــلِ
فآب البــرجمىّ، ومــا عليــه مِــنَ اعْباء الحِمَالة من فتيلِ
يجــرّ الذيل يَنْفُض مِذْرَوَيْــهِ خفيف الظهر من حملٍ ثقيلِ"

وهذا فضلا عن النكهة الواقعية التى تفعم الــنص كلــه مما يعضد اقتناعى بأن تلك الحكايــة بمــا فيهــا مــن حــوار وشــعر صحيحة غير مفتعلة، ومن ثم أقبلها وأنا مطمئن إلى حد كبير.

ومثلهما فى ذلك النص التالى، وهــو مــن حــوار دار بــين قُبَيْصَة بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملــك المــشهور فى مقتــل والد الأخير: "قدم على امرئ القيس بــن حجــر الكنــدي بعــد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بني أســد، وفــيهم قُبَيْــصَة بــن نعــيم، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبَاءٍ وخُــفٍّ وعمامــةٍ سوداءَ، وكانت العرب لا تعتمّ إلا في التِّــرَات (أى عنــد الثــأر). فلما نظروا إليه قاموا له وبَدَرَ إليه قبيــصة فقــال: إنــك في المحــلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر ومــا تُحْدِثــه أيامــه وتتنقّــل بــه أحواله بحيث لا تحتاج إلى تــذكيرٍ مــن واعــظٍ ولا تبــصيرٍ مــن مجرّب. ولك من سُؤْدَد منصبك وشرف أعراقــك وكــرم أصــلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه من إقالــة العَثْــرة ورجــوعٍ

عن الهفــوة. ولا تتجــاوز الهمــمُ إلى غايــة إلا رجعــتْ إليــك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهــم وكــرم الــصفح ما يَطُول رغباتِها ويستغرق طَلِباتها. وقد كــان الــذي كــان مــن الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيّتــه نِــزَارًا والــيمن، ولم تُخْــصَص بذلك كِنْدَة دوننا، للشرف البارع كــان لحُجْــر: التــاج والعِمَّــة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمــد وطيــب الــشِّيَم. ولــو كــان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لمــا بخلــت كرائمنــا بهــا علــى مثله، ولكنه مضى به ســبيل لا يرجــع أخــراه علــى أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَدُ الحالات في ذلــك أن تعــرف الواجــب عليك في إحدى خِلالٍ ثلاث: إمــا أن اختــرت مــن بــني أســد أشرفها بيتا وأعلاها في بنــاء المكرمــات صــوتا، فقُــدْناه إليــك بنِسْعَةٍ تذهب مع شفرات حُسَامك بباقي قَــصَرته، فنقــول: رجــلٌ امتُحِن بهالكٍ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمتَه إلا تمكينــه مــن الانتقــام. أو فداءٌ بما يروح على بني أسد من نَعَمهــا، فهــي ألــوف تجــاوز الحسبة، فكان ذلك فــداء رجعــت بــه القُــضُب إلى أجفانهــا لم يرددها تسليط الإحَن على البُرَآء. وإما أن وادعْتَنــا إلى أن تــضع الحوامل فتُسْدَل الأُزُر، وتُعْقَد الخُمُر فوق الرايــات. فبكــى امــرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقــال: لقــد عَلِمَــتِ العــرب أنــه لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دمٍ وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتــسب بــه سُبّة الأبد، وفَتَّ العَضُد. وأما النَّظِــرة فقــد أوجبتْهــا الأجنّــةُ في

بطون أمهاتها، ولن أكون لعَطَبها سببا. وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقًا، وفوق الأسنّة عَلَقًا

إذا جالت الحرب في مأزقٍ تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذيّة، وحربٍ وبليّة. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يتمثل:

لعلّكَ أن تَسْتَوْخِم الوِرْدَ إن غَدَتْ كتائبُنا في مأزِق الحرب تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرُوَيْدًا ينفرجْ لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حِمْيَر. ولقد كان ذِكْر غير هذا بي أَوْلَى إذ كنتَ نازلا برَبْعِي، ولكنك قلتَ فأوجبتَ. فقال قبيصة: ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التى قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام فى حضرة سيف بن ذى يَزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنئونه بانتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من بلاده: "لما ظفر سيف بن ذي يَزَن بالحبشة أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم. فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاًّ رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أَرُومَتُه، وعزَّتْ جرثومتُه، وثبَتَ أصله،

وبَسَقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأْسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن يَهْلِك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمّته وسدنة بيته. أَشْخَصَنا إليك الذي أبهجك بكشف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد الَمْرِزَئة".

ومثلها فى ذلك خطبة أبى طالب عم النبى عندما ذهب معه لخِطْبة خديجة بنت خُوَيْلِد له، وهذا نصها: "خَطَبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلَنا الحكّام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخي من لا يُوَازَن به فتًى من قريش إلا رَجَحَ عليه بِرًّا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونُبْلاً. وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مسترجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصَّدَاق فعَلَيَّ".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلى تثير نوعا آخر من التساؤلات، وهى الخطب التى يقال إن بعضا من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقَوْها فى قصر العاهل

الكِسْرَوِىّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدال بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يجرؤ أولئك العرب، الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين دولة تحميهم من بطش كسرى إذا فكر فى البطش بهم، على أن يتفاخروا فى وجهه ذلك الفخر المجلجل الذى يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفودا من الصين والهند والروم كانت موجودة فى ذلك الاجتماع تتبادل التفاخر والتباهى بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك فى تلك الأزمان ما يمكن ببساطة، ودون افتئات على حقائق الحوادث لو صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: "حوار القوميات" أو "حوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولا شيئا من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية:

"قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارسَ ولا غيرها. فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة من يَقْدَم علىَّ من وفود الأمم فوجدتُ للروم حظا فى اجتماعِ أُلْفَتها وعِظَم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دِينًا يبين حلالها

وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدَبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعِمُهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفا (أى أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنُوخِيّة التي أسس جَدِّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثارا ولَبُوسًا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس، يعني

اليمن. ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمّةٍ المَلِكُ منها أن يَسْمُوَ فضلها ويَعْظُم خَطْبها وتعلو درجتها، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإن أَمَّنني من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمّتك أيها الملك فليست تُنَازَع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها وبُحْبُوحة عِزّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرتَ فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فَضَلَتْها؟ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومَنَعَتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومِهَادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها من الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حُسْن وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المُنْحَفَة والروم والترك المشوَّهة المقشَّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةٌ من

الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا من أوّلها حتى إن أحدهم ليُسْأَل عمن وراء أبيه دِنْيًا (أى بعده مباشرة) فلا يَنْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبًا فأبًا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدْعَى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُلاً الذي تكون عنده البَكْرة والناب عليها بلاغُهُ في حُمُوله وشِبَعه ورِيّه فيَطْرُقه الطارق الذي يكتفي بالفَلْذة ويجتزئ بالشّربة فيَعْقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكْسِبه حسن الأُحدوثة وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم التي لا يُبْلَغ على مثلها سَفَر، ولا يُقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر. وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهم أشهُرًا حُرُمًا وبلدا محرَّما وبيتا محجوجا يَنْسِكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيَلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله

بأذًى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي وَلْثٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه فلا يَغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته أو تَفْنَى قبيلته لما أُخْفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: "يَئِدُون أولادهم" فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلِّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقّها ألبانا وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالَجُ ما يعالَج به لحمها إلا استبان فضلها عليه. وأما تحارُبهم وأَكْل بعضهم بعضا وتَرْكهم الانقياد لرجل يَسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفا وتخوَّفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَزِمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير

فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أى الوطء) بالعَسْف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجبش له على مُلْكٍ متّسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوبا طريدا مُسْتَصْرِخًا. ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطِّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرَارَة التميميَّيْن وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريَّيْن وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلاَثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريّين وإلى عمرو بن الشريد السُّلَمِيّ وعمرو بن مَعْدِيكَرِب الزُّبَيْدي والحارث بن ظالم المُرِّيّ. فلما قدموا عليه في الَخوَرْنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلاً (أى خُدّامًا) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) في تأديتهم الخَرَاج

إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقك الله! ما أَحْسَنَ ما رددت، وأَبْلَغَ ما حَجَجْتَه به! فمُرْنا بأمرك وادْعُنا إلى ما شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إليَّ مما سدَّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل. وليكن أمرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتُكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكوننَّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلَّط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كلّ رجل منهم حُلّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمه بياقوتةٍ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبةٍ مَهْريّة وفرسٍ نَجِيَّةٍ، وكتب معهم كتابا: أما بعد، فإن المَلِك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد

فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوّتها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطًا من العرب لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، ولْيُكْرِمْني بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم. وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم. فخرج القوم في أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيامٍ أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسيَّ عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح

فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أَمِيرَ بها. شر الملوك من خافه البرىء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يُرَاءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحلّ. حَسْبُك من شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف. فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه. قال أكثم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قولٍ أَنْفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمي فقال: وَرِىَ زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك. إن العرب أمة قد غَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها، وهي لك وامقة ما تألَّفْتَها، مسترسلة ما لايَنْتَها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذم دونها. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال

بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأُسْد بصَوْلَتها. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كَثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل الأقاويل يعرِّف اللُّبّ، وهذا مقامٌ سيُوجِف بما ينطق به الرَّكْب وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأَدْنَوْن، وأعوانك المُعِينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيْرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرّة؟ قال كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّرًا بنفسه على الموت فهى منيَّةٌ استقبلها، وجنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا، وأحبسها وهى تَصَرَّف بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحى، وبرقها سيفى، ورعدها زئيرى، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس فى غمرات لُجَجها، وأكون فُلْكًا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دما، وأترك حُمَاتها

جَزَر السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فَعَاله أَنْطَقُ من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أَحْشَد، ولا شهودا أَوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَمِىّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتَبَرة، وفى كثيرٍ ثِقْلَة، وفى قليلٍ بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العِزّ. وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدِك (أى عطائك). إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إنْ أَوْرَيْنا نارا أَثْقبْنا، وإنْ أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك. قال عمرو: كفى بقليلِ قصدى هاديًا، وبأيسر إفراطى مُخْبِرًا. ولم يُلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورَضِىَ من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِىُّ المنطق أشدّ من عِىّ السكوت، وعِثَار القول أنكأ

من عثار الوَعْث. وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ويعلم مَنْ سمعنى أننى له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفى ما أتخوَّف ويُتَخَوَّف منى. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلاَثة العامري فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن عَزَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له فى آبائه دِنْيًا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف. يحمى حماه، ويُرْوِى نداماه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يَبْلُ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنعْ العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواخر طَمْيًا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم

يُعِزّوك، وإن تستصرخْهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخَشِيَ أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المَرَاشِد، وجنَّبَك المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا فى قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلَم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحْجِمين، وفى الناس غير مقصِّرين. إن جُورِينا فغير مسبوقين، وإن سُومِينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ فى ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به، أو كخافر أُخْفِرَ بذمّته. قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتى أحقّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخانَة (أى الخَوَنة)، واستنجد الأَثَمَة ناله من الخطإ ما نالنى، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة؟ لِمَ يُحْكِم قُوَاه فيُبْرِم، ويَعْهَد فيُوفِى، ويَعِد فيُنْجِز؟

قال: وما أحقَّه بذلك! وما رأيتُــه إلا لى. قـــال كـــسرى: القـــوم بُزُلٌ (البازِل: الناقة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُـــرَ فنـــون المنطـــق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنمـــا الفخـــر فى الفَعـــال، والعَجْز فى النجدة، والـــسؤدد مطاوَعَـــة القـــدرة. ومـــا أَعْلَمَـــك بقدْرنا، وأَبْصَرَك بفضلنا. وبـــالحَرَى إن أدالـــت الأيـــام، وثابَـــت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أمورا لها أعلام. قال كـــسرى: ومـــا تلـــك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، علـــى أمـــرٍ يُـــذْكَر. قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكَر؟ قال: ما لي علـــمٌ بـــأكثر ممـــا أخبرنى به مُخْبِر. قال كسرى: متى تكاهَنْـــتَ يـــا ابـــن الطفيـــل؟ قال: لستُ بكاهن، ولكنى بالرمح طـــاعن. قـــال كـــسرى: فـــإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، مـــا أنـــت صـــانع؟ قـــال: مـــا هَيْبَتى فى قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أَذْهَـــبَ عـــيني عَيْـــثٌ، ولكن مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْـــدِيكَرِب الزُّبَيْـــدِيّ فقـــال: إنمـــا المـــرء بأصغرَيْه: قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الـــصواب، ومِـــلاَك النُّجْعـــة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكـــرة، وتوقيـــف الخـــبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجْتَبِـــذْ (اجتـــذبْ) طاعتنـــا بلفظـــك، واكتظم بادِرَتنا بحِلْمك، وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلَس لـــك قِيادنـــا، فإنـــا

أناسٌ لم يُوَقِّسْ صفَاتَنا (أى لم يخدش صخرتنا) قِـراعُ مناقير مَـنْ أراد لنا قَضْمًا، ولكنْ مَنَعْنا حِمَانا مِنْ كلّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّيّ فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأي خفة الملك المسلَّط. فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا بخَلِيق، ولا للاعتماد عليه بحَقِيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وَلْث العقود. والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبَلك ميل أو زلل. قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء آبائك لَدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبِه أفعالُك مجلسَك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم قال كسرى: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدَكم ولم يُحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما استولى على ألسنتكم وغَلَبَ على طباعكم لم أُجِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أَجْبَه وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحِبّ هو إصلاح مدبركم وتألُّف شواذّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في

منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَلِكِكم، فأَحْسِنوا مؤازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذى لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة فى شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد فى كلامه مصطلحا "الوزن والقافية" الشِّعْرىّ، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما فى ذلك المعنى آنذاك؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفى ليست فى الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التى تُنْسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسَّفًا، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة فى حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هى الخطبة التى انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها فى حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتًا. كما وردت فى الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهى عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التى استعملها

النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هــو: أكــان العــرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُسْتَعْمَل لــه بعــد الإســلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه مــن تقاليــد جاهليــة: "شريعة"؟ لقد بحثــت فى "الموســوعة الــشعرية" الــضوئية عــن شواهد فى الشعر الجاهلى لهذه الكلمة فلم أجــد إلا بيتــا واحــدا لا علاقة له البتة بهذا المعــنى. ثم هــل تُــوَاتِى نَفْــسَ أى عــربى فى محضر كسرى أن يدعو الفــرس بـــــــ"الأعــاجم" مثلمــا فعــل الحارث بن عباد البكرى، وهى كلمــة مــسيئة فى حقهــم كمــا نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات؟

وبالمثل هل من السهل قبول مــا جــاء فى القــصة مــن أن عمرو بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكــلام الجــافى الــذى يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نــأت لــضَيْمك، ولم نَفِــدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن فى أموالنا منتقَــدًا، وعلــى عزّنــا معتمَدا"؟ أو أن يقرّع الحارث بــن ظــالم المــرِّىّ كــسرى بهــذه الكلمات التى تنصحه بالارتفــاع إلى مــستوى الــسلوك اللائــق بالملوك: "إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافــل، ولــن يــستوجب أحدٌ الِحلْم إلا مــع القــدرة. فلْتُــشْبِهْ أفعالُــك مجلــسَك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكــان انتقــاض العــرب عليه وحربهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قــال، بينمــا هــو غــير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئا؟ وإنْ خفّفَ مــن ذلــك تنبيــهُ النعمــان

للعاهل الفارسى منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى فى النهاية بأنه إنما يصفح عما فى كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب فى قصتنا هذه قد صُبَّتْ فى لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون فى مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفى نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخى وأنها قد وصلت المدوّنين فى العصر العباسى فى خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصّون به العرب فى العصر العباسى ويقلِّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة فى بدايتها إلى وجود الترجمان فى تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا فى هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصًا أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف فى هندسة العبارة والاستقصاء فى المعنى والتشقيق فى التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نشق فى جاهليتها، كوصف

عصام الكِنْدِيّة لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني فى النص التالى: "لما بلغ الحارثَ بن عمرو مَلِكَ كِنْدَة جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها أراد أن يتزوجها، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي عِلْمَ ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنت الحارث فأعلمتها ما قَدِمَتْ له، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت: أَيْ بُنَيّة، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئا أرادت النظر إليه من وجهٍ وخلق، وناطِقيها فيما استنطَقَتْكِ فيه. فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُها مثلَه قَطٌّ بهجة وحسنا وجمالا، فإذا هي أكمل الناس عقلا وأفصحهم لسانا، فخرجت من عندها وهي تقول: تَرَكَ الخداعَ مَنْ كَشَفَ القناع، فذهبت مثلا. ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلا. قالت: صَرَّحَ المَخْضُ عن الزبد، فذهبت مثلا. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرك صدقًا وحَقًّا. رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعرٌ حالكٌ كأذناب الخيل المضفورة، إن أَرْسَلَتْه خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطَتْه قلتَ: عناقيدُ كَرْمٍ جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّسا على عيني الظبية العَبْهَرَة (البيضاء الرقيقة البَضّة)، التي لم يَرُعْها قانص ولم يَذْعَرها قَسْوَرَة (أى

الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يَخْنَسَ به قِصَرٌ ولم يمض به طول، حَفَّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، في بياضٍ مَحْضٍ كالجُمَان، شُقَّ فيه فم، كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسّ، ولا عِرْقٌ يُجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، ليّنٌ عَصَبُهما، تَعْقِد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص في حُفَر المفاصل، وقد تربَّع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِيَ كطَيِّ القَبَاطِي (أى الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكتّان) المُدْمَجَة، كُسِيَ عُكَنًا (العُكَن: ثنيّات البطن) كالقراطيس المُدْرَجَة، تحيط تلك العُكَنُ بسُرَّة كَمُدْهُن العاج المجلوّ، خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ، كأنه دِعْصُ رملٍ، لبَّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفّاوان، كأنهما نَضِيد الجُمَان، تحتهما ساقان خَدْلَتان، كالبَرْدِيّ وُشِّيَتا بشعرٍ أسود، كأنه حلَق الزَّرَد، يحمل

ذلك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟ فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنَظْمٍ أو نَثْر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها".

إن هذا لَبِكتابة تقرير فنى فى مسابقات العهر (التى يسموها زورا بـ"مسابقات ملكات الجمال") يضع نُصْبَ عينيه تقديم وصف تفصيلى لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة فى تلك المسابقات أشبهُ منه بحديثِ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب فى تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتَسُرّه! وفضلا عن ذلك فإنى لا أظن أن امرأة عربية فى تلك العصور كانت ترضى بأن تتجرد من ملابسها وتذهب فتستعرض مفاتنها الداخلية على هذا النحو ولا حتى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيّة فى وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر". فهل تراها تركتْ شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التى يبغى خِطْبَتها؟ ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم

الشيباني وكمالها وقوة عقلها"، أى أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصَّل الذى لا يدل إلا على شيء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئا؟ وإلى جانب هذا لا ينبغى أن ننسى أن تعبيرات مثل "خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر"، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالبا إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التى يُوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: "تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ"، فضلا عما فيها من ترفٍ فى تذوق الجمال النسائى لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعىّ المعقَّد الذى لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية ورَدٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معا. وهناك أيضا المقابلة بين "النظم والنثر" فى الجملة التالية التى وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْمٍ أو نَثْر" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه فى تعبيراتهم، بل إننى لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحى الذى عُرِفَتا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاها فى مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أُمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها فى ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجَنَّسة المتوازنة (رغم ما فى السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما فى النص التالى الذى تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التى مر بنا آنفا وصف عصام الكندية العجيب لها؟: "أيْ بُنَيَّة، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفَضْل أدبٍ تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لِغَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال. أيْ بُنَيَّة، إنك فارقتِ الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخلَّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَلِيكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكا. يا بُنَيَّة، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة، والاحتفاظ ببيته وماله،

والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير. ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره. ثم اتَّقِي مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإن الخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافَقَة، يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة. واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يَخِير لكِ". لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج فى حديثها الشفوى المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التى تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد فى كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضا، على مدار الدهر، لكن هذا شىء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضًا: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرِدْ ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء مَلِكٍ وزوجته وحماته لا ناسٍ من عُرْض الطريق؟ على كل حال فإنى معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم وأجده يرن فى سمعى

رنين الذهب، ويهَشّ قلبى إليه هَشَاشَ الأرض العطشى لوابل الغيث الـمُحْيِى!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطب الجاهليين سَبَبُه افتقادى لذلك فى نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلا عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يُفْهَم من الرواية، أمرا ارتجاليًّا؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءا من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاما مُحَسَّنا بالبديع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع

تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البديع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعا لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية؟ أترى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعوّلون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص النثرية كالخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. ومع ذلك فها هو ذا الجاحظ يقرر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسُّل فى بعضها الآخر كما هو الحال فى خطب الصلح والمعاهدات (الجاحظ/ البيان والتبيين/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ 1/ 289- 290، و3/ 6)، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجاه هذه المسألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام من واحد مثلى لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها

كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجيبا، وناقدا ذواقة للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن بوجد له نظيرٌ مُسَامِت.

هذا، وقد ورثْنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخُطَب قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مَرْثَد الخير فى الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مشوب. ومنها خطب التعزية كتلك التى عزَّتْ بها وفودُ العرب سلامةَ ذا فائش فى موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّب بن عوف وجعادة بن أفلح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفى فى تعزية عمرو بن هند فى ابن أخيه. ثم خطب النكاح كالخُطْبة التى ألقاها أبو طالب فى خِطْبَة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التى قالها عامر بن الظَّرِب حين خُطِبت ابنته. ومنها خُطَب المنافرات كتلك التى تبودلت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريين. ومنها خطب السفارات، كما هو الحال فى مجموعة الخطب التى خطبها بعض رؤساء العرب فى حضرة كسرى فى إيوانه. ومنها خطب الكهان والكواهن التى يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة

التى ألقاها ذو الإصبع العَدْوانىّ على ابنه، ونظيرتها التى ألقاها قيس بن زهير على بنى النمر بن قاسط، وكذلك الخطبة الرائعة التى يقال إن أمامة بنت الحارث قد وصَّتْ بها ابنتَها أُمَّ إياس عند زفافها على الحارث بن عمرو مَلِك كِنْدَة... إلخ. وكان العرب يخطبون فى الأسواق والمجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشَزٍ من الأرض وفى الحرب. كما كانوا يخطبون وقوفًا، وعلى الرواحل، أو مسندين ظهورهم إلى الكعبة... وهكذا. وكان من عادتهم فى الخطابة، كما ألمعنا من قبل، لُبْس العمامة والإمساك بالعصا، تلك العادة التى عمل الشعوبيون على التنقص منها والإزراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيّنًا فضل العصا فى صفحات طويلة انثال عليه الكلام فيه انثيالا فى كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيعة بن حُذَار ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزارى وعمرو بن كلثوم التغلبى وحنظلة بن ضرار الضبّىّ.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التى وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثد الخير التى سلفت الإشارة إليها آنفا، وهذا نصها: "إن التخبط وامتطاء الهَجَاج

(أى العناد وركوب الـرأس)، واسـتحقاب اللَّجَـاج، سـيقفكما على شَفَا هُوّة في تورُّدهـا بـوار الأصـيلة، وانقطـاع الوسـيلة، فتلافَيَا أمركما قبل انتكاث العَهْـد، وانحـلال العَقْـد، وتـشتت الألفة، وتباين السُّهْمة (أى القرابـة)، وأنتمـا في فـسحةٍ رافهـة، وقدمٍ واطدة، والمودَّة مُثْرِيَة، والبُقْيَا مُعْرِضَة. فقـد عـرفتم أنبـاء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النـصيح، وخـالف الرشـيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقـب سـوء سـعيهم، وكيف كان صُيُور أمورهم. فتلافَوُا القُرْحَـة قبـل تفـاقم الثَّـأي (أى قبل انتشار الفساد) واستفحال الداء، وإعـواز الـدواء. فإنـه إذا سُفِكَت الـدماء، اسـتحكمت الـشحناء، وإذا اسـتحكمت الشحناء، تقضَّبَتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء".

ومنها خطبة قُسّ بن سـاعدة الإيـادىّ فى سـوق عكـاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغـى أن يعتـبر بـه العاقل: "أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عـاش مـات، ومـن مـات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داجٍ، ونهـارٌ سـاجٍ، وسمـاءٌ ذات أبراجٍ، ونجومٌ تَزْهَـر، وبحـارٌ تَزْخَـر، وجبـالٌ مُرْسـاة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهـارٌ مُجْـرَاة. إن في الـسماء لَخَبَـرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا. ما بال الناس يـذهبون ولا يرجعـون؟ أَرَضُـوا فأقـاموا أم تُرِكوا فناموا؟ يُقْسِم قُسٌّ بالله قَـسَمًا لا إثم فيـه إن لله دينـا هـو

أَرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكــم لتــأتون مــن الأمر منكرا". ويُرْوَي أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الـــــذاهبين الأوليـــــ ـــن من القرون لنا بصــائرْ
لمــــا رأيتُ مــــواردًا للمــوت ليس لهـــا مصادرْ
ورأيت قـــومي نحوهـــا تمضي الأكابـــر والأصاغرْ
لا يــرجع المــاضي إلـــ ـــيَّ ولا من البـــاقين غابرْ
أيقنــــتُ أني لا محــــا لة حيث صار القوم صــائرْ

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبــد منــاف يحــث قريــشا على إكرام حجاج البيت الحرام: "كان هاشــم بــن عبــد منــاف يقوم أول نهار اليــوم الأول مـــن ذي الحجــة فيــسند ظهــره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول: يــا معــشر قــريش، أنـــتم ســادة العــرب: أحــسنها وجوهــا، وأعظمهــا أحلامــا، وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معشر قــريش، أنــتم جــيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجــواره دون بــني إسماعيــل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار مــن جــاره. فــأكرموا ضــيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شُعْثًا غُبْرًا من كل بلــد. فــوَرَبِّ هــذه البَنِيَّة لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتُكموه. ألا وإني مخــرجٌ مــن طيِّب مالي وحلاله ما لم يُقْطَع فيــه رَحِــم، ولم يُؤْخَــذ بظلــم، ولم يدخل فيه حرام، فواضِعُه. فمن شاء منكم أن يفعــل مثــل ذلــك فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرِج رجل مــنكم مــن مالــه

لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيِّبًا: لم يؤخذ ظلما، ولم يُقْطَع في رحم، ولم يُغْتَصَب".

ومنها هذه الكلمة التى نَفَّرَ فيها نُفَيْلُ بن عبد العُزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبدَ المطلب (جَدَّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن يُنَفِّر بينهما فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأَوْسَم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأَجْزَل صَفَدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِذْوَدا (أقوى لسانا). وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جَلْد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنَفَّرًا. فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جُعِلْتَ حَكَمًا".

ومنها وصية ذى الإصبع العَدْوانىّ لابنه عند إشرافه على الموت: "يا بُنَىّ، إن أباك قد فَنِىَ وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصِيك بما إن حفظتَه بلغْتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنى: أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضعْ لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يُسَوِّدوك (أى يجعلوك سيّدا عليهم). وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك،

واحْمِ حريمك، وأعزز جارك، وأَعِنْ من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أَجَلاً لا يَعْدُوك، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سُؤْدَدُك".

المجتمع الجاهلى من القرآن

كان عرب الجاهلية فى عمـــومهم يعبـــدون آلهـــة متعـــددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإلـــه واحـــدا، وعنـــدما جـــاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقى منهم التكـــذيب والعنـــت الـــشديد، وأخذ الأمرُ منه زمنا طويلا حتى اقتنعوا أخيرا بما جـــاءهم بـــه. بـــل إنه، بعد أن أنفق فى الدعوة بمكة ثلاث عـــشرة ســـنة بـــذل فيهـــا كل جهد ممكن وغير ممكن وتعـــب تعبًـــا بالغًـــا، لم يـــؤمن بـــه إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهـــل مكـــة إلى الهجـــرة ليثرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعويـــة، وانتـــهى الأمـــر بـــأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحـــسب. وكـــانوا فى بـــداءة الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهاجم الأوثـــان ويغـــضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مـــشركو مكـــة فى قتلـــه أو فى حبسه لولا أن نبهه الله سبحانه وأمره بتـــرك موطنـــه والـــتروح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الدعوة الجديـــدة أكثـــر توفيقـــا: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِـــكَ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا لِيُثْبِتُـــوكَ أَوْ يَقْتُلُـــوكَ أَوْ يُخْرِجُـــوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـــرُ الْمَـــاكِرِينَ" (الأنفـــال/ **30**). ومما نزل من الوحى فى هذا الموضوع قوله تعـــالى: "أَجَعَـــلَ الآلِهَـــةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَـــشَيْءٌ عُجَـــابٌ* وَانْطَلَـــقَ الْمَـــلأُ مِـــنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَـــتِكُمْ إِنَّ هَـــذَا لَـــشَيْءٌ يُـــرَادُ" (ص/ **5– 6**). وسبب نزول هاتين الآيتين، على مـــا ترويـــه كتـــب أســـباب

النزول والتفاسير، أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شَقَّ ذلك على قريش فأَتَوْا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاسْتَحْضَرَ أبو طالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذِكْر آلهتنا (أى اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، ونَدَعك وإلهك. فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أَمُعْطِيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتَدِين لكم بها العجم؟ فقالوا: نَعَمْ، وعَشْرًا. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكَّتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لَشَيْءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٌ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٌ يُطْلَب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركْنا عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلِّثون. ما هذا إلا كذبٌ اختلقه محمد. وهناك خبر

آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئا يخالف اعتقاداتهم بشأنها. وخلاصته، كما جاء عند الواحدى فى "أسباب النزول"، أن "خمسة نَفَر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائْتِ بقرآن ليس فيه تَرْك عبادة اللات والعُزَّى". وجاء أيضا فى ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططًا وقالوا: متِّعْنا باللات سَنَةً، وحَرِّمْ وادينا كما حَرَّمْتَ مكة: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد تتالت الآيات التى تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد، لكنّ تشبُّثهم بما فى رؤوسهم كان عنيفا، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد فى القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" (الأنعام/ 151)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ 18)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" (مريم/81)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ 3)، "وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/51)... إلخ. وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمر ونزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موهما: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" (العنكبوت/61)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (العنكبوت/ 63)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (الزخرف/ 9). ومع ذلك فـ"إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ" (الصافّات/ 35)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" (الزمر/43- 45)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه وأنهم هم الذين يقرّبوهم إلى الله زُلْفَى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"

(يونس/ **18**)، "مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر/ **3**).

وكان القرآن الكريم ينبههم دائما أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئا من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هي لله وحده، ليس للأوثان منها أىّ نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" (الأنعام/ **93- 94**)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ **18**)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ **3**)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (الروم/ **12- 13**)، "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ

لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزُّمَر/43).

وكان من أوثانهم اللات والعُزَّى ومناة، وقد تهكم القرآن على شركهم وعقليتهم المتخلفة التى تسوِّل لهم أن هذه الأوثان هى بنات الله: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى" (النجم/ 19- 21). وتناول المفسرون اللاَّت والعُزَّى ومناة فقالوا إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما يقال من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتّ عندها السمن بالسَّوِيق بالطائف ويُطْعِمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا. أما العُزَّى فكانت لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَةٍ، وبَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليها بعد الفتح خالدَ بنَ الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهى واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: تلك العُزّى، ولن تُعْبَد أبدا. وأما مَنَاة: فصخرة كانت لِهُذَيل وخُزَاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت لثقيف. وكأنها سُمِّيَتْ: "مناة" لأنّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق. وجاء فى "أسباب النزول" للواحدى أن "الأنصار كانوا يحجّون لمناة،

وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة".

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت أسبابُ النزول اثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب. يقول الواحدى: "كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة. فزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيَا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة لِيُعْتَبَر بهما. فلما طالت المدة عُبِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحوا الوَثَنَيْن". وكان المشركون يقولون إنّ هذه الأصنام هى بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقيل لهم: "ألكُمُ الذَّكرُ ولهُ الأُنثى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَة الإناث، فأراد الله أن يَلْفِتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتى يكرهونهن بل يقتلونهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكْران!

على أن هذه الأصنام ليست هى وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضا: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنعام/ **100**)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء/**26– 28**)، "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ **40– 41**)، "فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافات/ **149– 158**)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ* أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ **15– 19**)، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/ **51**)، "أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ" (الطور/

39)، "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى" (النجم/ 27).

وقيل إن المقصود فى آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدهم عرب الجاهلية قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جِنًّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم)، تحقيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ"الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكلّ ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكلّ ما هو ضارّ. وبقريبٍ من هذا فسَّر ابن الكلبى النص القرآنى، إذ قال حسبما نقل الواحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدوابّ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب". وقد حاول الزمخشرى، فى تفسيره لآيات "الصافات"، أن يسوِّغ تسمية الملائكة: "جِنًّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنَّ مَنْ خَبُثَ من الجن ومَرَدَ وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم ونَسُكَ وكان خيرًا كله فهو مَلَك. فذَكَرَهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم".

أما أنا فأرى أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أى دليل على أن الجن فى هذه الآية أو

فى أى موضع آخر من القرآن المجيد هـم الملائكـة. وإن فى القـول بذلك لَخَلْطًا بـين الألفـاظ والمفـاهيم يفـسد تفـسير القـرآن إفسادا. ثم لماذا يحقِّر القرآن الملائكـة، وهـم عبـاد مُكْرَمـون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مـا يـؤمَرون ولا يعرفـون معـنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سبحانه فى الآيـة **50** مـن سـورة "النحل" والآيتين **26– 27** من سورة "الأنبيـاء"، ولا ذنـب لهـم فى أن العرب كانوا يشركوهم بالله؟ كما أن قولـه تعـالى: "وَيَـوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُـمَّ يَقُـولُ لِلْمَلائِكَـةِ أَهَـؤُلاءِ إِيَّـاكُمْ كَـانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَـلْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ **40– 41**) هـو أكـبر دليـل على أن الجن شيء، والملائكة شيء آخر، فهـا هـم أولاء الملائكـة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكـد فى الوقـت ذاتـه أهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعنى أن كلا منـهما فريـق مختلـف تماما عن الفريق الآخر. وليس بعـد قـول لله قـول! ثم إن الجـن مكلَّفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله فى شيء، ممـا يـدل علـى أهم غـير داخلـين فى التكليـف، وإلا لكـان منـهم المطيعـون والعصاة، فضلا عن أن الجن مخلوقون مـن نـار حـسبما صـرَّح القرآن الكريم، والملائكة ليـسوا كـذلك. ومعـنى قولـه تعـالى: "وخَرَقوا له بنين وبناتٍ بغير علـم" أهـم افْتَـرَوْا بجهـلٍ فـاحشٍ زاعمين أن له سبحانه بنين وبنات، فقالـت اليهـود: عُزَيْـرٌ ابـن

الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو مليح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزِّبَعْرَى فى سبب نزول قوله تعالى: "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ". وكان الجن فى نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون فى السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يَرَوْنَه مستندا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات. ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون فى تلك السخرة العذاب المهين: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/ **14**).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التى إذا ما انتهت فقد انتهى كل شيء بالنسبة للإنسان. وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثةٍ تَحْدُث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفْنِى ولا يعيد من يُفْنِيه. وكانوا يجادلون النبى

فى ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاما ورُفاتا، وإلا فأين آباؤهم الأولون؟ ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل؟ وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتى؟ وإن كثرة الآيات التى تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسَخَرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التى تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان: "وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء/**49- 51**)، "وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" (مريم/ **66**)، "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج/ 5- 7)، "قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" (النمل/ 82- 83)، "بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان/ 11)، "وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة/ 10)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سبأ/ 3)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ" (الصافات/ 16- 17)، "إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ* فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان/ 34- 36)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية/ 24- 25)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق/ 3)، "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ* يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (الذاريات/ 10- 12)، "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن/ 7)، "يَقُولُونَ أَئِنَّا

لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ" (النازعات/ **10- 12**).

ومما رُوِىَ عن الكفار فى هذا المجال "أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِي هذا بعدما رُمّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار". كما رُوِىَ أن عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَرِيّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أى غيروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه تعنُّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سّوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب

عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرَّئِـــيّ) بـــذلنا أموالنـــا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعْـــذَر فيـــك. فقـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي مـــا تقولـــون. مـــا جئـــتكم بمـــا جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فـــيكم ولا الملـــك علـــيكم، ولكن الله عز وجل بعثني إلـــيكم رســـولاً وأنـــزل علـــيَّ كتابـــا، وأمرني أن أكـــون لكـــم بـــشيرا ونـــذيرا فبلَّغْـــتُكم رســـالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني ما جئـــتكم بـــه فهـــو حظكـــم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أَصْبِر لأمر الله حـــتى يحكـــم بـــيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا مـــا عرضْـــنا فقـــد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أَضْـــيَق بـــلادا ولا أقـــلّ مـــالاً ولا أشدّ عيشا منا. سَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثـــك، فلْيُـــسَيِّرْ عنـــا هذه الجبال التي ضيّقَتْ علينا ويبـــسط لنـــا بلادنـــا ويُجْـــرِ فيهـــا أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مـــضى مـــن آبائنـــا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بن كـــلاب، فإنـــه كـــان شـــيخًا صَدُوقًا، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو؟ فـــإن صـــنعتَ مـــا ســـألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنـــه بعثـــك رســـولاً كمـــا تقول". ووجه الشاهد فى الخبر أنهم تحدَّوْه، ضمن مـــا تحـــدَّوْه بـــه، أن يأتى لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأسهم جَـــدّه قُـــصَيّ بـــن كلاب، إذ كانوا، كما قلنا، يَـــرَوْنَ اســـتحالة عـــودة الميـــت إلى

الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليه أن يُثْبِت ما يقول ويعيد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى!

وثمة خبر فى "أسباب النزول" للواحدى يفسّر سبب نزول قوله عز وجل: "وَأَقسَموا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم لا يَبعَثُ اللهُ مَن يَموتُ"، وفيه أنه "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلَّم به: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لَتُبْعَث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية". وكانوا يتهكمون بما ينزل به القرآن فى أوصاف الجنة والنار، كالذى يُرْوَى عن أبي جهل من أنه "لما ذكر الله تعالى الزَّقُّوم خُوِّف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد...؟ قالوا: لا. قال: الثَّرِيد بالزبد! أمَا والله لئن أمكننا منها لنَتَزَقَّمَنَّها تَزَقُّمًا. فأنزل الله تبارك وتعالى: "وَالشَجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرآنِ وَنُخَوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إلا طُغْيَانًا كَبِيرًا"...". ومن هذا الوادى أيضا ما جاء فى بعض الروايات من أن "خَبّاب بن الأَرَتّ كان قَيْنًا، وكان يعمل للعاص بن وائل السَّهْمِيّ، وكان العاص يؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أَقْضِيك. فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضيني. فقال العاص: يا خباب، مالك؟ ما كنتَ هكذا! وإنْ كنتَ لَتُحْسِن الطلب. فقال

خباب: ذاك أني كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك. قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا؟ قال خبّاب: بلى. قال: فأَخِّرْني حتى أقضيك في الجنة، استهزاءً. فوالله لئن كان ما تقول حقًّا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن فى تعداد نِعَم الجنة، ومن ذلك ما ورد فى النص التالى لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنهُم أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ* كَلاَّ"...".

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلا قوله تعالى: "إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأنفال/ **19**). أى أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عَزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلها واحدا، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت أكثر من رواية فى ذلك فى تفسير الطبرى فقيل: "كان

المشركون حين خرجوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة (أى فى غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهمّ انصر أَعَزّ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". يقول: نَصَرْتُ ما قلتم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم"، وقيل: "استفتح أبو جهل فقال: اللهمّ، أيُّنا (يعني محمدا ونفسه) كان أَفْجَرَ لك اللهمّ وأَقْطَعَ للرَّحِم فأَحِنْهُ (أى أَهْلِكْه) اليوم. قال الله: إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". كما نقرأ فى ذات السورة قوله سبحانه: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال/ 32– 33). وقد جاء فى تفسير الطبرى: "قال رجل من بني عبد الدار يقال له: النضر بن كِلْدَة: "اللّهُمّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الحَقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السّماءِ أوِ ائْتِنا بعَذَابٍ ألِيمٍ". فقال الله: "وَقالُوا رَبّنا عَجّلْ لَنا قِطّنا قَبْلَ يَوْمِ الحِساب"، وقال: "وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرَادَى كمَا خَلَقْناكُمْ أوّلَ مَرّةٍ"، وقال: "سأَلَ سائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِلْكافِرِينَ...". قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله". أما فى تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما

أورد، قول من قال: وما كان الله لـيعذّب هـؤلاء الـمـشركين من قريش بـمكة وأنت فـيهم يا مـحمد, حتـى أُخْرِجـك من بـينهم، وَما كـانَ اللّـهُ مُعَـذِّبَهُمْ وهـؤلاء الـمـشركون يقولون: يـا ربّ غفرانـك، ومـا أشـبه ذلـك مـن معانـي الاستغفـار بـالقول... وقوله: وَما لَهُـمْ ألاّ يُعَـذِّبَهُمُ اللّـهُ؟ (أى) فـي الآخرة". أى أهم، رغم شـركهم، كـانوا يـدعون الله بمـا يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلـب! كمـا أهـم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء فى بعض الأقوال!

ومن عباداهم كذلك مـا ورد فى قـول رب العـزة: "وَمَـا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَـذُوقُوا الْعَـذَابَ بِمَـا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " (الأنفال/ 35)، وتفـسيره مـا ورد عنـد شـيخ المفسرين: "كانـت قـريش يطوفـون بـالبـيت وهـم عـراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَـةَ اللّـهِ التـي أخْـرَجَ لِعِبـادِهِ"، فـأُمِروا بـالثـياب... كانـت قـريش يعارضـون النبـيّ صـلى الله عليـه وسـلم فـي الطـواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون... كـانوا ينفخـون فـي أيديهم". كما أن فى القرآن آية تنهى عـن الـسجود للـشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كـانوا يـسجدون لهمـا: "وَمِـنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ لا تَـسْجُدُوا لِلـشَّمْسِ وَلا

لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّــهِ الَّــذِي خَلَقَهُــنَّ إِنْ كُنْــتُمْ إِيَّــاهُ تَعْبُــدُونَ" (فُصِّلَتْ/ 37).

ولعل القارئ قد تنبه لمـا جـاء فى كـلام الطـبرى مـن أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عـراة، وإن كنـت أتـصور أن يكون بعضهم فقط هم الـذين يفعلـون ذلـك لا كلـهم. وفى تفسير قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَـا عَلَـيْكُمْ لِبَاسًـا يُـوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِـكَ مِـنْ آيَـاتِ اللَّـهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَـنَّكُمُ الـشَّيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَـا سَـوْآتِهِمَا إِنَّـهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الـشَّيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَـدْنَا عَلَيْهَـا آبَاءَنَـا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُـونَ عَلَـى اللَّـهِ مَا لا تَعْلَمُونَ* قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُـوهَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَـدَأَكُمْ تَعُـودُونَ* فَرِيقًـا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَـذُوا الـشَّيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُـمْ مُهْتَـدُونَ* يَـا بَنِـي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَـسْجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُـسْرِفُوا إِنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللَّـهِ الَّتِـي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّـذِينَ آمَنُـوا فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَـصِّلُ الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ"

(الأعراف/ 36- 32) يقول الطبرى ما زُبْدَته أنه، جلّ ثناؤه، يبين للجهلة من العرب الذين كانوا يتعَرَّوْن أن لِباس التّقوَى هو الحياء. وقد ابتدأ سبحانه الخبر عن إنزاله اللباس الذي يواري سَوْآتنا والرِّيَاش توبيخا للمشركين الذين كانوا يتجرّدون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار بها في كلّ حال مع الإيمان به واتباع طاعته، إذ كانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقولهم: "نطوف كما ولدتنا أمّهاتنا"، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء فتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه   فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلّهُ

فعُذِلوا على ما أَتَوْا من قَبيح فعلهم وعُوتبوا عليه، فكان جوابهم: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثلما كانوا يفعلون، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُنّتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهم إن الله لا يأمر بالفحشاء، أى لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومَساويها. أتقولون، أيها الناس، على الله ما لا تعلمون؟ أتَرْوُون على الله أنه أمركم بالتعرّي والتجرّد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟ لقد كانوا يطوفون عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس. وكانت العرب تطوف بالبيت عراةً إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يُسَمَّوْن في الجاهلية: "الحُمْس"، يقولون: لا نخرج من الحَرَم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عَرَفات، وهي التي كان يُفِيض منها سائر الناس غير الحُمْس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمْس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن قَطِين الله. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحِلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فيَحِلّ لهم ما يحلّ لهم، ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم. وكانت كِنَانة وخُزَاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أمورا لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحُمْس أن يَأْقِطوا الأَقِط، ولا يَسْلأوا السَّمْن وهم حُرُم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طَوَال إحرامهم. ثم غالَوْا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الحلّ في الحَرَم إذا جاءوا حُجّاجًا أو عُمّارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِمُوا أوّل طوافهم إلا في ثياب الحُمْس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة. فحَمَلُوا العربَ على ذلك، وكان مَنْ سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف

معهم: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة/ **199**). وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فكانوا يذكرون آباءهم في الحج: فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جَزّ نواصي بني فلان. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فنزل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/ **200**).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أَهَلّ أحدهم بحجّ أو عُمْرة لا يدخل دارا من بابها إلا أن يتسوّر حائطا، وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة/ **189**)، ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجلُ خلفه وأبى أن يدخل قائلا: يا رسول الله، إني أَحْمَس.

يقصد أنه مـــُحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلـــون ذلـــك يُـــسَمَّوْن: "الـــحُمْس". فقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: "وأنـــا أيـــضا أَحْمَسُ (أى أنــه عليــه الــسلام مــن قــريش)، فـــادْخُـــــلْ"، فدخـــل الرجل.

وكـــان فى تعـــاملات أهـــل الـــجاهلـــــية بَغْـــيٌ وطاعـــةٌ للشيطان، فكان الـــحَيّ مـــثلا إذا كـــان فــــيهم عُـــدّة ومَنَعـــة، فقَتَل عبدُ قومٍ آخرين عبدًا لهم، قـــالوا: "لا نَقْتُـــل بـــه إلا حُـــرًّا"، تعزُّزًا لفضلهم علـــى غيرهم فـــي أنفـــسهم، وإذا قتلـــت امـــرأةُ قومٍ آخرين امرأةً لهم، قالوا: لا نَقْتُـــل بهـــا إلا رجـــلاً. فـــأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بـــالعبد والأنثـــى بـــــالأنثى، فنـــهاهم عن البغي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا كُتِـــبَ عَلَـــيْكُمُ الْقِـــصَاصُ فِـــي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بالأُ نْثَى فَمَـــنْ عُفِـــيَ لَـــهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَـــاعٌ بِـــالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْـــهِ بِإِحْـــسَانٍ ذَلِـــكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْـــدَ ذَلِـــكَ فَلَـــهُ عَـــذَابٌ أَلِيمٌ" (البقرة/ **178**).

وكان اليتامى يُظْلَمـــون ولا يُرْحَمـــون وتُؤْكَـــل حقـــوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَأَيْـــتَ الَّـــذِي يُكَـــذِّبُ بِالـــدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِـــيمَ* وَلا يَحُـــضُّ عَلَـــى طَعَـــامِ الْمِـــسْكِينِ" (الماعون/**1– 3**)، "فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَـــةُ* فَـــكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًـــا ذَا مَقْرَبَـــةٍ* أَوْ مِـــسْكِينًا

ذَا مَتْرَبَةٍ" (البلد/ **11– 16**)، "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة/ **177**)، "كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (الفجر/ **20**)، "وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" (الأنعام/ **152**، والإسراء/ **34**)، "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا* وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا* وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا* وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا* وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (النساء/ **2- 6**)، "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء/ **10**)، "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" (النساء/ **127**).

وبالنسبة للآيات المارّ ذكرها فى صدر سورة "النساء" يقول ابن عطية فى "المحرَّر الوجيز" إنها فى أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين. والآية نَصٌّ في النهي عن قصد مال اليتيم بالأكل والتموّل على جميع وجوهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أَقْسِطوا (أى اعدلوا) في مهورهن. فمن خاف ألا يُقْسِط فلْيتزوجْ ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن في حقوقهن (أى يدافعن عنها ويناضلن دونها). ويقول الثعالبى، فى تفسيره المسمَّى: "الجواهر

الحسان فى تفسير القرآن"، إن النهي فى الآية 127 من سورة "النساء" خاصّ بـ"ما كانت العرب تفعله من ضَمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضْل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل". وفى "أكل التراث" المنهى عنه فى سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المالَ من يقاتل ويحمي الحَوْزَة. وقد أورد ابن عطية حديثًا للنبى صلى الله عليه وسلم عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه: "رأيت أقواما لهم مَشَافِرُ كمشافر الإبل، وقد وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يَجْعَل في أفواههم صخرا من نار تخرج من أسافلهم. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما". وأورد الزمخشرى ما رُوِيَ من "أنه يُبْعَث آكِلُ مال اليتيم يوم القيامة، والدُّخَان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا".

وكان ثَمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار فى ذلك المجتمع الوثنى، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التى ندَّد بها القرآن مرارا ونهى عنها وشدد فى النهى تشديدا عظيما: "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام/

137)، "وَلا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" (الأنعام/ **151**)، "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" (الإسراء/ **31**)، "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (النحل/ **58- 59**)، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ **16- 18**). وفى هذه العادة المتوحشة يقول البغوى، عند تفسير الآيات **58- 59** من سورة "النحل"، إن "مُضَرَ وخُزَاعَةَ وتَمِيمًا كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن وطَمَعِ غير الأَكْفَاء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جُبّةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: "زَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها"، وقد حفر لها بئرا في الصحراء. فإذا بلغ بها البئر قال لها: "انظري إلى هذه البئر"، فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض. فذلك قوله عز وجل: "أيمسكه على هُونٍ أم يَدُسّه في

التراب؟". وكان صَعْصَعَة عَمُّ الفرزدق (بل جَدّه فى الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً، يُحْيِيها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر به:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائدا تِ فأحيا الوئيدَ فلم تُوأَدِ"

وفى الآية السابعة من سورة "النساء" يطالعنا قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورِّث النساء ويقول: "لا يُوَرَّث إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف"، فترلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أَوْس بن سُوَيْد وترك لها بنتا، فذهب عَمّ بنيها إلى ألاّ ترث، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العَمّ: "هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألوانا أخرى من الغبن الذى كُنّ يتعرَّضْن له على أيدى الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا* وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ

زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء/ **19- 21**). وقد علّق الزمخشرى على هذا قائلا: "كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم، فزُجِروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد. فقيل: "لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تُحَاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحلّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن، وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حَبَسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ولا تَعْضُلوهنّ لتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس والتضييق... "إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ"، وهي النشوز وشَكَاسة الخُلُق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرْتم في طلب الخلع... فإن فعلتْ حَلَّ لزوجها أن يسألها الخُلْع... وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"، وهو النَّصَفَة في المبيتِ والنفقةِ والإجمالُ في القول... "وإن أردتم

استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثمًا مبينًا* وكيف تأخذونه وقد أَفْضَى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقًا غليظا؟". وكان الرجل إذا طَمَحَتْ عينه إلى استطراف امرأة بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل: "وإن أردتم استبدال زوجٍ...". وكانوا يَنْكِحون رَوَابَّهم (أى زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يمقتونه من ذَوِي مروءاتهم، ويسمّونه: "نكاح المَقْت". وكان المولود عليه يقال له: المَقْتِيّ". وفى الطبرى عن ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين". وفى الحديث: "لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية فى نكاحها ومَقْتها".

وبالنسبة لعلاقة الفِرَاش يقول الزمخشرى، تعليقا على قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ 222)، إن "أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فَرْشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفِعْل اليهود والمجوس. فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم. فقال ناس من

الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أُمِرْتُم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفِعْل الأعاجم".

وكان المجتمع الجاهلى يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعامَلون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيرا، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعتقهم. كما وَصَّى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات فى الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبة لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم فى الزواج والاستعفاف. ومن رحمته سبحانه بالإماء المستضعفات أنْ أنزل آية تمسح عار البِغاء وإثمه عن الأَمَة المُكْرَهة على ذلك من قِبَل سيدها القوّاد. وكان لعبد الله بن أُبَيّ رأسِ الضلال والنفاق أَمَةٌ أَمَرَها فزَنَتْ، فجاءت ببُرْد، فقال لها: ارجعي فازْنِي. قالت: والله لا أفعل. إنْ يَكُ هذا خيرا فقد استكثرتُ منه، وإن يَكُ شرّا فقد آن لي أن أَدَعه". وقد نزل فى ذلك كله قوله جل شأنه: "وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ 32- 33).

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالربا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدَّيْن، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (الروم/ 39)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/275- 280)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/ 130). ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضًا اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن المجيد مبينا كيف أن الله عاقبهم عقابا شديدا جَرَّاءَ ذلك الاستغلال الإجرامى القاسى فى التعامل مع المحتاجين: "فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء/ 160- 161).

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائما، بل رفض أن يأخذ المرابون أية فوائد على قروضهم رغم أنه غض البصر عما سلف منه فى الجاهلية قبل مجيئه. وفى تفسير الطبرى: "كانت ثقيف قد صالحت النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربًا على الناس وما كان للناس عليهم من ربًا فهو موضوع (أى مُلْغًى).

فلــما كان الفتــح استعمل عتّــابَ بــن أُسَــيْد علـــى مكــة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربــا مــن بنـــي المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم في الجاهليــة، فجــاء الإســلام ولهم علــيهم مال كثــير. فأتاهم بنو عمــرو يطلبــون رِبَــــاهم، فأبى بنو الــمغيرة أن يعطوهم فـــي الإســلام، ورفعــوا ذلــك إلــى عتّاب بن أُسَيْد، فكتب عتّاب إلـــى رســول الله صــلى الله عليه وسلم، فنزلت: "يا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُــوا اتّقُــوا اللّــهَ وَذَرُوا مَــا بَقِــيَ مِنَ الرِّبــا إِنْ كُنْتُــمْ مُوءْمِنِــــينَ* فـــإِنْ لَـــمْ تَفْعَلُــوا فــأَذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُــولِهِ..."، فكتــب بهــا رســول الله صلى الله عليه وســلم إلـــى عتّــاب وقــال: "إِنْ رَضُــوا، وَإِلاّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ". وقال رسول الله فى خطبتــه يــوم الفتـــح: "أَلاَ إِنّ رِبــا الــجاهِلِــيّةِ مَوْضُوعٌ كُلّــهُ، وَأَوّلُ رِبـــاً أَبْتَــدِئُ بِــهِ رِبــَا العَبّــاسِ بْنِ عَبْدِ الــمُطّلِب".

وكان المَيْسِر، وهو القِمَار، مــن الآفــات الــتى ابتُلِــيَ بهــا عرب الجاهلية، و"كانوا يتقامرون على الأموال حــتى ربمــا بقــي المقمور فقيرا فتَحْدُث من ذلك ضغائن وعــداوات" كمــا يقــول الثعالبى. وقد أورد الطبرى عن ابن عباس: "كــان الرجــل فـــي الــجاهلــية يخاطر (أى يقامر) علــى أهله ومالــه، فأيهمــا قَمَــرَ صاحبَه (أى غلبه فى القمار) ذهــب بأهلــه ومالــه". ومــن هنــا نستطيع أن نفهم تشديد التحريم له فى قولــه ســبحانه: "حُرِّمَــتْ

عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ" (المائدة/ **5**)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ **90**). وفى القمار يقول الطبرى إنهم "كانوا ياسرون (أى يتقامرون) على الجَزُور (وهو الجمل أو الناقة المُعَدّان للذبح)، وإذا أفلج الرجلُ منهم صاحبَه (أى كَسَبَه) نَحَرَه، ثم اقتسموا أعشارا على عدد القِدَاح (السهام). وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ إلى النّدَى ... ونِياطِ مُقفِرَةٍ أخافُ ضَلاَلَهَا"

ويزيد الزمخشرى الأمر تفصيلا فيقول: " كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذّ والتَّوْأم والرقيب والحِلْس والنَّافِس والمُسْبِل والمُعَلَّى والمَنِيح والسَّفِيح والوَغْد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المَنِيح والسَّفِيح والوَغْد. ولبعضهم:

لِيَ في الدنيا سهامٌ ليس فيهنّ رَبِيحُ ... وأساميهنّ وَغْدٌ وسفِيحٌ ومَنِيحُ

للفَذّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرَّقِيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنَّافِس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمُعَلَّى سبعة. يجعلونها في الرِّبَابة، وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدْل، ثم يجلجلها (أى يحرّكها)

ويُدْخِل يده فيُخْرِج بِاسْم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا منها. فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القِدْح. ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغَرِمَ ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البَرَم".

وفى الآيتين تحريم للأزلام أيضا، وهى سهامٌ ثلاثةٌ متشابهةٌ كانوا يضعوها فى كنانة، ثم يحركوها حتى تختلط ولا يمكن تمييز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يده فيسحب منها واحدا. فإذا كان هذا السهم مكتوبا عليه :"افعل"، فإن الشخص المُسْتَقْسِم يفعل ما كان ينوى أن يفعله، وإن خرج السهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل ما كان يريد، أما إذا كان السهم غير مكتوب عليه شىء أُعِيد تحريك السهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد استبدل الإسلام بهذه الطريقة الوثنية طريقة أخرى تربط الإنسان بربه، وهى "الاستخارة". ونترك الإمام الطبرى يشرح الأمر بقلمه كما كتبه عند تأويله للآية الخامسة من سورة "المائدة": "ذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوًا أو نحو ذلك أجال القِدَاح، وهي الأزلام (أى هَزّ الكنانة بما فيها من سهام)، وكانت قِدَاحا مكتوبا على بعضها: نهانى ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي. فإن خرج

القِدْح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي" كَفَّ عن المضيّ لذلك وأمسك. فقيل: "وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأزلامِ"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمْنَ لهم. ومنه قول الشاعر مفتخرا بترك الاستقسام بها: "ولَمْ أَقْسِمْ فتَرْبُتَني القُسُومُ". وأما "الأزلام" فإن واحدها "زَلَم"، ويقال "زُلَم"، وهي القِداح التي وصفنا أمرها". وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبرى عن السُّدِّىّ.

ومن الملاحظ تكرير القرآن النهى عن التطفيف فى الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك. وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث فى ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام/ 152)، "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" (الإسراء/ 35)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن/ 9)، "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" (المطففين/ 1– 3). وفى الطبرى: "عن عبد الله قال: قال له

رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُوفُون الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: "وَيْلٌ للْمُطَفّفِينَ*... * يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبّ الْعالَمِينَ"؟... وعن ابن عباس قال: لما قَدِمِ النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفّفِينَ"، فأَحْسَنوا الكيل".

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت فى أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبرى نفسه فى بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدماثة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة فى الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها فى الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرّر النهى عن الغَبْن فى المكاييل والموازين فى المرحلة المكية، بخلافه فى المرحلة المدنية، التى لم ينزل فيها شىء فى ذلك. ولا ينبغى أن نغفل عن أن المكيين كانوا، فى المقام الأول، تجارًا لا زُرّاعًا كاليثربيين. بل إن الحديث عن شيوع الغش فى المعاملات التجارية فى بعض الأمم القديمة وتلاعبها فى الكيل والميزان، وهى أمة شُعَيْب عليه السلام، إنما كان فى "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهى مما نزل فى مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث ويهاجم اليثربيين قبل الميعاد؟ الذى أراه هو أن المقصودين

بالكلام عن الكيل والميزان إنما هـم المكيـون قبـل غيرهـم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب من هـذا الانحـراف الخلقـى. وبالمناسبة فـإن الواحـدى والـسيوطى مـثلا فى كتابيهمـا عـن "أسباب النزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بـن عاشـور فى "تفـسير التحريـر والتنـوير" فيورد اختلاف العلماء فى مكية الـسورة أو مدنيتـها، لينتـهى إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضـاف قـائلا: "وعـن القُرَظِـيّ: كان بالمدينة تجار يطففـون الكيـل، وكانـت بياعـاتهم كـسَبْت القمار والملامسة والمنابذة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هـذه الآيـة فخرج رسول الله صلى الله عليـه وسـلم إلى الـسوق وقرأهـا، وكانت عادة فَشَتْ فيهم من زمن الـشرك فلـم يـتفطَّن بعـض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مـال النـاس، فأُرِيـدَ إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمـة لإصـلاح أحـوال المـسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المـشركين بمكـة ويثـرب بـأنهم الـذين سَنُّوا التطفيف. وما أَنْسَبَ هذا المقصد بـأن تكـون نزلـت بـين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعـاملات التجاريـة قبـل أن يدخل إليها النبي صلى الله عليه وسلم لـئلا يـشهد فيهـا منكـرًا عامًّا، فإن الكيل والوزن لا يخلـو وقـت عـن التعامـل بهمـا في الأسواق وفي المبادلات". ولكنى، رغـم هـذا، مـا زلـت أرى أن "المطففين" سورة مكية لأسـلوبها وموضـوعاتها اللـذين يـشبهان

أسلوب الوحى المكى وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل يثرب مُهَاجَرَه إليهم، فقد قلت إننى لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفِّف فى الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، فى نظرى، هم المقصودون أوّلاً وفى الأساس بهذه الآيات. أَيًّا ما يكن الأمر فقد كان الجاهليون يتلاعبون فى مكاييلهم وموازينهم بما يأباه الخلق الشريف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار فى المجتمعات المتخلفة مما لا نجده فى نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحس التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية فى حد ذاتها هو المراد!

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرِّمون البَحِيَرَة والسائبة والحامى، وفى ذات الوقت يأكلون المَيْتَة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخنقة أو موقوذة (وهى المضروبة ضربا شديدا حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متردِّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراما، ويكون ما قتله (أى ذبحه) البشر حلالا؟ وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم

يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أُهِلَّ به لغير الله وما ذُبح على النُّصُب. وفى كلامنا عن الأمثال فى العصر الجاهلى إشارة إلى أكلهم الدم. وفى الطبرى أهم "كَانُوا إذَا أَرَادُوا ذَبْح مَا قَرَّبُوهُ لآلِهَتِهِمْ سَمَّوْا اسْم آلِهَتهمْ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتهمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرهمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِح يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَةِ أَوْ لَمْ يَجْهَر: "مُهِلّ". فَرَفْعهمْ أَصْوَاتهمْ بِذَلِكَ هُوَ الإِهْلال الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى". كما يقول القرطبى إن ما أُهِلَّ به لغير الله هو "ذَبِيحَة الْمَجُوسِيّ وَالْوَثَنِيّ وَالْمُعَطِّل: فَالْوَثَنِيّ يَذْبَح لِلْوَثَنِ، وَالْمَجُوسِيّ لِلنَّارِ، وَالْمُعَطِّل لا يَعْتَقِد شَيْئًا فَيَذْبَح لِنَفْسِه". و"النُّصُب" هى الأَوْثَان مِنْ الْحِجَارَة، وكَانَتْ تُجْمَع فِي الْمَوْضِع مِنْ الأَرْض، فكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَامٍ، لأن الصَّنَم يُصَوَّر وَيُنْقَش، وَهَذِهِ حِجَارَة. فكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّم عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنْ الْبَيْت وَشَرَّحُوا اللَّحْم وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَة.

أما البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكانت النَّاقَةُ إذَا وَلَدَتْ أَبْطُنًا خَمْسًا أَوْ سَبْعًا شَقُّوا أُذُنَهَا وَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة، وكَانَ الرَّجُل يَأْخُذ بَعْض مَالِه فَيَقُول: هَذِهِ سَائِبَة، وكَانُوا إِذَا وَلَدَتْ النَّاقَةُ الذَّكَرَ أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَإِذَا وَلَدَتْ

ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْن قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَــلا يَأْكُلُونَهُمَــا. فَــإِذَا مَاتَ الذَّكَر أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَــاث. وكَــانَ الْــبَعِير إِذَا وَلَــدَ وَوَلَدَ وَلَدُه قَالُوا: قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ، فَلَــمْ يَنْتَفِعُــوا بِظَهْــرِهِ وقَالُوا: هَذَا حَامٍ. وقيل أيــضا: كــانوا إذا نتجــت (أى ولــدت) الناقة خمسة أَبْطُنٍ إناثا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أذنهــا فحُرِّمَــتْ، وقيــل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذَكَرًا بحــروا أذنــه فأكله الرجال والنساء، وإن كــان الخــامس أنثــى بحــروا أذنهــا وكانت حرامًا على النــساء لحمهــا ولبنــها. وقيــل: إذا نتجــت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإنــاث شــقّوا أذنهــا وحرَّمــوا ركوبها ودَرّها. والسائبة: الناقة تُــسَيَّب، أو الــبعير يُــسَيَّب نــذرًا على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغــه مترلــه فــلا يُحْــبَس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. وقيل: هي الــتي تُــسَيَّب لله فــلا قيد عليها ولا راعي لها. وقيل: هي التي تابعت بــين عــشر إنــاث ليس بينهن ذَكَر، فعند ذلك لا يُرْكَب ظهرهــا ولا يُجَــزّ وَبَرهــا ولا يَشْرَب لبنَها إلا ضــيف. والوَصِــيلة قيــل: هــي الناقــة إذا وَلَدَتْ أنثى بعد أنثى، وقيل: هي الشاة، كانــت إذا وَلَــدَتْ أنثــى فهي لهم، وإن ولدت ذكــرًا فهــو لآلهتــهم، وإن ولــدت ذكــرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يــذبحوا الــذَّكَر لآلهتــهم. وقيــل: كانوا إذا ولدت الشاةُ سبعة أَبْطُــن نظــروا: فــإن كــان الــسابع ذكرا ذُبِح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانــت أنثــى تُرِكَــتْ

في الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرْكَب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُرْكَب، فجاء الإسلام فحرَّم هذا كله. ومن الأخبار التى وردت عن ذبحهم لآلهتهم ما رُوِىَ عن ابن عباس من "أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ عليها، وكان عبدًا لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائةً من الإبل يَنْحَرونها لآلهتهم".

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعًا مستطيرًا يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلى، ولقد أخذت هذه المسألة فى أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفّوا عن تعاطى أم الخبائث ممتثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقلعوا عنها إقلاعا لم يحدث من قبل ولا من بعد فى أى مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التى تتحدث فى موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" (البقرة/ 173)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ

وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/ 3)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (المائدة/ 103)، "قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/ 145)، "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ" (النحل/ 115- 116)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ 90). ولا أدرى أكان من العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم فى شريعة موسى عليه السلام، التى أكد المسيح أنه إنما أتى لتكميلها لا لنقضها، إلا أن بولس اليهودى ما إن دخل النصرانية حتى أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريبا، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير.

ولأن المجتمع العربى فى الجاهلية مجتمع رعوى فى الأساس كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية. وكان من أطعمتهم أيضا العسل، يحصلون عليه من النحل الذى يعيش فى الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيِّبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان/ 5). وقد امتنّ الله عليهم بهذا كله: "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ 66- 69)، "وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" (محمد/ 15)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً "(الإنسان/ 17)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين/ 25- 26) .

وفى تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثا عن بنى آدم: "ولأُضِلَّنَّهم ولأُمَنِّبنَّهم ولآمُرَنَّهم فلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام، ولآمُرَنَّهم فلَيُغَيِّرُنّ خَلْق الله" (النساء/ 119) يقول

الزمخشرى: "تَبْتِيكُهم (أى تَبْتِيك عرب الجاهلية الوثنيين) الآذان: فِعْلُهم بالبحائر. كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذَكَرًا، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وتغييرهم خلق الله: فَقْءُ عين الحامي وإعفاؤه من الركوب". وفى قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام/ **136**) نرى لونًا آخر من اعتقاداتهم الوثنية التى كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونَتَاج دوابّهم نصيبا، ولآلهتهم نصيبا من ذلك يَصْرِفونه على سَدَنَتها والقائمين بخدمتها. فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عَوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك. وقوله: "فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله"، أي إلى المصارف التي شرع الله الصَّرْف فيها كالصدقة وصلة الرَّحِم وقِرَى الضيف. ومعنى عبارة "وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم"، أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفى "الكشاف" للزمخشرى أنهم "كانوا يعيّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشياءَ منها لآلهتهم، فإذا رَأَوْا ما جعلوه للّه زاكيا ناميا يزيد في نفسه خيرا رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زَكَا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلُّوا

بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها". وفى قوله سبحانه: "فلا يصل إلى الله" يقول: "أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليه من قِرَى الضِّيفان والتصدق على المساكين"، أما قوله: "فَهُوَ يصل إلى شركائهم" فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النسائك عندها والإجراء على سَدَنتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفى الآيتين **138- 139** من نفس السورة نقرأ قوله عز شأنه: "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ* وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ". و"الحِجْر" هو التضييق، والمقصود أنهم يَقْصِرونها على طرفٍ دون آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عيَّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: "لا يَطْعَمها إلا من نشاء"، يَعْنُون خَدَم الأوثان والرجال دون النساء. أما الأنعام التى حُرِّمَتْ ظُهُورهَا فهى البحائر والسوائب والحَوامِي. ثم هناك الأنعام التى لا يُذْكَر اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء

الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها. أى أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرَّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذْكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضا: "ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء". أى أن ما وُلِد من أَجِنّة البحائر والسوائب حَيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما وُلِد منها ميتًا اشترك فيه الذكور الإناث. وفى ذات السياق أيضا ورد قوله سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/ **56**)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهى لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيبا مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكرارا لذكر الجبال فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعى، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ" (هود/ **42**)، "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" (إبراهيم/ **46**)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ **68**)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا" (النحل/ **81**)،

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" (طه/ 105)، "وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ" (فاطر/ 27)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا" (النبأ/6- 7)، "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (النازعات/ 32- 33). كما أشار القرآن، فى آية مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هى ظاهرة السراب: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا" (النور/ 39).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح فى الجزيرة العربية، ومن هنا فكثيرا ما يمنّ الله على العرب بإنزاله من السماء ماء يُحْيِى الأرض بعد موهما: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/ 22)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا" (الأنعام/ 99)، "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" (الأنفال/ 11)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ" (الزُّمَر/ 21)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (المُلْك/ 30)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً

ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" (النبأ/ 14-16). والإبل هى أيضا من حيوانات الجزيرة العربية، وهى مما ورد ذكره فى كتاب الله، بل هى الحيوان الوحيد الذى لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية/ 17-20)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التى كان يقطنها العرب فى الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهى بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل عددا فى بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوَبَر والشَّعْر والجلد، وهى الخيام، التى لا يعرف سكان البوادى غيرها نظرا لتنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل/ 80).

أما الحيوانات والطيور والطيور والزواحف والحشرات التى كانت تعيش فى بلادهم أو يعرفونها ولو سماعا فقد ذكر القرآن منها الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والمَعْز والضأن والفيل والسَّبُع والأسد (الذى استخدم له

القرآن كلمة "قَسْوَرَة") والقِـرَدَة والكلـب والخنزيـر والغـراب والهدهـد والـسلوى والـضفادع والحـوت والحيـة والثعبـان والجوارح والنحـل والجـراد والبعوضـة والعنكبـوت والـذباب والنمل والقُمَّل: "إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَـثَلاً مَـا بَعُوضَـةً فَمَا فَوْقَهَا" (البقـرة/ 26)، "الْمَـنَّ وَالـسَّلْوَى" (البقـرة/ 57، والأعـراف/ 160، وطـه/ 80)، "بَقَـرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْـرٌ" (البقرة/ 68)، "بَقَرَةٌ صَـفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَـا" (البقـرة/ 69)، "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" (البقرة/ 70)، "وَانْظُرْ إِلَـى حِمَـارِكَ" (البقـرة/ 269)،"وَمَا أَكَـلَ الـسَّبُعُ" (المائـدة/ 3)، "وَمَـا عَلَّمْـتُمْ مِـنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُـوا مِمَّـا أَمْـسَكْنَ عَلَيْكُمْ" (المائدة/ 4)، "فَبَعَـثَ اللَّـهُ غُرَابًـا يَبْحَـثُ فِـي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـا وَيْلَتَـا أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَـوْأَةَ أَخِـي فَأَصْـبَحَ مِـنَ النَّـادِمِينَ" (المائدة/ 31)، "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِـكَ مَثُوبَـةً عِنْـدَ اللَّـهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِـرَدَةَ وَالْخَنَـازِيرَ وَعَبَـدَ الطَّاغُوتَ" (المائدة/ 60)، "وَمِنَ الأَنْعَـامِ حَمُولَـةً وَفَرْشًـا كُلُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُـوَاتِ الـشَّيْطَانِ إِنَّـهُ لَكُـمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَـيْنِ وَمِـنَ الْمَعْـزِ اثْنَـيْنِ قُـلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّـا اشْـتَمَلَتْ عَلَيْـهِ أَرْحَـامُ الأُنْثَيَـيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِـنَ الْبَقَـرِ اثْنَـيْنِ

قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ" (الأنعام/142- 144)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بعَظْمٍ" (الأنعام/ 146)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ" (الأعراف/ 133)، "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" (الأعراف/ 176)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال/ 60)، "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" (هود/ 64)، "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" (يوسف/ 17)، "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ" (يوسف/ 43)، "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (النحل/ 8)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ 68)، "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" (الكهف/ 18)، "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهف/ 61)، "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه/

18- 20)، "نَفَــشَتْ فِيــهِ غَــنَمُ الْقَــوْمِ" (الأنبيــاء/ **78**)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًــا وَلَــوِ اجْتَمَعُــوا لَــهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الــذُّبَابُ شَــيْئًا لا يَــسْتَنْقِذُوهُ مِنْــهُ" (الحــج/ **73**)، "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُــبِينٌ" (الــشعراء/ **32**)، "حَتَّــى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْــلُ ادْخُلُــوا مَــسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَــشْعُرُونَ" (النمــل/ **18**)، "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَــانَ مِــنَ الْغَــائِبِينَ" (النمل/**20**)، "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِــنْ دُونِ اللَّــهِ أَوْلِيَــاءَ كَمَثَــلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْــتُ الْعَنْكَبُــوتِ لَــوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت/ **41**)، "إِنَّ أَنْكَــرَ الأَصْــوَاتِ لَــصَوْتُ الْحَمِــيرِ" (لقمــان/ **19**)، "فَالْتَقَمَــهُ الْحُــوتُ وَهُــوَ مُلِــيمٌ" (الصافات/ **142**)، "قَالَ لَقَــدْ ظَلَمَــكَ بِــسُؤَالِ نَعْجَتِــكَ إِلَــى نِعَاجِهِ" (ص/ **24**)، "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُــمَّ لَــمْ يَحْمِلُوهَــا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِــلُ أَسْــفَارًا" (الجمعــة/ **7**)، "كَــأَنَّهُمْ حُمُــرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدَّثِّر/ **51**)، "أَفَــلا يَنْظُــرُونَ إِلَــى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/**17**)، "أَلَمْ تَــرَ كَيْــفَ فَعَــلَ رَبُّــكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ **1**).

وأما الثمار والفواكــه والنباتــات والأشــجار الــتى كــان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها الــتين والزيتــون والأعنــاب والرمان والنخيل والبقل والعَدَس والبصل والقِثّــاء والفُــوم (وهــو

الثوم أو الحنطة) والقمح واليقطين (القَرْع) والخَمْط (الأراك) والأَثْل (الطرفاء) والسِّدْر والطَّلْح والريحان والقَضْب والأَبّ والضَّريع: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا" (البقرة/ **61**)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام/ **99**)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام/ **141**)، "وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" (يوسف/ **43**)، "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا" (الكهف/ **32**)، "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم/ **25**)، "وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" (طه/ **71**)، "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ" (النور/ **35**)، "وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" (سبأ/ **16**)، "وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ" (الصافات/ **146**)، "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ" (ق/ **9**)،

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ" (الرحمن / 11– 12)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن/ 68)، "فِي سِدْرٍ مَخْضُود* وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" (الواقعة/ 28– 29)، "فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ" (الواقعة/ 89)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر/ 5)، "فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا*فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (عبس/ 24– 32)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ " (الغاشية/ 6)، "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" (التين/1).

وتبقى المعادن والجواهر والملابس: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" (آل عمران/ 14)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (أى الفضة) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ" (الكهف/ 19)، "لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" (الكهف/ 31)، " يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" (الحج/ 23، وفاطر/ 33)، "وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ" (سبأ/ 10)، "وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ"(سبأ/ 12)، "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف/ 33)، "فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" (الزخرف/ 53)، "يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ" (الدخان/ 53)، "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ" (الطور/ 24)، "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ 22)، "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمن/ 35)، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ 58)، "وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ" (الحديد/ 25)، "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" (الإنسان/ 12)، "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ" (الإنسان/ 15).

وفى القرآن المجيد أيضًا ذِكْرٌ لمكة ويثرب والمدينة ولسان العرب، وقريش ورحلتيها إلى الشام واليمن، والكعبة وإبراهيم أبى العرب وابنه إسماعيل، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسبإ وعاد وثمود ومَدْيَن، وهُود وصالح وشُعَيْب، واليهود والنصارى والصابئين والمَجُوس، والشِّعْر والشعراء والكُهّان والنفّاثات فى العُقَد، والأشهر الحُرُم، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثأر ويجعلونها شهور هدنة، وإن كانوا أحيانا ما يستمرون فيه معوِّضين عنها بشهور أخرى يتوقفون فيها عن المعارك، وهو ما يسمونه: "النَّسِيء". كما كان الأخذ بالثأر

تقليدا جاهليا راسخا فى أعماق النفس العربية، ولكنْ بالمقابل كانت مكة بما فيها الكعبة حَرَمًا آمنا لا يجوز الأخذ بالثأر فيه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقال: "البلد الحرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هذا كله جزءا من حياة العرب وجغرافيتهم وتاريخهم وثقافتهم ودينهم: "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ (بالأخذ بالثأر) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخذها الدية منه لأولياء القتيل حسبما يختارون)" (الإسراء/ 33)، "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ (أى مكة) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّه غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (آل عمران/ 96- 97)، "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" (الفتح/ 24- 25)، "لإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ" (قريش/ 2)، "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ" (المائدة/ 97)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَـا أَهْـلَ يَثْـرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" (الأحزاب/ 13)، "وَإِذْ جَعَلْنَـا الْبَيْـتَ مَثَابَـةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَـامِ إِبْـرَاهِيمَ مُـصَلًّى وَعَهِـدْنَا إِلَـى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِـيَ لِلطَّـائِفِينَ وَالْعَـاكِفِينَ وَالرُّكَّـعِ السُّجُود* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَـلْ هَـذَا بَلَـدًا آمِنًـا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ قَـالَ وَمَـنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَـذَابِ النَّـارِ وَبِـئْسَ الْمَـصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّـلْ مِنَّـا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَـكَ وَمِـنْ ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَـا إِنَّـكَ أَنْـتَ التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِـنْهُمْ يَتْلُـو عَلَـيْهِمْ آيَاتِـكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْـتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ" (البقرة/ 125- 129)، "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِـنْ حَـرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُـسْلِمِينَ مِـنْ قَبْـلُ" (الحج/ 78)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَـارَةَ الْمَـسْجِدِ الْحَـرَامِ كَمَـنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ" (التوبـة/ 19)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّـهِ وَأَحِبَّـاؤُهُ قُـلْ فَلِـمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَـشَرٌ مِمَّـنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَـنْ يَـشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْـكُ الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة/ 51)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (المائدة/ 69)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج/ 17)، "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ" (سبأ/ 15)، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت/ 36–38)، "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ"

(هود/ **87- 89**)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل/ **103**)، "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" (الشعراء/ **192- 195**)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا" (الأحقاف/ **12**)، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" (يس/ **69**)، "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء/ **224**)، "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" (الطور/ **29- 30**)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ* وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقّة/ **40- 43**)، "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفَلَق/ **4**)، "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبة/ **36- 37**)، "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (النمل/ **91**)، "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ

لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا" (القَصَص/ 57)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" (العنكبوت/ 67)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة/ 2)، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الإسراء/ 1).

كما أبرز القرآن فى أكثر من موضعٍ تمسُّك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقاليد تمسكا حديديًّا: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (البقرة/ 170)، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (المائدة/ 104)، "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الزخرف/ 22).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبينًا أن كُلاًّ من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذَّبوا يوم القيامة إلا أياما معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْرًا ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثلِّثون الألوهية، ومنهم من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم فى الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطعمة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرّمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم فى النبوة وأنها محصورة طبقا لدعواهم فى بنى إسرائيل، وزَعْمهم أن الله قد عَهِدَ إليهم ألا يؤمنوا بأى رسول إلا إذا أتاهم بقربان تترل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم فى غير اليهود سبيلا، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناتهم معهم دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "قُــلْ يَــا أَيُّهَــا الَّــذِينَ هَــادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّــوُا الْمَــوْتَ إِنْ كُنْــتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة/ 6)، "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ (أى بنى إســرائيل) قَــالُوا لَــنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَــرَّهُمْ فِــي دِيــنِهِمْ مَــا كَــانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/ 24)، "وَقَالَــتِ الْيَهُــودُ عُزَيْــرٌ ابْــنُ اللَّــهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَــسِيحُ ابْــنُ اللَّــهِ ذَلِــكَ قَــوْلُهُمْ بِــأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّــهُ أَنَّــى يُؤْفَكُــونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِــنْ دُونِ اللَّــهِ وَالْمَــسِيحَ ابْــنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِــدًا لا إِلَــهَ إِلاَّ هُــوَ سُــبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة/ 30– 31)، "لَقَدْ كَفَــرَ الَّــذِينَ قَــالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِــنَ اللَّــهِ شَــيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِــي الأَرْضِ جَمِيعًــا وَلِلَّــهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَــشَاءُ وَاللَّــهُ عَلَــى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ 17)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّــذِينَ قَــالُوا إِنَّ اللَّــهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْــرَائِيلَ اعْبُــدُوا اللَّــهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّــهِ فَقَــدْ حَــرَّمَ اللَّــهُ عَلَيْــهِ الْجَنَّــةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* لَقَدْ كَفَــرَ الَّــذِينَ قَــالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَــهٌ وَاحِــدٌ وَإِنْ لَــمْ يَنْتَهُــوا عَمَّــا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَــذَابٌ أَلِــيمٌ" (المائــدة/ 72– 73)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْــنَ مَــرْيَمَ أَأَنْــتَ قُلْــتَ لِلنَّــاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوب" (المائدة/ **116**)، "وَإِنَّ مِنْهُمْ (أى من اليهود) لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (البقرة/**78- 79**)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ **46**)، "فَبِمَا نَقْضِهِمْ (أى بنى إسرائيل) مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة/ **13- 14**)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ **146**)، "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ

لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ **93**)، "الَّذِينَ قَالُوا (أى اليهود) إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ **183**)، "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من يهود المدينة) آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران/ **72- 75**)، "وَقَوْلِهِمْ (أى اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ **157- 158**). ويبقى المجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التثنية فى الألوهية هذا

نصّها: "وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" (النحل/51)، وأقرب ما يمكن أن يفد إلى الذهن هنا ثَنَوِيَّة فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور، والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثّرًا بالفرس.

الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف
والفنون والأيام والنيران والأسواق

أنساب العرب: اتفق علماء العرب القدماء على تقسيم العرب إلى نوعين: عاربة ومستعرِبة، قائلين إن العاربة هم العرب الأوائل الذين فهّمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها، فقيل لهم: عاربة، إما بمعنى الراسخة في العروبية، وإما بمعنى المبتدعة لها. وقد يقال لهم: العرب العَرْباء. وأما المستعربة فهم الذين دخلوا في العروبية من بعد العُجْمَة. ثم اختُلِف في من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة، فذهب بعضهم إلى أن العاربة هم عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وأَمِيم وعَبِيل والعمالقة وعبد صنم وجُرْهُم وحضرموت وحَضُوراء وبنو ثابر والسَّلَف ومن في معناهم. والمستعربة هم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل عليه السلام كانت عجمية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جُرْهُم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة. وذهب آخرون إلى أن بني قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط. كذلك قسم المؤرخون أيضًا العرب إلى بائدة وغيرها: فالبائدة هم الذين بادوا ودَرَسَتْ آثارهم كعاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وجُرْهُم الأولى. ويلحق بهم مَدْيَن، فإنهم ممن ورد القرآن بهلاكهم. وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك

كجُرْهُم الثانية وسَبَإ وبني عدنان. ثم منهم من باد بعد ذلك كجُرْهُم، ومنهم من تأخر حتى الآن كبقايا سَبَإ وبني عدنان.

وينقسم العرب إلى قبائل، والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله. والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو "النسب"، ويفسّر ذلك ارتباطُ أبناء القبيلة كلها بنسب واحد ودم واحد. ويرجع أهلُ الأنساب نسبَ كل قبيلة إلى جدّ أعلى، ثم يرجعون أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم... وهكذا، حتى يصلوا إلى الجَدَّيْن الأخيرين: قحطان وعدنان. وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل لم يعرف أسماءَ أكثرها أهلُ الأخبار، وهي تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تلك القبائل التي كانت قد هلكت أو انحلّت واختلطت بالقبائل الأخرى. وتتألف القبيلة من بيوت يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة واختلاف المواسم. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، وما تقرره هذه الحكومة يطاع وينفَّذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه. وقد أطلق أهل الأنساب لفظة "القبيلة" على الحَضَر أيضًا: فقريش قبيلة، والأوس قبيلة، والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ووطن القبيلة هو المضارب التى تنزلها والأماكن التى يمتد نفوذها إليها، فهو يتقلص ويتسع حسب نفوذ القبيلة. وتتألف القبيلة من عمائر،

كما تتألف العمائر من أقسامٍ أقـلّ. ويقـول علمـاء العـرب إن هناك تجمعـات أكـبر حجمًـا مـن القبيلـة أطلقـوا عليهـا: "الشعوب"، ومثالها بنو قحطـان وبنـو عـدنان، فكـل منـهما شَعْب، وما دونهما قبائل. ولفظة "الشعب" مـن الألفـاظ الـواردة في نصوص الخط المسند، وهـي فيهـا بمعـنى "قبيلـة"، وتُكْتَـب: "شعبن"، أي "الشعب"، لأن حرف النـون في أواخـر الأسمـاء أداة للتعريف في اللغات العربية الجنوبية. ويلـي الـشعبَ في اصـطلاح أهـل النـسب: القبيلـةُ، ثم العمـارة، ثم الـبطن، ثم الفخـذ، ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب الأبعـد مثـل عـدنان و قحطـان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانـة، والـبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بـني هاشـم وبـني أميّـة، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعـل "ابـن الكلـبي" مرتبةً بين الفخذ والفصيلة هـي مرتبـة العـشيرة، وهـي رَهْـط الرجل.

وقسّم النويري النظـام القبلـي عنـد العـرب إلى عـشر طبقات مبتدئا بـ"الجِذْم"، أى الأصل، وهـو قحطـان وعـدنان، وهذه هى الطبقة الأولى. ثم الجمـاهير، وهـي الطبقـة الثانيـة. ثم الشعوب، وهى الطبقة الثالثة. ثم الطبقة الرابعـة: القبيلـة، وهـي التي دُونَ الشعب، وتَجْمَع العمائر. ثم الطبقة الخامـسة: العمـائر، وهي التي دون القبائل، وتجمـع البطـون. ثم الطبقـة الـسادسة:

البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ. ثم الطبقة السابعة: الأفخاذ، وهي أصغر من البطون، والفَخِذ تجمع العشائر. ثم الطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. ثم الطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته. ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته. وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي "البيت"، فهي نواة القبيلة، ومنها نبتت شجرتها التي يختلف حجمها وعدد أغصانها وفروعها باختلاف منبتها والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها. وقد اصطلح علماء النسب على أن للعرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان: ربيعة ومضر ويمن وقضاعة. ولا يمكن أن يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وأسماء القبائل عند العرب على خمسة أَضْرُب: أولها أن يُطْلَق على القبيلة لفظة "الأب" كعاد وثمود ومدين ومن شاكلهم. وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى: "وإلى عاد"، "وإلى ثمود"، "وإلى مدين"، يريد بني عاد وبني ثمود. وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام، لا سيما في الأزمان المتقدمة، بخلاف البطون والأفخاذ ونحوهما. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ "بنو فلان"، وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأفخاذ والقبائل الصغار، وبخاصة في الأزمان المتأخرة. وثالثها

أن تَرِد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما، وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم. ورابعها أن يعبر عنها بـ"آل فلان" كآل ربيعة وآل فضل وآل علي وما أشبه، وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة لا سيما في عرب الشام في زماننا، والمراد بـ"الآل" الأهل. وخامسها أن يعبر عنها بـ"أولاد فلان"، ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين في أفخاذ العرب على قلة.

وغالب أسماء العرب منقولة مما يخالطونه ويجاورونه من الحيوان كـ"أسد ونمر"، أو من النبات كـ"نبت وحنظلة"، أو من الحشرات كـ"حية وحنش"، أو من أجزاء الأرض كـ"فِهْر وصخر" ونحوه. والغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء كـ"كلب وحنظلة وضرار وحرب"، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كـ"فلاح ونجاح". ويحكى أنه قيل لواحد منهم: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو "كلب وذئب"، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو "مرزوق ورباح"؟ فكان جوابه: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا. يريد أن الأبناء مُعَدّة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد مُعَدّة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء. وكان العرب يتعززون بانتسابهم إلى اليمن، فكان من ينقلب على نسبه يتخذ لنفسه نسبًا يمانيًّا لأجل أن الملوك كانت في اليمن، مثل آل النعمان بن

المنذر من لخم، وآل سليح من قضاعة، وآل محرق، وآل العرنجج، وهو حِمْيَرَ الأكبر.

وكان هناك، إلى جانب النسب، نوع ارتباط آخر بين القبائل العربية هو الأحلاف، التى كانت حاجة الأعراب إليها أكثر وأشد من حاجة الحضر، إذ الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقرها وشحها ولانبساط أرضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزوّ منه، فاضطُرّت القبائل إلى اصطناع حماية طبيعية لها هي الأحلاف. وغاية الأحلاف حماية المال والنفس وكبح جماح المعتدين، وهذه هى الأحلاف الدفاعية. أما الأحلاف الهجومية التي تُعْقَد لتحقيق أغراض هجومية، مثل غزو حلفٍ حلفًا آخر، أو قبيلةٍ ضخمةٍ قبيلةً ضخمةً أخرى، فإنها لا تعمَّر طويلا كما تعمَّر الأحلاف الدفاعية لأن أسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتُّفِق عليه. وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلاف فى المصالح أو طروء مصالح لم تكن في حسبان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ليظهر محله حلف آخر جديد.

أما الحَضَر، فإن لهم من حماية أرضهم ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم إلى الحِلْف القبلي ويجعل أحلافهم طرازا آخر، فقد منحتهم الطبيعة حجرًا صَلْدًا بَنَوْا به أبراجًا وحصونًا ومعاقل حَمَوْا بها مساكنهم من طمع الطامعين،

ولا سيما الأعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود أسلحة لديهم تؤثر فيها. كما أمدتهم بمواد بناء مكنتهم من إنشاء الحيطان والأسوار حولها. وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من مثل هذا التحرش، وكذلك عقد معاهدات مع القبائل لمرور تجارتهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تدفع إلى ساداتها تأليفًا لقلوبهم وضمانًا لعدم احتكاك أحد منهم بهم.

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام حِمْيَر وكهْلان. ومن مجموعة حمير: قُضَاعة في رأي من جعل قضاعة من اليمن. ومن قضاعة: كلب وأسد، ومن أسد: تنوخ. وأما مجموعة كهلان فتتألف من الأزد وهَمْدان ومَذْحِج وطَيِّئ، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد. وقد عُرِفَتْ "ربيعة" بـ"ربيعة الفرس". وإنما قيل له: "ربيعة الفرس" لأنه (كما جاء عند القدماء) أُعْطِيَ من ميراث أبيه الخيل، وأُعْطِيَ أخوه مُضَر الذهب فسُمِّيَ: "مضر الحمراء". وأُعْطِيَ أنمار أخوهما الغنم فسُمِّيَ: "أنمار الشاة". وذُكِر أيضًا أن نزارًا لما حضرته الوفاة آثر إيادًا بولاية الكعبة، وأعطى مُضَر ناقة حمراء، فسُمِّيَ: "مضر الحمراء"، وأعطى ربيعة فرسه، فسُمُّوا: "ربيعة الفرس"،

وأعطى أنمار جارية له تسمى: "بجيلة" فحضنت بنيه، فسُمِّيَ: "بجيلة أنمار". ومن أشهر قبائل مضر: قريش، حتى إن الناس كانوا إذا قالوا: "مُضَرِيّ" انصرف ذهنهم إلى معنى "قرشي" لاشتهار قريش بالمضرية.

ولقد أُطْلِقَ على بعض القبائل ألقاب فقيل: كِنْدَة الملوك، ومَذْحِج الطعّان، وهَمْدان أحلاس الخيل، والأَزْد أُسْد البأس. وبعض هذه الألقاب ألقاب حسنة جميلة، وبعضها ألقاب تشير إلى قوة وشدة، وبعضها لا غضاضة فيه. وهي ألقاب كانت القبائل المسمّاة بها تتخذها مفخرا وسبيلا إلى المباهاة، أو على الأقل لا ترى بها بأسًا. غير أن هناك ألقابا أخرى تشير إلى استصغار شأن القبيلة التي نُعِتت بها، مثل "القَيْن" و"الأجارب" و"الأقارع" و"قُرَاد" وما شاكل ذلك، ولم تر الأجيال التالية عارا في مثل تلك الألقاب. واشتهرت طَيِّئ بالجود لموقع حاتم وأوْس بن حارثة منها. وعُرِفَتْ باهلة باللؤم، حتى ضُرِب بها المثل فقيل: "لؤم باهلة". واشتهر بنو ثُعَل بالرمي. واكتسبت مُدْلِج شهرة واسعة في القيافة، إذ اختصت بها من بين سائر العرب. وبرَّز بنو لِهْب في العيافة، فهم أَزْجَر العرب وأَعْيَفهم. وعُرِفَت إياد بخطبائها، وملوك غَسّان بثريدهم فقيل: "ثريدة غسان". وعُرِفت كندة بغلاء مهور بناتهم. وعُرِفت "خُزَاعة" بالجوع والأحاديث، أي أنهم يجمعون بين الفقر والدعاوَى الفارغة.

وفى كتب التراث نقرأ كلاما كثيرا فى هذا الموضــوع: ففــى "الاشتقاق" مثلا لابن دُرَيْد أن بنى لِهْب أَعْيَفُ العــرب وأَزْجَــرُهم للطير. وفى "عيون الأخبار" لابن قُتَيْبَة أن كُثَيِّر عَزّة الشاعر الأمــوى المعروف احتاج ذات مرة أن يستعين بأحد من العافة فدُلَّ على بــنى لِهْب، وكانت عيافتهم له دقيقة حسبما ورد فى الخبر، فقال فى ذلك:

تَيَمَّمتُ لِهْبًا أَبتغي العِلم عِندَهُم وَقَــد رُدَّ عِلمُ العَائِفينَ إلى لِهْبِ

ومن الشواهد المتداوَلة فى باب "المبتدإ والخبر" من كتب النحو البيت التالى، ويُنْسَب لرجل من طَــيِّءٍ:

خبيرٌ بنــو لِهْبٍ، فلا تَكُ مُلْغِيًا مقــالةَ لِهْبِيٍّ إذا الــطيرُ مــَرَّتِ

وفى "البيان والتبيين" يقول الجاحظ فى التقــديم لبيــت شــعر يمدح فيه صاحبُه خطيبًا إيادِيًّا من الخوارج الأزارقــة: "وقــد ذكــر الشَّاعرُ زيدَ بنَ جنــدبٍ الإيــاديّ الخطيــبَ الأزرقــيَّ في مرثيتِــه لأبي دُوَادِ بنِ حَرِيز الإيادي حيثُ ذكره بالخطَابــة وضــرب المثــلَ بخطباء إياد فقال:

كقُسٍّ إيادٍ أو لقيط بن مَعْبــدٍ وعُذْرَةَ والمِنْطِيق زيد بن جُنْدبِ"

وفى "البيان والتبيين" أيــضا "أن رســول اللّــه صــلى الله عليــه وسلم قال: لا تغالُوا بالنّساء فإنما هُــنّ سُــقْيا اللّــه... (وعــن) مُجالِد عن الشَّعبي: قال رســول اللّــه صــلى الله عليــه وســلم: اللهمَّ أذهِبْ مُلكَ غــسَّان، وضَــعْ مهــور كِنْــدة". وفى كتــاب "البخلاء" يتعجب بطل إحــدى القــصص مــن براعــة قــوم فى

الاستدلال على الحقائق الغائبة من بعض الشواهد التى لا تلفت نظر الآخرين فيقول: "هذه والله القيافة، ولا قيافة بنى مُدْلِج". وفيه أيضا: "قيل لرجل من العرب: قد نزلْتَ بجميع القبائل، فكيف رأيت خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث". وفى "العقد الفريد": "ومن بني ثُعَل عمرو بن المُسبِّح. كان أرمى العرَب، وإيّاه يَعْني امرؤ القَيْس بقوله:

رُبَّ رام من بَني ثُعَلٍ   مخْرجٌ كَفَّيْه من قتَرِه

وأدرك النبيَّ عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة فأَسْلَم". ويقول المرادى صاحب "سِلْك الدُّرَر فى أعيان القرن الثانى عشر" إن بنى ثُعَل "قبيلة من العرب رماة يُضْرَب بهم المثل لجودة رميهم". وفى "الوافى بالوَفَيات" للصفدى: "وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى باهلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصلُ من هاشمٍ   إذا كانت النفس من باهلهْ

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب: يا باهليُّ   عَوَى الكلب من لؤم هذا النسبْ

وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دُعِيَ في النسب إلى باهلة. فقال: هذا ما يمكن. فقيل: ولِمَ؟ قال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرَّوْا منها، فكيف يجيء من لا هو منها فينتسب إليها؟". وفى "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" لأبى

منصور الثعالبى وتحت عنوان "لؤم باهلة" نقرأ: "ولم تـزل العـرب تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خَفِيَتْ منهم تلك الصفة، وشَرُفَتْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم وبنيه حتى قال القائل:

إذا ما قريشٌ خلا مُلْكُها فإن الخلافة في باهِلَهْ

ومما يُحْكَى من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابي: أيسرّك أن لك مئة ألف درهم وأنت باهلى؟ فقال: لا والله. فقيل: أفيسرّك أن لك حُمْرَ النعم وأنك منها؟ قال: اللهم لا. قيل: أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال: نعم، ولكن بشريطة ألا يعلم أهلها أنني منها". وتحت عنوان "فيما يضاف ويُنْسَب إلى القبائل" من ذات الكتاب نجد قائمة الألقاب القبلية التالية: "إيلاف قريش، تِيه بني مخزوم، جود طيء، لؤم باهلة، رُمَاة بني ثعل، قيافة بني مدلج، عيافة بني لهب، خطباء إياد، ثريدة غسان، مهور كِنْدة، حَرّة بني سليم". وفى "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "سأل زِيادُ دَغْفلاً (النَّسّابة) عن العَرَب، فقال: الجاهليّة لليَمن، والإسلامُ لِمُضَر، والفَيْنَة بينهما لرَبيعة. قال: فأخْبرْني عن مُضر. قال: فاخِرْ بكنانة، وكاثِرْ بتَميم، وحارِبْ بِقَيْس، ففيها الفُرسان والأنجاد، وأما أَسَد ففيها دَلٌّ وكِبْر. وسأل مُعاويةُ بن أبي سُفيان دَغْفلاً فقال له: ما تقولُ في بني عامر بن صَعْصعة؟ قال: أعْناق ظِبَاء، وأعجاز نِساء. قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عافَةٌ قَافَة، فُصحاءُ كافَة، قال: فما

تقول في بني تميم؟ قال: حَجَرٌ أَخْشَن إن صادفْتَه آذاك، وإن تركتَه أَعْفاك. قال: فما تقول في خُزاعة؟ قال: جُوع وأحاديث؟ قال: فما تقول في اليَمن؟ قال: شِدَّة وإباء". ويقول ابن حمدون صاحب "التذكرة الحمدونية": "كان ملوك غسان يوصفون بالترفُّه والنعمة، فيقال: ثريدة غسان، كما يقال: فَالُوذ ابن جُدْعان، ومَضِيرة أبي سفيان"... إلخ.

ولكلّ قبيلة جد تنتمي إليه وتباهي به. وقد يكون هذا الجدّ جدًّا حقيقيًّا، أي إنسانًا عاش ومات وساد القبيلة وترك أثرًا كبيرًا فيها حتى نُسِبت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حِلْف تكوّن وتألّف من قبائل عديدة حتى عُرِفَتْ به وصار كأنه اسم جدها. ومن هذا القبيل اسم "تَنُوخ" على حد زعم أهل الأخبار، فقد رَوَوْا أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها. وقد يكون الجدّ اسم موضع أقامت القبيلة به فنُسِبت إليه كما يقول أهل الأخبار عن اسم "غسان". وقد يكون اسمَ إله نُسِب عُبّاده إليه مثل "بنو سعد العشيرة"، و"تالب ريام" جد قبيلة "همدان". وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما إلى ذلك مما يدخل في دراسة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقاتها.

ولا تقيم المصالح السياسية للقبائل وزنًا للأُخُوّة والنسب، فإذا اختلفت المصلحة لم تجد القبائل عندئذ أية

غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة أخرى ضدها. فـ"عَبْس" مثلاً تحالفت مع "بني عامر" في حرب البسوس على "ذبيان"، وهي أختها. وتحالفت "ذبيان" مع "تميم" على "عبس" مع ما بين "تميم" وبين "عبس" و"ذبيان" من عداء قديم. ووقعت حروب بين "تغلب" و"بكر" مع صلة الرحم والقرابة القوية التي كانت تربط بين القبيلتين الأختين. ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعدّها ملكًا لها تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريبٍ بالنزول فيها والمرور بها إلا بموافقتها ورضاها. وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها وعدّها أرضه. وتمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها، وتعيّن الحدود بتَلٍّ أو وادٍ أو ما شاكل ذلك. ونظرًا إلى عدم تثبيت القبائل أحيانا لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سببًا من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بينها.

وتُعَدّ مواضع الماء في أرض القبيلة بمثابة قِبْلةٍ لأبنائها، يستقون منها ما يحتاجون إليه من "إكسير الحياة". ولكل قبيلة حق حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدول. وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد أن يكون في حماية أحد أفرادها. وإذا كان المجتاز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيًّا يريد التنقل إلى أرض أخرى عبر تلك الأرض، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوّله

المرور بها، و إلا تعرض للمنع والقتال. لذا كان لا بد للتجّار من ترضية شيوخ القبائل للسماح لهم بالمرور بدفع إتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من العابرين.

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل الملك بالنسبة لمملكته، فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، وقد ينصّب نفسه ملكًا عليها، كالذي فعله ملوك كندة من بني آكل المُرَار وغيرهم من الملوك. وربما لا نخطئ إذا ما قلنا إن أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل في الأصل، استغلوا مواهبهم وإمكانات قبيلتهم وسخّروها في سبيل الحصول على المُلْك فنالوه. وعلى من يسود قومه أن يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم: كأن يتحمل أذى قومه، وأن يكون شريفًا في أفعاله حليمًا كريمًا يتجاهل السفهاء فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه ويحترم الآخرين مهما تكن منازلهم، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم، وأن يكون ملاذهم فى أوقات الحاجة، وأن يفتح بيته وقلبه للجميع فيكرم كل من يفد إليه من كبير أو صغير. وعلى الرئيس أيضا أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعًا لا يهاب الموت، وأن يكون واضع خطط

الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروه أو جَبُنَ في القتال أو خَرّ صريعًا في المعركة هربت قبيلته وتراجعت القهقرى، إلا إذا وُجِد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود.

ومن واجب الرئيس الإشراف على توزيع الغنائم، ومن حقه المِرْبَاع إن كان من ذوي المِرْبَاع. وعليه أن ينفق من جيبه على الضيوف، وأن يفتح بيته للقادمين إليه ويستقبلهم بوجه فرح بشوش، وأن يرعى شؤون قبيلته ويسأل عن أبنائها، وأن يسعى لفكّ من يقع من أبناء عشيرته أسيرًا في أيدي قبيلة أخرى، وأن يشارك قومه في تحمل الدّيَات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها، وأن يعين أتباعه في كل جناية يجنوها. ومن هنا جاء قولهم: "سيّدٌ معمَّم"، يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. ومن أعراف الحُكْم عند القبائل أن يشاور سيد القبيلة أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور الهامة ليستنير برأيهم. ومن شأن هذه المشورة أن تساعد سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من إدارة أمور القبيلة إدارة حسنة ترضي الغالبية، وقد تُوصِّل الرئيس إلى النجاح والنصر في الغزو فيرتفع اسمه ويعلو نجمه. ورأي أشراف القبيلة هو مجرد مشورة لا تلزم سيد القبيلة العمل بموجبها، فقد ينبذه ويعمل برأيه، لا سيما إذا كان متجبرًا عنيدًا. وقد يكون

النجاح حليفه فتزداد هيبته بين أتباعه، وقد يُمْنَى بخسارة فادحة فتقضي عليه وعلى رئاسته، وربما قضت على حياته أيضًا. والنظام القبلي هو نظام استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط، أما الأفراد العاديّون فلا رأي لهم في تسيير الأمور، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعْتَرَف بها كالحكمة والشرف، فعندئذ قد يدخل في عداد أُولي الرأي.

والنسب عند العربى هو جرثومة العصبية وأساسها، ولهذا كان يحرص على حفظ شجرة نسبه ويرفعها إلى جملة طويلة من الأجداد. وقد وجد السائحون أعرابًا سردوا لهم نسبهم سَرْدًا من غير كتاب مكتوب إلى عشرات من الأجداد، وتأكدوا بعد فحوص واختبارات أن ما سُرِد عليهم كان صحيحًا في الغالب. ونفس الشيء مع أهل المدَر، فهم يحرصون أيضا على حفظ نسبهم، وإن لم يكن كحرص أهل الوَبَر. وقد عثر الآثاريون على نقوش جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لكاتبيها، وهو ما يثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها. وقد يستلحق إنسان شخصًا ما، أى يُلْحِقه بنسبه ويجعله في حمايته وعصبيته. وقد يكون الشخص المستلحَق صريحًا معروف النسب، وقد يكون أسيرًا أو مولًى أو عبدًا، فيسميه المستَلْحِق: "مولاه" وينسبه إلى نفسه. ويقال للمستلحَق: "الدَّعِيّ"، ومثله المتبنَّى، وهو الذي تبناه رجل

ودعاه: "ابنه". وحُكْم الدعيّ عند الجاهليين هــو حُكْــم النــسب الصحيح والبنوة الشرعية. لذلك كان الجــاهليون يورّثونــه كمــا يورّثون الأبناء.

ولــ"الجوار" صلة كبيرة بالنسب والعــصبية عنــد للعــرب، فقد يتوثق الجوار وتقوى أواصره فيصير نــسبًا، و عندئــذ يــدخل نسب "المستجير" فى نسب "المجير" ويــصيران نــسبا واحــدا هــو نسب هذا الأخير. وقد اندمجت بــ"الجوار" أنــساب كــثيرة مــن القبائل الصغيرة أو القبائل التي تشعر بخــوف مــن قبيلــة أخــرى أكبر منها فتُضْطَرّ إلى طلب "جوار" قبيلة أكبر منــها تــدافع عنــها وتحمي حياتها ومالها. فإذا استجار شــخص بــآخر أو اســتجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجواز صــبغة قانونيــة، ووجــب علــى المجير المحافظة على حق الجــوار، و إلا نزلــت المــسبّة بــه وازدراه الناس.

<u>أحلافهم</u>: وكان للأحلاف شأن خطير في حيــاة الجــاهليين، وتــتلخص فى أن يحلــف كــل طــرف للآخــر علــى التعاضــد والاتفاق، وكانوا ينظرون إليهــا علــى أن لهــا قداســة خاصــة وحرمــة، ويعــاملون الحانــث بيمينــه بأشــد أنــواع الــتحقير والازدراء. وتكــون بــين المتحــالفين مواثيــق علــى الوفــاء بالالتزامات التي نُصَّ عليها، ويتم إعلان الحلــف ليكــون معلومًــا بين الناس. وقد تُعْقَد الأحلاف لأغراض معينة فتكــون لهــا آجــال

محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صدّ غزو أو في غزو قبيلة أخرى أو فى الأخذ بثأرها منها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمَّر طويلا، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عُقِد الحلف. ولم يكن تفكير العرب ليتجاوز، عند عقدهم هذه الأحلاف، مصالح العشائر أو القبائل الخاصة، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب جميعا أمام عدو خارجي.

وتُعْقَد الأحلاف على النار، وهذه النار تسمى: "نار التحالف". ذلك أنهم كانوا إذا عقدوا حلفًا أوقدوا نارًا ودعَوْا بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد. وقد أشار إلى هذه النار "أوس بن حجر"، إذ قال:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صدّ عن نار المهوّل حالفُ

كما أشار إليها الكميت:

هُمو خوّفوني بالعمى هُوّة الردى ... كما شب نار الحالفين المهوّلُ

ولا تُعْرَف صيغة واحدة معينة للقَسَم الذي يُقْسِم به المتحالفون: فمنهم من كانوا يقفون عند الأصنام التي يعبدونها ويقسمون بها. ومنهم، وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عند ركن الكعبة فيضع المتحالفون أيديهم عليه فيحلفون. ومنهم من كان يقسم بالآباء والاجداد لما لهم من مكانة في نفوسهم. ومنهم من كان يحلف عند المشاهد العظيمة أو عند قبور سادات القبائل، فيحلفون بصاحب القبر ويذكرون اسمه على ما يتحالفون عليه. وفي كتب أهل

الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عُقِدَتْ في مراسيم خاصة، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء. وكان من عادتهم أن يُحْضِروا في جفنةٍ طِيبًا أو دمًا أو رمادًا، فيُدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، وقد يحلفون بالملح وبالماء.

وتدوّن الأحلاف أحيانًا لتوكيدها ثم تحفظ عند المتعاقدين، وقد تُودَع في المعابد كالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب أقسموا على اتباع ما كُتِب فيه. وفي شعر زهير بن أبي سلمى يطالعنا قوله:

ألا أَبْلِغِ الأحلاف عني رسالة وذُبْيَان: هل أقستمو كل مُقْسمِ؟

كما نقرأ في شعر الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُرِيّ البيتين التاليين:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّ م فيه العهود والكُفَلاءُ

حَذَرَ الجَوْر والتعدّي، وهل ينـ ـقض ما في المهارق الاهواءُ؟

إشارةً إلى العهود والرهائن التي أُخِذت من بني تغلب وبني بكر للوفاء بما تعاهدوا عليه ودَوّنوه من شروط على "المهارق"، أي القراطيس. وكان الملك عمرو بن هند قد أصلح بين الطرفين بحلف سُمِّيَ: "حلف ذي المجاز" وأخذ عليهم المواثيق والرهائن. ويتم توثيق العهود والأحلاف والمواثيق بتوقيع المتحالفين وطبع خواتيمهم فى أسفلها. وشهادات

الشهود على صحة العقود والأوامر الملكية معروفة عند أهل اليمن، وكذلك عند أهل مكة، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القُرَى وسادات القبائل. ولما كانت مراسيم الأحلاف من الأمور المهمة والأحداث الخطيرة اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين، فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على طعام واحد كالذي حدث من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين فى "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهرًا من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف لما للخبز والملح من أثر عند العرب. فعلى من يأكل خبز رجلٍ وملحَه أن يوفي له. ولهذا يعنَّف الغادر ويوبَّخ لعدم مراعاته حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرَّحِم.

دياناهم: جاء فى "نهاية الأرب" للنويرى أن العرب لم يكونوا كلهم على دين واحد، بل عدة أديان: فصِنْفٌ منهم أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع الـمُحْيِي والدهر الـمُفْنِي، وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا أصنام قوم نوح، إما بعينها وإما بأسمائها: فكان لكلبٍ وَدٌّ، ولهُذَيْلٍ سُوَاع، ولقسم من اليمن يغوث، ولذي كلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات، ولقريش وبني كنانة العُزَّى، وللأوس والخزرج مناة. وكان هُبَل على ظهر الكعبة،

وهو أعظم أصنامهم، وإساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في الكواكب السبعة السيارة، ويعتقدون أنها فعالة بأنفسها، ويقولون: مُطِرْنا بنَوْء الكواكب. وكان منهم من يعبد الملائكة أو يعبد الجن. ليس ذلك فقط، بل كانت لهم أحكام يدينون بها: فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويُحْرِمون ويطوفون ويَسْعَوْن ويقفون المواقف ويرمون الجِمَار ويغتسلون من الجنابة ويُدِيمون المضمضة والاستنشاق وفَرْق الرأس والسواكَ والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط، ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بإبقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه: "الضَّيْزَن"، ويقطعون يد السارق اليمنى. وكانوا يجمعون بين الأختين، فجاءت الشريعة بمنع هذا الجمع. وكانوا يَعُدّون الظِّهار طلاقا، وتعتدّ المرأة عن الوفاة بحَوْل. وكانوا إذا لُبِّس عليهم أمرٌ ردُّوه إلى كهنتهم، الذين يدَّعون أن لهم أتباعًا من الجن. وكانوا يعوِّلون على عِيَافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم: تارة بالاعتماد على اسم الطائر، وتارة بطيرانه يمينا أو شمالا، وتارة بصوته ومقدار ذلك الصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، فجاءت الشريعة بإبطال ذلك.

علومهم ومعارفهم: كان العرب يَتْلُون العزائم لأصنامهم ويَرْقُون مرضاهم لإخراج الشياطين من أجسادهم، وكان اعتقادهم أن تقليد نهيق الحمير يمنع انتشار الوباء، وأن شرب دماء الملوك يشفى من الخبل. كما كانوا يعالجون بالعقاقير النباتية والأشربة، وخصوصا العسل، الذى كان أساس العلاج فى أمراض البطن. وتجىء الحجامة والكَىّ على رأس قائمة الدواء عندهم، ومن هنا جاء المثل المشهور: "آخر الدواء الكَىّ". وكثيرا ما كانوا يعالجون بالبتر، مع وقف نزيف الدم بالنار باستخدام شفرة محمّاة لقطع العضو المراد بتره. ومن طرقهم فى العلاج أيضا أنهم كانوا يأمرون الأحول بإدامة النظر إلى رَحًى دائرةٍ. كذلك كانوا يعتقدون أن المجروح إذا شرب ماءً مات، وأن شرب الماء الحار يُذْهِب الرَّوْع عن المرأة، وأن شرب دم السادة يشفى من داء الكَلَب، وأن عظام الميت تبرئ من الجنون. ويُفْهَم مما تَعِجّ به العربية من ألفاظ العلل والعقاقير أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض وعلاجاتها. ويرى جرجى زيدان فى كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" أن معرفة العرب الجاهليين لأسماء أعضاء الجسم على النحو الملحوظ فى لغتهم يدل على أنهم كانوا مهرة فى تشريح الجسد، وهو ما انتفع به الأطباء العرب فى عصور النهضة العربية بعد الإسلام. ومن أطبائهم فى الجاهلية الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث،

اللذان أفادا معارفهما وممارساتهما الطبية من رحلاتهما إلى بلاد فارس واحتكاكهما بأطبائها. أما فى ميدان البيطرة فقد كانت لهم معرفة جيدة بشؤون الخيل وأمراضها وطرق علاجها، ونبغ منهم عدد من البياطرة كالعاص بن وائل. وقد وضع العلماء فى العصر العباسى عددا من الكتب عن الخيل اعتمدوا فى تأليفها على ما جمعوه من المعارف العربية فى هذا السبيل.

ومن المعارف الطبيعية عندهم مقدرتُهم على تخمين وجود الماء فى مكانٍ ما من تشمّم تربته أو نباتاته، وتفوّقُهم المذهل فى اقتفاء الآثار والاستدلال منها على كثير من السمات الشخصية لمن يقتفون أثره، حتى ليستطيعون التفرقة بين قدم المرأة وقدم الرجل، وبين قدم البِكْر وقدم الثَّيِّب، وبين قدم العاقل وقدم الأحمق، وبين قدم الأعمى وقدم المبصر مثلا. وبالمثل كانت لهم بصيرة راسخة فى ميدان الفراسة، وهى الاستدلال بهيئة الشخص على طباعه وأخلاقه، فضلا عن براعتهم فى توقع نزول الغيث من ألوان الغيوم وأشكالها، وتفوقهم فى ميدان النجوم والاهتداء بها فى باديتهم المتناوحة الأطراف. وكانوا ينسبون المطر والريح والبرد والحر إلى تلك النجوم. كما عرفوا مواقع الكواكب والنجوم وأبراجها، ومنازل الشمس والقمر. وكانت لهم أساطير وخرافات تتصل بالأجرام السماوية، فكانوا يتحدثون عنها كما لو كانت بَشَرًا

تتحارب فيما بينها وتتزاوج، بل ألّهوها فى بعض الأحيان. ومن تشخيصهم لها قولهم إن الدَّبَران أراد أن يخطب الثُّرَيّا وتوسَّط القمر له عندها، إلا أنها رفضته قائلة: ماذا أفعل بهذا السُّبْرُوت الذى لا مال له؟ فجمع الدَّبَران قِلاصَه كى يقدمها مهرا لها وظل يتبعها بها حتى ترضاه زوجا، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم. وهذه المعارف والعلوم هى وليدة الخبرة والتجربة والأوهام جميعا، إلى جانب ما أخذوه عن الأمم المجاورة كالفرس والروم والكلدان.

فنونهم: لم يكن العرب فى الجاهلية يجهلون التصوير على الجدران، إذ كانت على حوائط الكعبة الشريفة آنذاك عدد من الصور منها صور إبراهيم وعيسى وأمه عليهم السلام. وثَمَّ نقوش ثمودية وصفوية ونبطية عُثِر عليها فى العصر الحديث محفورة فى الحجر تمثل آلهة وبشرا وحيوانات. وذكر الهمدانى فى كتابه: "الإكليل" أنه كان هناك جدار أمام أحد القصور الملكية القديمة فى اليمن عليه صورة الشمس والهلال، كما تحدث عن قصرٍ آخَرَ قديمٍ بتدمر مملوءةٍ جدرانه بالصور. كذلك عثر المنقبون الغربيون فى اليمن على نقوش جدارية تصور ناسا من تلك البلاد: بعضهم راجل، وبعضهم راكب فرسه، وبعضهم يقدم قربانا للأوثان.

وبالإضافة إلى ما تقدم كان كـثير مـن ثيـاب العـرب فى الجاهلية منقوشا بأنواع التـصاوير المختلفـة كتـصاوير الرِّحَـال، وهى صور الإبل بما يوضع على ظهرها مـن أكـوار. ويـسمى الثوب المنقوش بهذ الطريقة: "المـُرَحَّل". ومـن الـشواهد علـى ذلك البيتُ التالى لامـرئ القـيس، الـذى يتحـدث فيـه عـن خروجه مع صاحبته ليلا يتسحب بها فى هدوء كـيلا يـشعر بهمـا أحد، وقد أرخت ذيل مِرْطها "المرحَّل" للتعفية على آثارهما:

خَرَجْتُ بها تمشى تجـرّ وراءنا على أثـريْنا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ

كما عرف الجاهليون "الثيـاب المعـضَّدة"، وهـى الثيـاب المنقوش عليها صور الأعضاد، أو الـتى عليهـا صـورة العَلَـم فى موضع العَضُد منها. ومن ذلـك قـول زُهَيْـر بـن أبى سُـلْمَى فى وصف بقرة وحشية:

فجـالتْ على وَحْشِيّها وكأنها مُسَـرْبَلَةٌ من رازقِيٍّ معضَّـدِ

وثم بيت لامرئ القيس يذكر فيه عقودا مفقَّـرة تتـزين بهـا بعض صواحبه من الفتيات المترفات، وهـى عقـود مكوَّنـة مـن قطع ذهبية على شكل فقرات الجراد:

غرائـر فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمةٍ يُحَلَّيْنَ يـاقوتا وشَذْرًا مُفَقَّرا

وفى البيتين التاليين لعَبْدَة بن الطبيب وصـفٌ لفِـراشٍ كـان يجلس عليه هو ونداماه فى إحدى الحانات، وكـان مرسـوما عليـه صور دجاج وأسود:

حتى اتكأنـــا على فُـــرُشٍ يـــزيّنها   من جيّد الـــرَّقْم أزواجٌ تهاويـــلُ
فيها الدجاج، وفيها الأُسْد مُخْدَرَةً   من كل شىء تُرَى فيها تماثيـــلُ

كذلك كان للعرب تماثيل يـــشركونها مـــع الله فى العبـــادة، وكان فى فناء المسجد الحـــرام عـــشرات الأصـــنام: منـــها هُبَـــل، الذى كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة إنسان لـــه يـــد مـــن ذهب. ومنها وَدٌّ، وكان على هيئـــة رجـــل كـــأعظم مـــا يكـــون الرجال، وعليه رداء وإزار، وقـــد تقلّـــد ســـيفا وتنكّـــب قوســـا. وورد فى "مروج الذهب" أنه كان على كلٍّ مـــن يمـــين قـــبر حـــاتم الطائى ويساره تماثيل من حجـــر أبـــيض لأربـــع نـــسوة فى غايـــة الجمال ناشرات شعورهن كأنهن يَنُحْنَ عليـــه. ويقـــص الـــسهيلى فى كتابه: "الروض الأُنُـــف" أنـــه كـــان يوجـــد بقَلِـــيس صـــنعاء تمثالان: أحدهما تمثـــال رجـــل طولـــه ســـبعون ذراعـــا، والآخـــر لزوجته. كما جاء فى "معجم البلدان" لياقوت الحمـــوى أنـــه كـــان فوق قصر غمدان باليمن مجلس أقيم على كل ركـــن مـــن أركانـــه تمثال أسد مصنوع من شَبَه أو تمثـــال نـــسر طـــائر. واكتُـــشِف فى بعض المغاور اليمنية فى العـــصر الحـــديث تماثيـــل رجـــال ونـــساء وأبقار مكتوب عليها بالحِمْيَرِيّة. كما كانت بنـــات العـــرب يلعـــبن بتماثيل صـــغار يـــسمينها: "الجـــوارى" و"البنـــات". وفى الـــشعر العربى القديم كثيرا ما يشبّه الشعراء حبائبـــهم بالدميـــة والتمثـــال، ومنه قول النابغة فى وصف امرأة فاتنة:

قـــامَت تَـــراءَى بَينَ سَجْفَي كِلَّـــةٍ   كَالشَّمسِ يَـــومَ طُلوعِها بِالأَسْعُدِ

أَو دُرَّةٍ صَدَفِيّةٍ غَوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ وَيَسْجُدِ
أَو دُمْيَةٍ مِن مَرْمَرٍ مَرفوعَةٍ بُنِيَتْ بِآجُرٍّ تُشادُ وَقَرْمَدِ

وقول امرئ القيس:

وَيا رُبَّ يَومٍ قَد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ

أيامهم: وأيام العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصى، وسوف نكتفى هنا ببعض الوقائع المشهورة: فمنها يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، وكان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان للبَسُوسِ خالةِ جسّاس ناقةٌ فرآها كُلَيْب بن ربيعة تكسر بَيْض حَمَام موجودا في حِمَاه، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحرب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة. ويوم داحس، وكان لعبد القيس على فزارة، ودام سنين طوالا هلك فيها الكثير، وكان سببه مسابقة بين الخيل. ويوم ذي قار، وهو أيضا من أعظم أيام العرب، وكان كسرى إبرويز قد أَغْزَى بنى شيبان جيشا فظفر به الشيبانيون، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقد خلّد الأعشى ذلك النصر المؤزَّر فى قصيدة رائعة له. ويوم الستار بين بكر وتغلب، وقد حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم. ويوم بعاث بين بني الأوس والخزرج، وله ذكر في صحيح البخاري. ويوم الدرك بين الأوس والخزرج أيضا. ويوم نجران، وكان لبني تميم على

بني الحارث بن كعب. ويوم ذي الابل، وكان لتغلب على لخم وعمرو بن هند. ويوم الذنائب، وهو لغسّان على لخم ونجران. ويوم الغصيبة، ويقال: القصيبة، وكان لعمرو بن هند على تميم. ويوم النصيح، وهو لقيس على أهل اليمن، وقيل: يوم المضيح. ويوم الصفقة، وسُمِّيَ كذلك لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، ويسمى أيضًا: يوم المشقر، والمشقر حصن بالبحرين. ويوم البردان، وهو من أيام القحطانيين فيما بينهم. وقد وقع لحُجْرٍ آكل المُرَار من كندة (وهو أبو امرئ القيس كبير شعراء الجاهلية) على زيد بن الهبولة من قضاعة. ويوم عَيْن أباغ، وعين أباغ وارد الأنبار على طريق الفرات الى الشام، وقد وقع للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة. ويوم حليمة، وحليمة هى بنت الحارث، وبهذا اليوم ضُرِب المثل فقيل: "ما يوم حليمة بسِرّ"، وهو أيضًا للحارث الأعرج الحيرىّ على المنذر بن ماء السماء الغسانى. ويوم خزاز، لمَعَدٍّ على مَذْحِج، وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت مَعَدٌّ لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الاسلام. ويوم حُجْر، وهو لبني أسد على حُجْر (والد امرئ القيس)، وحجر

ملك من ملوك كندة. ويوم الأياد لبني يربوع على بكر، وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيد، ويسمى أيضًا: "يوم العظالة، ويوم الإفاقة، ويوم مليحة، ويوم أعشاش". وإنما سمي: "يوم العظالة" لأنه قد تعاظل على الرياسة فيه بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو. ويوم اللِّوَى لغطفان على هوزان، واللوى واد من أودية بني سليم، وسببه أَن عبد الله بن الصمة، ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان، غَزَا غطفان فظفر بهم وساق أموالهم ومضى بها. وحروب الفِجَار بين كنانة وقيس، وسميت: "الفِجَار" لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرّمونها ففجَروا فيها، وهي فِجَاران: الفجار الأول ثلاثة أيام، والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين. وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفجار مع أعمامه، وكان يناولهم النَّبْل، وانتهت سنة **589**م. ويوم بزاخة لضبة على إياد، وبزاخة ماء، وسببه أَن محرّقا الغساني وأخاه إيادا وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم أغاروا على بني ضبة بن أُدّ ببزاخة فاستاقوا النَّعَم، فأتى الصَّرِيخُ بني ضبة فركبوا فأدركوهم واقتتلوا قتالا شديدا. ثم إن زيد الفوارس حمل على محرّق فاعتنقه وأسره، وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي، فقتلهما بنو ضبة، وهُزِم القوم،

وأصيب منهم ناس كثير، فقال في ذلك ابن القائف أخو بني ثعلبة:

نِعْمَ الفوارس يوم جيش محرّقٍ   لحقوا وهم يَدْعُون: يا لضرارِ!

نيرانهم: كان للنار فى حياة العرب دور كبير، إذ اتصلت بكثير من جوانب حياتهم من خرافات وأساطير وعادات وتقاليد وقِيَم وأوضاع اجتماعية وشعائر دينية، وهو ما يتضح من الكلام التالى الذى جمعناه من بعض الكتب عن النيران عند العرب وعددها ووظائفها. ونبدأ ببعض أنواعها: فالأولى نار المزدلفة، وهي نار توقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها المنطلقون من عرفة، وأول من أوقدها قُصَيّ بن كلاب. الثانية نار الاستمطار، إذ كانوا في الجاهلية إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السَّلْع والعُشَر ويصعدون بها في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك يؤدى إلى سقوط المطر. قال الشاعر:

أداعٍ أنت بيقورًا مسلَّعة   وسيلةً منك بين الله والمطر؟

الثالثة نار الحِلْف، وكانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحِلْف عندها فيذكرون خيرها ويدعون بالحرمان على من نقض العهد. وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددتك. يخوّفونه بها حتى يحافظ على العهد ولا يحلف كذبًا. فإن كان الحالف مبطلا

نَكَل، وإن كان بريئًا حَلَف. ولهذا سَمَّوْها أيضًا: "نار المهوّل" و"الهُولة". وذُكِر أنهم كانوا لا يعقدون حلفًا إلا عليها .

الرابعة نار الطرد، وكانوا يوقدونها خلف من يمضي ولا يحبون رجوعه (وهى تذكرنا بما يقوله المصريون من أنهم سيكسرون وراء من لا يريدون أن يَرَوْا وجهه كرة أخرى قُلّة ماء). الخامسة نار الحرب، إذ كانوا إذا أرادوا حربًا أو توقعوا جيشًا أوقدوا نارًا على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم، وهو نوع من أنواع اللغة، بيد أنها لغة بصرية لا صوتية. وقد يكون فى قوله تعالى عن اليهود ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ومحاولاتهم الدائبة لتأريث الحروب بينهم وبين الأمم الأخرى: "كلّما أوقدوا نارًا للحربِ أطفأها اللهُ" إشارة إلى هذا. السادسة نار الحَرَّتين، وكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليلُ أضاءت نار تسطع، أما بالنهار فيُرَى دخان مرتفع، وربما بدر منها عنق فأحرق من مر بها، وقد يكون ظهورها، إن صحّ، راجعا إلى أن الأرض التى تظهر فيها متشبعة بالنفط. السابعة نار السعالي، وتظهر للمتقفّر (أى المنقطع فى القَفْر) فيتبعها فتهوي به الغول على زعمهم. وواضح أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون خرافة من خرافاتهم. الثامنة نار الصيد، وهي نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. التاسعة نار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن

النار. وفى الريف المصرى كنا، ونحن صغار، نسمع من الفلاحين أن الذئب يخشى النار خشية شديدة. ولهذا كان إذا تأخر أحدهم فى الحقل ليلا أشعل نارا وبقى بجوارها حتى لا يعدو عليه الذئب فيفترسه. العاشرة نار القِرَى، وهي نار توقد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا إليها.

الحادية عشرة نار السليم، وهو الملسوع، وكانوا يوقدونها للملسوع إذا لُدِغ، وكذلك المجروح إذا نزف دمه والمضروب بالسياط ومن عضه الكلب، ويساهرونهم بها كي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى التهلكة. وإذا كان الشىء بالشىء يُذْكَر فلعلّ القراء لم ينسَوْا ما حدث منذ سنوات حين استطاع أحد اليهود فى العاصمة الأردنية حقن خالد مشعل أحد أبطال حماس بحقنة سم فى أذنه، فاتصل الملك حسين على الفور بالمسؤولين الإسرائيليين كى يمدوه بالترياق الذى يبطل مفعول هذه الحقنة. وأذكر أن الأطباء المعالجين شددوا فى نصح مشعل بأن يغالب النوم بكل ما عنده من إرادة كيلا تغفل عينه أبدا مهما تكن الظروف إلى أن يصل الترياق ويتم حقنه به، وإلا مات. الثانية عشرة نار الفداء، ويقال فى تفسيرها إن ملوكهم كانوا إذا أسروا نساء قبيلة من القبائل خرجت إليهم السادة للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهارًا فيفتضحْن أو في الظلمة فيَخْفَى قدر ما يحبسونه لأنفسهم

من الصَّفِيّ فيوقدون النار لعرضهن. الثالثة عشرة نار الوَسْم، وهي النار التى يسم بها الرجل العربى إبله. الرابعة عشرة نار الحُبَاحِب، وهي كل نار لا أصل لها، مثل الشرار الذى ينقدح من نعال الدواب... إلخ.

أسواقهم: هى تجمعات تجارية واجتماعية وثقافية كانت تُعْقَد فى أماكن مختلفة من شبه الجزيرة بطريقة دورية، ويأتيها العرب من كل الأرجاء فيتاجرون ويسمعون المواعظ والخطب ويتنافرون ويتفاخرون ويَسْعَوْن فى فكّ أسراهم عند القبائل الأخرى. كما كانوا يتناشدون الشعر ويتحاكم مبدعوه إلى كبارهم كالنابغة الذبياني، الذي كانت تُضْرَب له قبة حمراء من أَدَم فيحكم بين الشعراء وتكون كلمته هى الفاصلة. وكانت القصائد التى تحوز إعجاب هؤلاء المحكَّمين تطير فى أرجاء الجزيرة ويتناشدها العرب فى كل مكان. كما كان للعرب حكّام يرجعون إليهم في أمورهم الأخرى ويتحاكمون أمامهم في منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم لأنه لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرائعه، فكانوا يحكِّمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة، ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظَّرِب وعبد المطلب وأبو طالب وصفوان بن أمية وغيرهم. وكان في نساء العرب أيام الجاهلية أيضا حاكماتٌ اشتهرن بإصابة

الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي، منهن صُحْر بنت لقمان، وابنة الخس، وجمعة بنت حابس الإيادي، وخصيلة بنت عامر بن الظَّرِب العَدْواني، وحَذَامِ بنت الريان. وكان امتناع الناس في الأشهر الحُرُم عن إيذاء بعضهم بعضًا يساعد إلى حد ما فى الإقبال على هذه الأسواق. والمقصود هنا الأسواق الكبرى، أما الأسواق المحلية الصغرى التى كانت تُعْقَد أسبوعيا فكثيرة جدا، وليست من اهتمامنا فى هذا السياق. وقد عرفت الجزيرة العربية عددًا غير قليل من تلك الأسواق الموسمية، إذ بَلَغت أكثرَ من عشرينَ سُوقًا: من أهمها سوق دُومة الجندل، وكانت تقع عند التقاء عدد من الطرق المهمة بين العراق والشام وجزيرة العرب، وموسمها شهر ربيع الأول إلى نصفه، وموقعها مدينة الجوف الحالية. وكان يعشّر من يحضرونها (أى يأخذ منهم قيمة العُشْر من ربح تجارتهم) رؤساءُ آل بدر في دُومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشّرهم بعض رؤساء كلب. وكان العُشْر يؤخذ عَيْنًا أو نقدًا بحسب الثمن، ولما كان النقد قليلا إذ ذاك كان الدفع عينًا هو الغالب في أداء هذه الضريبة. ثم سوق المُشَقّر، والمشقّر حصن بالبحرين قرب مدينة هجر، وتُعْقَد سوقه في جُمَادَى الآخرة. ثم سوق هَجَر من أرض البحرين، وهي سوق التّمر الذي يُضْرَب به المثل فيقال: "كجالب التمر إلى هَجَر"، وهو يساوى المَثَل

المصرى: "يبيع الماء فى حارة السقائين"، وكانت تعقد في ربيع الآخر، وكان يعشّر مرتاديها المنذرُ بن ساوَى أحد بني عبد الله بن دارم. ثم سوق عُمان، وكانت تقصدها العرب بعد الفراغ من هَجَر، ويقيمون بها حتى آخر جُمَادَى الأولى، وتجتمع فيها تجارة الهند وفارس والحبشة والعرب. ثم سوق حُباشة، وهي سوق تِهامة القديمة، وكانت تُقام في رجب، وقد ورد أن الرسول دخل إليها بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها ذات مرَّة هو وغلامها ميسرة أيام أن كان يشتغل عندها قبل البعثة فربحا ربحا حسنا. ثم سوق صُحَار، وهي مدينة عمانية تقع على البحر، وكانت سوقها تعقد في رجب. ثم سوق الشِّحْر على الساحل الجنوبي بين عدن وعمان، وكانت سوقا لتجارة البحر والبر، وتعقد في منتصف شعبان. ثم سوق عَدَن، وينتقل إليها العرب بعد انتهائهم من سوق الشِّحر، وتُقام فى الأيام العشر الأوائل من رمضان. ثم سوق صنعاء، وتستمر من منتصف رمضان إلى آخره. ثم سوق حضرموت، وكان انعقادها في منتصف ذي القعدة، وربما أقيمت هي وعُكَاظ في يوم واحد، فيتوجّه بعضهم إلى هذه، وبعضهم إلى تلك.

أما أشهر هذه الأسواق على الإطلاق فأربعة هي سوق عكاظ، وكان مكانها بين مكة والطائف، وإن كانت إلى الطائف أقرب، وكانت تستمر عشرين يومًا من أول ذي

القعدة إلى العشرين منه، وهي أشهر أسواق العرب وأعظمها شأنًا. ولم تكن عكاظ سوقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا سوقا أدبية يجتمع فيها الشعراء من كل صُقْع، ولهم محكَّمون كالنابغة الذبياني تُضْرَب لهم القباب، وقولهم في الشعر والأدب لا يُرَدّ. كما كانت كذلك مكانًا لأصحاب الدعوات الإصلاحيّة مثل قُسّ بن ساعدة الإيادي، الذي كان يخطب في الناس ويذكِّرهم بعظمة الخالق. وورد أنَّ الرسول رأى قُسًّا فى تلك السوق على جمل أحمر. ومن خطبائها المشهورين أيضا سَحْبان وائل، الذي ضُرِب به المثل فقيل: "أخطب من سحبان". ويقال إنه إذا خطب يسيل عرقًا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه. وكان الخطباء يخطبون وعليهم العمائم, وبأيديهم المخاصر, ويعتمدون على الأرض بالقِسِيّ ويشيرون بالعصا والقَنَا راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض. وكانت شؤون هذه السوق لقيس بن عَيْلان وثقيف، وهي سوق عامة ليس فيها عشّار، وكانت تحضرها قريش وخزاعة وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أحياء العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وغيرها. ثم هناك سوق مَجَنَّة، وتعقد بأسفل مكة بمَرّ الظهران. وكان الناس يقبلون إليها بعد عكاظ ويقيمون بها الليالي العشر أو العشرين المتبقية من ذي القعدة حتى يَرَوْا

هلال ذي الحجـــة فينتقلـــوا إلى ذي المجـــاز للحـــج. وهـــى، وإن كانت أقل شأنًا مـــن عكـــاظ وذي المجـــاز، تـــساويهما في نظـــر المـــُحْرِمين من العرب وتتمتـــع بـــاحترامهم جميعـــا حـــتى كانـــت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سوق عكـــاظ ومجنّـــة وذي المجاز إلاّ مُحْرِمين بالحج". ثم سوق ذي المجـــاز، وهـــي علـــى مسافة ثلاثة أميال من عرفات بناحيـــة جبـــل كبكـــب، أو كانـــت تعقد بمِنًى بين مكة وعرفات، علـــى خـــلاف فى ذلـــك، وكانـــت تنعقد فى ديار هُذَيْل حين يهلّ ذو الحجـــة فينـــصرف النـــاس مـــن سوق مجنَّة إليها، ويقيمون بهـــا حـــتى اليـــوم الثـــامن مـــن ذلـــك الشهر، وهو يوم التّروية. وهذه السوق تتلـــو عكـــاظ في الأهميـــة، وكانت تؤمها وفود الحجـــاج مـــن ســـائر العـــرب ممَّـــن شـــهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويجري فيها مـــا يجـــري في غيرهـــا من البيع والشراء وتناشُد الأشـــعار والمفـــاخرة والمفـــاداة. ورُوِى أنَّ الرسول عليه السلام كان يؤمّهـــا لبـــث دعوتـــه إلى الإســـلام. وكان للأسواق دور كبير فى التقريـــب بـــين قبائـــل العـــرب لغـــةً وأدبا، فضلا عما كانت تحدثه من انتعاش اقتصادى بينهم.

ولعل من المستحسن أن نتريث قلـــيلا عنـــد عكـــاظ، أهـــم أسواق العرب كلها، لتقديم صورة لهـــا مفـــصلة بعـــض الـــشيء: لقد كانت تقع في الجنوب الشرقي من مكة، وعلـــى بعـــد عـــشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً مـــن مكـــة في واد فـــسيح فيـــه

نخيل وأعشاب وماء. وتكمن أهميتها فى وقوع الحج بعدها مباشرة وفى قربها كذلك من مكة. فمن أراد الحج من العرب سَهُلَ عليه أن يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغِشْيانه سوق عكاظ وبين الغرض الديني بالحج. كما كانت تنعقد في شهر من الأشهر الحرم لا تُقْرَع الأسنّة فيه حتى ليلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يزعجه تعظيمًا له. وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة، وهي أن يأمن التجار فيه على أرواحهم وأموالهم. وكان يأتي إلى عكاظَ قبائل قريش وهَوَازِن وغَطَفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب فتنزل كل قبيلة في مكان خاص بها. وفي التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مع العباس بن عبد المطلب إلى عكاظ ليرى منازل القبائل فيها، ويروى كذلك أنه عليه السلام جاء كندة حيث ينزلون بعكاظ. كما كان يشترك فيها أهل اليمن والحيرة. ويقول الأزرقي: كانت في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، إذ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته. ويروي ابن الأثير أن النعمان بن المنذر لما ملّكه كسرى إبرويز على الحيرة كان يجهز

كل عام لَطِيمة، وهي القافلة من التجارة، لتباع بعكاظ. فترى من هذا أن بلاد العرب جميعها كانت تشترك في هذه السوق.

فإذا كان الحج خرج الناس إلى عكاظ فيصبحون به يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تنعقد فيها أسواقهم ويقوم على كلّ قبيلة أشرافُها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء. فإذا مضت أيام السوق انصرفوا إلى مجنّة فأقاموا بها عَشْرًا يتاجرون، فإذا رَأَوْا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ثم إلى عرفة. وكانت قريش وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ والمجنّة وذا المجاز إلا مُحْرِمين بالحج، وكانوا يستعظمون أن يرتكبوا شيئًا من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض في الأشهر الحرم. وكانت لسوق عكاظ عدة وظائف: فهي متجر تُعْرَض فيه السلع على اختلاف أنواعها من السيوف والأَدَم والحرير والوِكَاء والحذاء والبُرُود من العَصْب والوَشْي والسمن، إلى جانب الرقيق وغيره. ولم تكن السلع التي تُعْرَض في تلك السوق مقصورة على منتجات جزيرة العرب وحدها، بل تباع فيها كذلك حاصلات الحيرة وفارس ومصر والشام والعراق. ويروون أنه قبل البعث بخمس سنين حضر السوقَ من نزار واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق.

وكانت للسوق، إلى جانب ذلك، وظائف اجتماعية مختلفة: فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ. وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر هناك فيقوم رجل فيخطب قائلا: ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولا. فإن أُعْتِب، وإلا أقام شاخصا يشبهه على رمح منصوب فلعنه الناس ورجموه. ومن كان له دَيْن على آخر أَنْظَرَه إلى عكاظ. ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ، ومن ذلك ما ذكره الأصفهانى من أن رجلا من هوازن أُسِر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه، فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم. وكثيرًا ما تُتَّخذ السوق وسيلة للخِطْبة والزواج، فيروي صاحب "الأغاني" أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بموسم عُكَاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر، فتردد أبوها ففخر كل منهما بقومه وعدّد فِعَالهم شِعْرًا. ومن كان صعلوكًا فاجرًا خلعته قبيلته فى سوق عكاظ وتبرأت منه ومن تصرفاته، مثلما فعلت خزاعة حين خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ وأشهدت الناس على ذلك معلنةً أنها لا تطالَب بأية جريرة يرتكبها ضد أى إنسان. ومن كان داعيًا إلى إصلاح اجتماعي أو ديني وجد فرصته فى عكاظ

حيث تجتمع القبائل من أنحاء الجزيرة كلها. وكثيرًا ما وقف قُسّ بن ساعدة بسوق عكاظ يعظ ويخطب على جملٍ له، فيرغّب ويرهّب ويحذّر وينذر. وعندما بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مَجْمَع القبائل، إذ كانت قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تترل بها، ويبعث ملك الحيرة تجارته إليها، ويأتي التجار من مصر الشام والعراق. وكان ذلك الاجتماع أيضا وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات وأخذ العرب بعضهم من بعض ما يرون أنه أليق بهم وأنسب لهم. كما كان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق يُطْلِعون العرب على أشياء من أحوال تلك الأمم الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضًا للبلاغة ومدرسة يُلْقَى فيها الشعر والخطب، إذ كانت بها منابر يقوم عليها الخطيب فيعدد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام. وكانت كل قبيلة تترل في مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة أو عند شجرة أو حول خطيب يخطب على منبر أو في قباب من أَدَم تقام هنا وهناك. وكان أشراف القبائل يتوافَوْن بالأسواق مع التجار لأن الملوك كانوا يخصّون كل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم يتوافَوْن بها من كل أَوْب.

الفهرست

كلمة الافتتاح: 7

1- الشِّعْـــــر: 15

2- القَصَـــص: 85

3- الأمثـــال: 131

4- سَجْع الكُهّان: 183

5- الخـُطَــب: 211

6- المجتمع الجاهلى من القرآن: 287

7- الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون

والأيام والنيران والأسواق: 355